اقرأ

سامي الكيالي

مع طه حسين

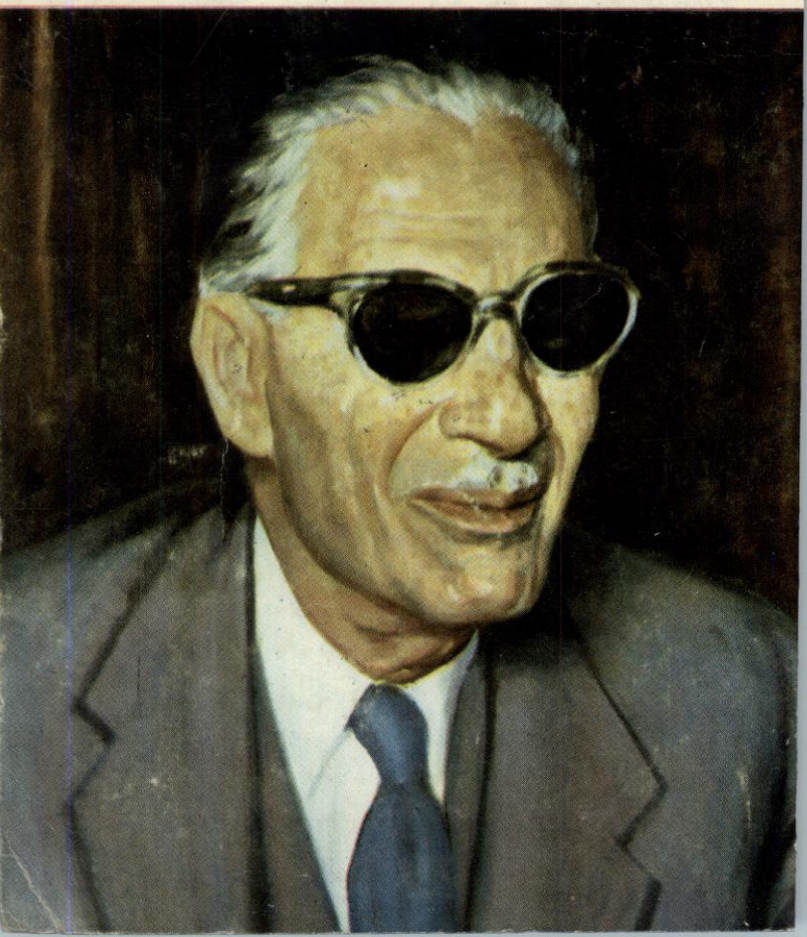

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

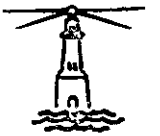

دار المعارف بمصر

سامي الكيالي

مع طه حسين

اقرأ ٣٧٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٥ – نوفمبر سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م

إلى من قرأت شخصه من الغلاف إلى الغلاف

إلى قرينة طه حسين

إلى من شرفها بالانتماء إليه

إلى امينة ومؤنس

إلى من عشق موسيقاه كاتبًا وخطيبًا ومعلمًا

إلى اللاهثين

من دار المعارف

طه حسين كما عرفته

مقدمة بقلم المشرف العام على دار المعارف

مشيت مطرق الرأس مع الجماهير الغفيرة من رجال الدولة والشعب مشيّعاً جثمان عميد الأدب العربى — وشهر أكتوبر الماضى يسلم آخر أيامه للزمان — فرأيت المعجزة تمشى فى صندوق على أعناق أساتذة الجامعات فى طريقها إلى مثواها الأخير . والحفل كله — كما قال طه حسين فى كتاب « الأيام » — يتحرك ببطء . وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دُور!

الرجل المعجزة من أبناء الريف : ولد فى بيت فقير . وترى وسط الفاقة والمرض ، ففقد بصره وهو فى الرابعة من عمره . ومع ذلك رحل — والعين تقتحمه — عن قريته عزبة الكيلو إلى القاهرة ، ليدرس فى الأزهر ، ثم تعلّم الفرنسية وهو فى الخامسة والعشرين ، وسافر إلى باريس عام ١٩١٥ ، وهناك تزوج من زميلته الفرنسية . وحصل على الدكتوراه من السربون عام ١٩١٨ ، عن الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون ؛ ثم عاد إلى القاهرة . فأصبح أستاذاً للأدب العربى فى كلية الآداب ، وتولى عمادتها ، ثم أصبح مديراً لجامعة فاروق . ووزيراً للمعارف ، وحصل على أول جائزة تقديرية فى الأدب . وعلى جائزة الأمم المتحدة فى حقوق الإنسان . وفيما بين ذلك ملأ الصحف المصرية بآرائه السياسية ، وغمر العالم العربى بكتبه الأدبية . وثار على الجمود الفكرى . فلقى بسبب ثورته اضطهاداً لم يطاول عزمه . فقال : « أنا قلق دائماً ، مقلق دائماً ، ساخط دائماً ، مثير للسخط من حولى » . وها هو ذا

بعد أربعة وثمانين عاماً يرحل عن الدنيا ، فتكرّم الدولة نفسها بتكريمه ، ويترك عشرات الألوف بيوتهم وأعمالهم ليسيروا وراء جثمانه من قاعة جمال عبد الناصر بجامعة القاهرة — ولأول مرة — إلى مسجد صلاح الدين بالمنيل !

كيف حدثت هذه المعجزة فأصبح الفتى الريفى الضرير هكذا عملاقاً من عمالقة الأدب والثقافة ؟

كيف أحبت هذه الآنسة الفرنسية شاباً مصرياً فقيراً ، وهى تعرف أن بلده مصر كان إلى عهد غير بعيد محتلاً بالفرنسيين ؟

وكيف رضيت به زوجاً وهو لا يراها ولا يرى ما حولها ؟

وكيف قبلت أن تترك باريس من أجله لتعيش فى القاهرة ؟

أسئلة لا جواب عنها إلا أن هذه الآنسة قد وجدت فى شخصية طه حسين ما لم تجده فى سائر الرجال : ذكاء خارقاً وعزماً نادراً .

وكيف استطاع هذا الذى فقد بصره وهو طفل صغير أن يحتفظ ببصيرته وهو شاب ، فيتابع دروسه باللغة الفرنسية ، حتى إذا عمل فى الجامعة أستاذاً للأدب العربى القديم اختزن ما قرئ عليه وهو كثير كثير ، ثم جعل ينتقى مما سجلته ذاكرته ما يلقيه فى محاضراته على تلاميذه ؟

كيف تعلّم اليونانية والإغريقية ، وكيف أدار الجامعة وأدار الوزارة ، ورأس المجمع اللغوى ، وكيف فرض نفسه على المجتمع الأدبى والسياسى ، فلم يَعُد أحد يكتب أو يخطب بدون أن يحسب حساب طه حسين ؟ أسئلة كانت تنقر رأسى مع كل خطوة أخطوها وراء هذا الصندوق الذى يحتويه ، ثم عدت بذاكرتى إلى وراء . . .

أسلوبه فى الحديث والكتابة

زرته قبيل رحلته الأخيرة إلى إيطاليا ، فغمرنى بعطفه وغمزاته ؛ واتصل الحديث ، فقلت له ناقداً وهو يضحك : « يا دكتور لقد قضيت فى مكتبتك دقائق أنتظر دعوتى للقياك فلم أجد فى المكتبة كتاباً عربياً يوحّد الله ! أفلا تجد فيما يصدر اليوم من الكتب العربية ما يستحق القراءة ؟» قال : « وهل الكتب العربية وحدها هى التى توحّد الله؟ ألم أقل لك إن تفكيرك قد تلفّ بعد أن تركت الجامعة واشتغلت بالإدارة ؟ أنا أقرأ أحسن ما يصدر للكتّاب المحدثين : أقرأ لنجيب محفوظ ولإحسان عبد القدوس ولفؤاد صروف وليوسف السباعى ولشوقى ضيف . ولكن شخصية لصيقة بى لا تعرف إلا الفرنسية ؛ فأنا أقرأ هذه اللغة ، وأفرز منها حين أكتب للقارئين العرب » .

إن هذا الذى ذكره لى طه حسين يلقى الضوء على قوله فى وصف رجل بليد : « له نفس ملساء تتدحرج من فوقها الأحداث فلا تكاد تترك فيها أثراً » ؛ وعلى قوله : « إن من الناس أنانيين فى الفضل يحبّون التفضل على غيرهم ولا يقبلون الفضل منهم » ؛ وعلى قوله عن تلميذ رسب فى الدور الأول من الامتحان : « لقد تأجل نجاحه إلى سبتمبر » .

وأرسلتُ له يوماً محاسباً من دار المعارف كان رئى النزعة حادّ الأسلوب ليبين له حقوق التأليف المستحقة له . فطلبنى تليفونياً وقال : « يا سيد ؛ إنك أوفدت لى محاسباً لم تسئ إليه المدنية الحديثة ! » ؛ ففهمت من ذلك أن المحاسب مطهر منها ! وقد عتب أخيراً على وزير تصرّفه معه فكتب إليه يقول : « أرجو ألا تتعب نفسك كثيراً فى إقامة حفل التأبين الكبير الذى أظنك تستعدّ لإقامته حين أموت ، فما دمت لم تكرمنى حياً فإننى لا أقبل تكريمك ميتاً » .

وحين وقف يستقبل النحاس باشا رئيس الوزراء فى جامعة فاروق سنة ١٩٤٢ خاطبه قائلا :

سيدى الرئيس .

« أنا أعرف أنك تكره الثناء ، ولكننى أحب أن أتحدى السلطان . ولذلك أشكرك بالرغم منك . إن هذه الجامعة لمّا تكمل من عمرها سنة واحدة ، فهى أصغر من أن تقوم بشكرك ، ولم يبقَ إلا أن أقوم عنها بهذا الشكر .

إن مهمة وزراء المالية فى جميع العهود هى أن يقولوا " لا ". ولكن وزير المالية لم يستطع أن يقولها لك فى هذه المرة ، فكانت هذه الجامعة » .

كان أسلوبه رقيقاً وساخراً . ولكن لا يمكن أن تكون الصورة فيه إلا فرنسية الأصل ، وإن كانت عربية المولد . ولست بهذا أقرر أن طه حسين كان ينقل عن الفرنسية ، وإنما أقرر أن دراساته وقراءاته الكثيرة بهذه اللغة كان لها هذا التأثير فى أسلوبه .

جلست إليه مرة بعد أن أهديته نسخة من « ذكريات عارية » — التى كتبتها من وحى كتابه الأيام ، وجاء فيها ذكره أكثر من مرة — فقال لى : « لقد هممت بالكتابة عنها لولا أن شيئاً واحداً ردنى عن ذلك . وهو أنك ختمتها بقولك إنك ترجو أن يوفق الله كل داعية إلى أن يسأل نفسه هذا السؤال : " هل من شأن هذا الذى أدعو إليه أن يزيد الإنتاج "» ؟ قال طه حسين : إنك بهذا تدعونا إلى أن نعيش لنأكل ، بدل أن نأكل لنعيش . وددت لو أنك أضفت إلى دعوة الإنتاج دعوة الخير والتعاطف ، ولو قد فعلت لشكرت لك دعوتك » .

وفى حديث لى معه قلت عن غير قصد وأنا أشرح له رأيى : ١ + ١ = ٢ ، فقال ساخراً : « إنك تعتقد أن هذه الحقيقة الحسابية هى أمّ الحقائق التى إليها ينتهى كل شىء . وأنا أزعم لك أن فى هذه الدنيا من حقائق الحب والإحسان ما يسمو على هذه القاعدة التى تتغنى بها » .

ولكن كيف عرفتُ طه حسين ؟

كان ذلك فى سنة ١٩٤٥ . وكنت مديراً لجريدة المصرى ، وكان يعمل معى محرر يتأخر فى تقديم مواده فتتأخر الجريدة بسببه . وبعد أن أنذرته غير مرة فصلته من عمله . فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين ؛ وكان المحرر أحد تلاميذه فى كلية الآداب ، فغضب لذلك غضباً شديداً . وعلمت بالأمر من صديقى الدكتور محمد حسن الزيات ، وكان قريباً منه قبل أن يتزوج من كريمته ، فاتصلت تليفونياً بطه حسين لأعرف سبب غضبه ، ودار بينه وبينى هذا الحوار :

ــ هل صحيح يا دكتور أنك غاضب منى ؟

ــ ومن أدراك يا سيدى أننى غاضب ؟ هل هى عقدة الذنب ؟

ــ أؤكد لك يا دكتور أننى لا أشعر بخطأ فضلاً عن ذنب ، ولكننى أجد من واجبى أن أسترضيك حين تغضب .

ــ يا سيدى أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تنصرف فى مواعيد محددة . أما المحرر فهو يكتب حين يستوحى لا حين تريد أنت !

ــ إنه ــ حين تعاقد معى على أن يعمل صحفياً ــ قد قبل أن يقيّد نفسه بمواعيد الجريدة .

ــ لا ، يا أخى . إن حرية الكاتب لا يمكن تقييدها بقيود .

ــ ليكن . ويكفى هذا المحرر أنه تلميذك لكى يستحق العودة إلى عمله . إننى كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد على خسارتها بإعادة تلميذك .

ــ إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح . وأنا أؤكد لك أن فى الحياة من المثل العليا ما يعلو على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبى ... وانتهى الحديث ...

واتصلت المودة بيننا ، وكنت أصدر عن جريدة المصرى سلسلة كتب شهرية باسم « كتب للجميع » ، وكان طه حسين قد ألّف كتابه المشهور « المعذبون فى الأرض » ، فصادرته السلطات . ولما تغيرت ظروف الحكم سمحت بتداوله ، فسارعت إلى طه حسين ، وتعاقدت معه على نشره فى السلسلة . وكان أن باع الكتاب ٣٢,٠٠٠ نسخة ، وهو رقم لم يعرفه كتاب آخر فى ذلك الوقت .

قوّة شكيمته

حين كنت مدرساً فى كلية التجارة بجامعة فاروق كان طه حسين مديراً للجامعة . وكنت أرنو للدرجة الرابعة ، وأستعجل عميدى زكى حسن ليحصل لى عليها . فهى ترفع مرتبى إلى خمسة وثلاثين جنيهاً دفعة واحدة . ولما طال انتظارى طلبت موعداً من مدير الجامعة .

قلت لطه حسين : إننى أشغل وظيفة مدرس « ا » ، ولا أشغل درجتها . فردّ على قائلا : « عميدك هو الذى ظلمك ، لأنه لم يتقدّم بترقيتك فى الوقت المناسب » .

— أنا لا أحب أن أنسب الظلم لعميدى . فقد كان أستاذى .
— إذن من الذى ظلمك ؟ . . أنا ؟
— لا . . . إنه حظى .
— إذن اشكُه للزمان .
— وأنت ملك الزمان !

فضحك طه حسين . ووعد بإنصافى . وفى أول جلسة لمجلس الجامعة كان الدكتور حسين فوزى عميد كلية العلوم متقدماً بطلب ترقية مدرس عنده ، ورأى طه حسين أننى أكثر استحقاقاً منه ، فطلب من عميد كلية التجارة أن يقدّم طلباً بترقيتى ، وأخذ عليه موافقة

المجلس برغم أن الدرجة فى كلية العلوم ، بحجة أن الجامعة وحدة واحدة .

وهكذا كان طه حسين لا يخضع فى عمله الجامعى للروتين الحكومى ، ولكنه كان يفكر بعقل طليق ، فإذا اقتنع بشىء أقرّه ولو جاء مخالفاً للوائح . وكان مديرو المستخدمين والمخازن ورؤساء الحسابات يلقون فى هذا عناء كبيراً لأنه يحطّم قواعدهم . ويكاد يعرضهم للمسئولية لولا أن طه حسين كان يترك لهم أن يسطروا على الورق اعتراضهم ثم يذيل ما كتبوه بكلمة « ولو » ، ويمضى .

كان طه حسين يرى دائماً أن شخصه أكبر من منصبه ، فلما كان عميداً لكلية الآداب كان صادق جوهر السكرتير العام — وهو فى الوقت نفسه رجل السراى — « كبير للكتبة » فى نظره . وقد واجهه بذلك فى مجلس الجامعة . ولما تولى إدارة الجامعة كان القول قوله حتى إن أحد العمداء احتجّ فى مجلس الجامعة على أمر يخص كليته ، فقال له طه حسين : « إذا كنت لا توافق على هذا الأمر فنى وسعك أن تستقيل من العمادة » . قال العميد : « إذن فأنا أقدم استقالتى منها » ، فردّ طه حسين : « واستقالتك مقبولة من الآن » . وهكذا دخل الرجل عميداً وخرج أستاذاً !

وقد استقل طه حسين بإدارة الجامعة ، فلم يكن يرجع فى شىء من شئونها إلى نجيب الهلالى وزير المعارف . ولكنه حين أصبح وزيراً للمعارف سيطر على مديرى الجامعات : فأصبحوا يرجعون إليه فى كل شىء .

وكنت أعرف فيه ذلك ، فلما جاءنى أحد زملائى — وكان قريباً لأحد الوزراء الوفديين — يقول إنه قدم طلباً إلى إدارة الجامعة بإمضاء رئيس قسم الاقتصاد ، وكان فى الحقيقة أستاذاً مساعداً . ردّ عليه طه حسين بخطاب يقول فيه : « إن هذا احتيال لا يليق بالعلماء ! »

وقال الزميل إنه أعدّ ردًّا على مدير الجامعة يقول فيه : « إن هذا القول جافّ أرفضه وأحتجّ عليه » . فقلت له : « لو كتبت هذا فسيكون لطه حسين معك شأن » ، ونصحته أن يغير الصيغة لتصبح « إن هذ القول ماسّ لا أستطيع أن أقبله » . قال : « وما الفرق ؟ » قلت : إن كلمة « جاف » تنصرف إلى مدير الجامعة ، ولكن كلمة « ماس » تنصرف إليك . والرفض كلمة إيجابية ، أما عدم القبول فهو موقف سلبي . واقتنع الزميل بالتغيير . فتقبّل طه حسين هذا الرد قبولا حسناً ، بل استدعى صاحبه وطيب خاطره بعد أن رعد بالتقيّد بلقبه العلمى الصحيح .

وخلال عملى فى كلية التجارة عرض علىّ صاحب المصرى أن أعمل فى الجريدة مع عملى فى الجامعة ، وأن يحصل لى على ترخيص بذلك فى غير أوقات العمل . ووعد بالتحدث فى ذلك إلى مدير الجامعة .

وذهبت إلى طه حسين أسأله : هل تحدث إليكم صاحب المصرى فى شأن الترخيص لى بالعمل معه كخبير ؟ قال : لا ، ولكنه كلم « نجيب » (يقصد نجيب الهلالى) ، ونجيب كلمنى فقلت له : « لا » . قلت : « ثم ماذا ؟ » قال : « هذا هو كل ما حدث » . فقلت : « إذن فأنا آسف لأننى أضعت وقتكم . لقد ظننت أنكم موافقون » . فاعتدل طه حسين فى جلسته وقال : « يا سيدى أنا حريص على أن أغضب صاحب المصرى . فإنه يجمع المال من جريدته ثم لا يزكى عنه بالإنفاق على الثقافة العامة » . قلت : « وهل الصحافة إلا تثقيف ؟ » . قال : « كلا ، إنها تجارة فيما يسلى الناس ولا ينفعهم » . قلت : « يا دكتور . إن عملى خارج الجامعة يساعدنى على تطبيق ما ألقيه على تلاميذى من نظر » ، فقبل منى ذلك ، وسمح لى بأعمال الخبرة التى هيأت لى فيما بعد أن أتفرغ للعمل فى الصحافة كمدير .

كتاب مفتوح

لقد قرأت لطه حسين ، كما قرأت لسواه من عمالقة الأدب . ولكننى ظفرت من شخصية طه حسين بما لم أظفر به من أحد منهم . كنت أخرج من جلستى معه بأن رجال الأدب فنانون لا يصحّ أن نطالبهم بأن يكونوا رجال أعمال . إنهم زهور تملأ الدنيا عبقاً . والزهور تنبت فى الحدائق لا فى المصانع والحقول . وكنت أحسّ أنه يرى فى شخصى كمدير يؤمن بالأرقام حاسباً يرى السلامة المالية ضرورة أولية . ويحصى على الناس أنفاسهم فيقيّد حقهم فى الحياة الحرة . ولعل الحق وسط بين هذين الاتجاهين . ولكننى لم أجد يوماً فى اختلاف نظرتنا ما يبعدنى عنه كتلميذ . ولا ما يبعده عنى كأستاذ . إنه فيلسوف وأنا مدير . ولقد حاولت أن أتعلم منه ما فوق الفلسفة والإدارة . حاولت أن أتعلم منه الإيمان بالمبدأ والدفاع عنه مهما كلفنى ذلك من جهد وجهاد .

لقد كان طه حسين اشتراكيًّا بالطبع لم يأخذ الاشتراكية عن إيديولوجية خاصة . وإنما كانت مركبة فى أعماق نفسه . زرته فى مكتبه وهو وزير المعارف فى سنة ١٩٥٠ . فجاءه السكرتير يقول إن أحمد مصطفى عمرو باشا يريد مقابلته لأمر يتعلق بتلميذ يريد أن يدخل إحدى المدارس الثانوية . فقال طه حسين : « وما حاجة مصطفى عمرو إلى مدارس الوزارة ؟ إن فى وسعه أن يرسله على نفقته إلى أوربا » . ولم يسمح له بالدخول . وبعد قليل جاء السكرتير يقول إن عسكريًّا سودانيًّا يشكو من أن مدرسة ابتدائية رفضت قبول ابنه فيها ، فقال : « هاته ». وعرف من العسكرى أن ابنه كبير السن ، وأن مدرسة شبرا ترفضه لهذا السبب . قال طه حسين : « ولماذا لا تدخله مدرسة روض الفرج وهى تقبل كبار السن ؟ » فعلق العسكرى بسذاجته : « ودانك منين يا جحا ؟ وأجيب

أجرة الترموای منين ؟ » . فأطرق طه حسين قليلا ، وطلب ناظر مدرسة شبرا ليأمره بقبول التلميذ .

كان طه حسين بشخصه وفعاله كتاباً مفتوحاً . واليوم — وقد انطوى الكتاب — نجد « اقرأ » التى افتتحت سلسلتها بكتاب « أحلام شهر زاد » لطه حسين فى ١٥ يناير عام ١٩٤٣ ، نجد من واجبها اليوم إحياء لذكره ونشراً لفكره أن تنشر هذا الكتاب « مع طه حسين » للأستاذ سامى الكيالى ، وأن تدعو كل من اتصل بحياة طه حسين أن يكتب عن جنباتها ، لتعوض القراء عن حرمانهم من حياته بحيوات تحاكيه .

السيد أبو النجا

الجزء الأول

١

عميد الأدب العربيّ ، المفكر الحرّ ، صاحب المدرسة الحديثة التي وجّهت الدراسات الأدبية وجهةً جديدة نقلتها من عصر الميوعة والتزمّت إلى عصر القوة والحرية والانطلاق .

المؤلف ، الناقد ، الأديب ، القاصّ الذى رشحته الهيئات الأدبية في الغرب لجائزة « نوبل » .

معرّى القرن العشرين ، ومفخرة مصر والعرب . .

الدكتور طه حسين .

إن الحديث عن هذا العبقرىّ الفذّ يحتاج إلى جهد كبير ، ووقت طويل . فهو دنيا قائمة بذاتها ، وحياته نفسها قصة من قصص البطولة ، بطولة الفكر اليقظ وعبقرية الذهن المنتج .

* * *

فتًى من أرياف مصر . لم يتميّز عن أقرانه إلا بحدّة الذّهن وقوّة الملاحظة . . . ما كادت الأقدار تصل بينه وبين دنيا المعرفة حتى سار في طريقه المتعب الشاقّ يقفز قفزاً . ويترك زملاءه وراءه وهم في حيرة وذهول من سرعة سيره وقوة قفزه . وسرعان ما ترك القرية إلى مصر ، ومن مصر إلى باريس . أى من الأزهر إلى السربون . .

ماذا ؟

قروىّ من ريف مصر . . وأزهرىّ معمّم من أقحاح الصعيد يصبح — مع عاهته التى أفقدته بصره وهو طفل — من طلاب السربون في جامعة باريس ؟

نعم . . هكذا كان .

ولم يكد يتم دراسته الجامعية فى باريس حتى اختير مدرساً فى « الجامعة المصرية » بعد أن كتب كتابيه الخالدين : « ذكرى أبى العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » : والأول بالعربية . والثانى بالفرنسية . . ومن التدريس فى الجامعة إلى عمادة كلية الآداب ، مع الكتابة المستمرة فى الصحف والمجلات التى جرّت وراءها خصومات أدبية عنيفة وجّهت الفكر العربى توجيهاً حرا . ووجهت الأدب العربى توجيهاً صحيحاً . إلى هذه المؤتمرات العالمية التى حضرها . فكان فيها موضع إعجاب وتقدير أكابر المفكرين . والمستشرقين بصورة خاصة ، إلى هذه المؤلفات فى شتى ميادين الفكر والحياة والأدب ، إلى عشرات المآثر الكبرى التى دخل غمارها بقوة وعنف وما زال حتى خرج منها يعلو جبينه الغار . .

وأخيراً إلى وزارة المعارف يرسم الخطط القويمة لمحو الأمية . والنهوض بمصر ، لتبلغ أسمى ما تحلُم به أمة تريد التحرر والسير فى مواكب الحضارة .

وفى كل فترة من هذه الفترات تاريخ ملىء بالحياة والمجد والعظمة .

ولا أريد هنا أن أكتب قصته — وهى سفر طويل تضيق به هذه الصفحات المحدودة من هذه السلسلة الكريمة — بل أريد أن ألمح إلى هذه المراحل من حياته الفكرية ، أعتمد فيها على كتبه وبعض ما كتبه ؛ وهى تصوّر ملامح من حياته الفكرية . هذه الحياة التى تزداد نوراً وإشراقاً ، وفيضاً وسناء ، كلما تقدمت به الأيام .

٢

ترجع صلتى بطه حسين إلى ما يقرب من ثلاثين سنة . كنت فى بدء حياتى الأدبية أقرأ كل ما يقع تحت يدى . وقد انجذبت منذ نشأتى الأولى إلى أدباء مصر . قرأت لشوقى وحافظ والمنفلوطى وقاسم أمين وفريد

حدى وفتحى زغلول . وكان لشعر حافظ إبراهيم الذى يصوّر فيه راضنا الاجتماعية أثره القوىّ فى نفسى ؛ وقد وجّهنى إلى نظم الشعر ، ظمت المقطوعات الصغيرة ، والقصائد ذات العشرين والثلاثين بيتاً . نت أزهو بشعرى — وهو لون من السخف — وشاء الله أن ينقذ الشعر منى ، لا كنت اليوم فى عداد الكثيرين من الشعراء النظّامين الذين يشكو أدب العربى العربى غلظتهم وسخفهم وهراءهم !

ومن حافظ إبراهيم الذى ظللت زمناً أترنم بشعره ، وأفضله على شوقى — طه حسين . .

وقع بيدى كتابه « ذكرى أبى العلاء » وأنا مريض ، فقرأت باحثاً ذ إلى صميم أبى العلاء . فما كدت أفرُغ من تلاوة كتابه حتى أحببت ل ، وأخذت أتابعه فى جميع ما كتبه .

ورجعت إلى مجلدات « المقتبس » التى كان يصدرها البحّاثة لدكرد على ، فعثرت على مقالات للشيخ طه الأزهرى ، أى طه حسين ، تها ، ولم تكن ذات بال . . على أن كتابه « ذكرى أبى العلاء » قد أمامى نوافذ تطلّ على الحياة العقلية عند العرب . كان النهج جديداً ، راسات الأدبية كانت بين يدىّ أعلام يردّدون ما سبقهم إلى ترديده خ الأدب فى العصرين الأموىّ والعباسىّ ، والذين كانوا نسخاً مكرّرة ، تلك الكتب من نصوص ؛ فلا تحليل لشعر الشاعر ، ولا درس ه ، ولا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التى كوّنته . كان ث يدور عن تاريخ ولادته ، ونبذة من سيرته كما أثبتها القدماء ، ج من نثره وشعره ، وكفى الله شيوخنا الأعلامَ مشقةَ الدرس ث !

لقد انتهيت بعد أن قرأت هذا الكتاب إلى أن الدكتور طه هو أول من أسس البحث العلمى فى الدراسات الأدبية . قد يقول قائل إن

المستشرقين قد سبقوه إلى هذا النهج . ولا يقول الرجل إنه من المبدعين له
بل حسبه أن كان أول وأجرأ أديب عربى معاصر حطّم تلك القيود القدي
فى البحث . وانتهج النهج الجديد الذى تسلكه الأمم الحيّة فى دراس
آدابها .

وقد أصبح . بهذا النهج الذى اصطنعه ، صاحبَ مدرسة جديد
فى الأدب ، سار فى إثره الكثيرون من أعلام الكتاب . كما نهج نهج
تلامذته الجامعيون . وما أكثرهم! وهم اليوم رمز النهضة الأدبية المعاصرة
لا فى مصر بل فى الشرق العربى كله . وفى أجزاء كثيرة من المغرب العربى
حتى المهجر الأمريكى .

٣

بعد هذه التوطئة أقف وقفات قصيرة مع بعض كتبه . أتبين بعض
صورها وملامحها وأثرها فى نفوس النشء . وما أحدثته من تيارات فى أدبنا
حياتنا العقلية .

لقد قلت إن أول كتاب قرأته لطه حسين هو كتابه « ذكرى أبى العلا
وهو كتاب عَرَضَ عرضًا شاملا حياةَ الفيلسوف أبى العلاء وشعرَه ون
وكتبَه وفلسفتَه وبيئتَه والحياةَ السياسية والفكرية فى عصره . ومع أنه
مرّ على صدور هذا الكتاب أكثر من خمسين سنة فلا يزال — بعد أن أض
إليه بعض الفصول — من المراجع الأدبية الهامة فى فهم الكثير من
أبى العلاء وعصره وفلسفته .

كتب طه حسين هذا الكتاب وهو فى الخامسة والعشرين من عم
وقد تقدّم به إلى « الجامعة المصرية » ليجوز امتحان عالميتها . وكان
سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف . . أى قبيل نشوب الحرب العالمية الأو
وقد نال شهادة الدكتوراه بتفوق . وكان ذلك بدء ذيوع صيت
الشاب .

وقد تلقّى الناس هذا الكتاب بكثير من الاهتمام ؛ لأنه لون جديد من الدراسة الأدبية . وكانت المفاهيم آنئذ لا تهضم هذا اللون من البحوث الجديدة ؛ فما كان من أنصاف الأدباء والمتزمتين وأصحاب العقول المتحجرة إلا أن هاجموه بعنف . وأخذوا يجرّون مقالات السبّ والشتم . وإلى هذا أشار فى مقدمة الطبعة الثانية للكتاب :

« . . ولقد كنت أودّ لو وجدت فيما كتبوا شيئًا يستحق أن يسطر أو يناقش . . ولكنى آسف الأسف كله . لأنى لم أجد فيما كتبوه إلا شتمًا وسبًّا . وإلاّ طُرُقًا فى الفهم مُعوجّة ، ومناهج فى التفكير عتيقة . . » — هذه الطرق المعوجة ، وهذه المناهج العتيقة . هى التى حاول طه حسين أن يهدمها . وقد حمل معوله وأخذ يهدم هذه الأسس ، وما زال بى أن وفّق إلى تغيير المناهج . والقضاء على الطرق المعوجّة قضاء مبرمًا .

* * *

أظهرُ ما فى كتاب طه حسين « ذكرى أبى العلاء » . فهمُه لفلسفة أبى العلاء . وردّها إلى مصادرها . وتصويره بيئة أبى العلاء وحياته تصويراً رائعًا . ثم هذه الألوان التى أضفاها على الدراسة الأدبية بهذا المنهج الجديد الذى أصبح سُنّةً الباحثين من بعده .

ولست أريد فى هذه السطور أن ألخص ما كتبه طه حسين عن ندّه وزميله أبى العلاء ؛ فموضوعنا لا يتناول هذه الناحية . ولكنّ ظهورَ هذا الكتاب ، وظفرَ صاحبه بدرجة العالمية ؛ وهى أول شهادة تمنحها الجامعة لأول تلامذتها ، ودرسَه حياة أبى العلاء دراسةً جديدة . وما أثاره صدورُ الكتاب من نقد وتجريح ؛ هو الذى حفزنى أن أشير إلى بعض الملابسات التى رافقت صدوره .

فقد كثر التهجّم على طه حسين حتى أرْجَفَ بعضُهم بقوله : . . . إن طه حسين جنَى على المسلمين . فأخرج من بينهم رجلا من

خلاصتهم . . »، وقال بعضهم الآخر : « إنه جنَى على أبى العلاء ، فأخرجه من دين الإسلام ! » .

بهذه العقلية المتحجرة قُوبل كتابُه ، وهكذا هوجمت طريقته فى البحث . وفاتهم — سامحهم الله — أن طه حسين لا يملك — كما قال أكثر من مرة — أن يدخل فى الإسلام أو يخرج منه أحداً . وإن كل ما عمله هو تصويره الدقيق لأبى العلاء ولحياته وأدبه وعصره وفلسفته وعقيدته ، أى أن مهمته اقتصرت على إبراز أبى العلاء بشخصيته الواضحة ، وتفكيره الصحيح ، لا بتلك الأوشاب والتخرصات التى عاقت بحياته على مر العصور .

٤

لم يكن طه حسين هذا الإنسان ، الذى يغريه المجدُ الرخيص . فيقف عنده مباهيًا معتزًّا . . ولا هو ممن يستمرئون الكسل على حياة الجد والعمل . . لا . . لم يكتف — وهو فى فجر شبابه — بهذا المجد ، فقد كانت نفسه تنزع إلى ما هو أسمى ، إلى أن يكوّن نفسه تكوينًا علميًا فذًّا .

وماذا بعد هذه المرحلة ؟

هل يظلّ فى مصر يستمع إلى أقوال الجَهَلة المتخرّصين ؟ ولا سيما بعد أن ذاق حلاوة النهج العلمى الذى رسمه له أساتذته الجامعيون من فحول المستشرقين ؟

لا . . إذن فليُوَلِّ وجهه شطر الغرب ، وليرسمْ لنفسه خطةً تغاير ما ألفه من قبل .

لقد ترك الناسَ فى مصر يتخبّطون فى شأنه وشأن كتابه ، وسافر إلى باريس يرشف من مواردها أصفَى المناهل العذبة .

لقد كان طه حسين طالبًا بالجامعة المصرية منذ تأسيسها ، وكان أول من ظفر بشهادتها العلمية حتى عُدَّ ابنها البكر .

وذهب فى بعثة إلى فرنسا ، ليتمم دراسته ، وقضى عامين تلميذاً فى السربون وفى الكوليج دى فرانس .

ولا بأس أن نلمع إلى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ حياته . . من الأزهر إلى السوربون . . من الحياة الشرقية بتقاليدها وقيودها إلى الحياة التى يحياها أبناء الغرب بحريتها وانطلاقها .

فقد كان طه حسين — وهو فى الأزهر — مثال الطالب الذكىّ ، الدءوب ، المجتهد ، الذى استطاع أن يتفوّق على زملائه ، وأن يلفت إليه نظر أساتذته الذين أعجبوا به ، وضاق بعضهم من كثرة إحراجه !

وفى حديث له عن المدّة التى قضاها فى الأزهر قال :

« إن المدة التى قضيتها فى الأزهر كانت فترة انتقال ، فكان محمد عبده يفسر القرآن على طُرُق حديثة ، والشيخ المرصفى يعلمنا الأدب ، وكلاهما يذمّ الطرق الأزهرية ؛ وكان قاسم أمين يقول بحرية المرأة ، وفتحى زغلول يترجم لنا كتبًا قيمة ، و « الجريدة » تنادى بمعايير جديدة فى السياسة والاجتماع ، فكنا فى اضطراب ذهنى لا نستقرّ ، وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفى أن طُرق الأزهر عنيقة ، فكنا نتكلّم ونناقش عن الإصلاح الذى كان يقول به الشيخ محمد عبده . وقد حضرت له محاضرتين . وحدث أنه بينما كنا نقرأ « الكامل » للمبرد وردت هذه العبارة : ومما كفّر الفقهاءُ به الحجّاج قوله والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره : « إنما يطوفون برمة وأعواد » ، فقلت أنا إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب . وبلغ قولى هذا شيخ الجامع الأزهر ، وسمعت أنه سيطردنى ، فذهبت إلى « الجريدة » أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع . وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد ، فرفض المقال ، ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعى أنا وسائر من غُضِب عليهم إلى الأزهر . . وتبيّن بعد ذلك أن طردنا

لم يتقرّر . ولكن من ذلك الوقت شعرت أن الأزهر لم يَعُدْ يُشبع ما فى نفسى من الأغراض الأدبية ، فتركته والتحقت بالجامعة المصرية » .

وإذ علم أن مدرسى الجامعة من الشرقيين والغربيين ، وأن إحدى اللغات الأجنبية ستكون أداة لتفهم المحاضرات والدروس التى ستلقى على الطلاب ، اختار الفرنسية يتعلم مبادئها . وكان فى حى الأزهر مدرسة ليلية تدرس الفرنسية وتتقاضى ، على ما قيل ، خمسة قروش فى الشهر من كل طالب . فانتسب إليها ، واستطاع فى خلال خمسة أشهر أن يلم بالفرنسية ، وأن تكون عونًا له على تفهم محاضرات الجامعة التى يلقيها الأساتذة الأجانب بالفرنسية .

وشعر التلميذ طه حسين بنشوة جديدة وهو يتلقّى دروسه على أساتذة غربيين ومستشرقين اعتمدوا فى تلقين تلامذتهم مناهج البحث الجديد ، وهى مناهج تختلف كل الاختلاف عن مناهج الأزهر .

وقد حبّبتْ إليه الدروسُ الجامعية الاستزادة . وظلّ فى الجامعة يروى ظمأه العلمى . ويجوز الفحص بتفوّق سنةً فسنة حتى عام ١٩١٤ حيث تقدم برسالته الجامعية لنيل شهادة الدكتوراه ، كما ألمعنا . وهى أول شهادة تمنح لطالب مصرى يتقدم لنيلها . .

ومن هو هذا الطالب ؟

شيخ أزهرىّ ضرير ، يكتب رسالته عن شاعر فيلسوف ضرير . عن صِنْوِه فى الذكاء والمعرفة ، عن أبى العلاء !

لقد اهتمّت الأوساط العلمية والأدبية بهذا الحادث أكبر اهتمام . .

وقد يكون من الأمانة العلمية ، ووفاء لتاريخ هذا الرجل . أن نثبت فيما يلى نص المحضر الذى وضعته اللجنة الفاحصة :

« . . فى يوم الثلاثاء الخامس من مايو سنة ١٩١٤ . فى الساعة الخامسة مساء ، اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية ، المؤلفة من

لأستاذ محمد الخضرى رئيسًا . والأستاذين محمد المهدى ، ومحمود فهمى ،
لمدرسين بالجامعة . والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين
ن نظارة المعارف أعضاء . لامتحان الشيخ طه حسين . الطالب بالجامعة
لمصرية ، وكان اجتماعها بهيئة علنية .

ناقشت الطالب فى الرسالة التى قدمها فى تاريخ أبى العلاء المعرى ، ثم
ى العلمين اللذين اختارهما ، وهما « الجغرافية عند العرب » و « الروح
لدينية للخوارج » . واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق . وبعد نهاية
لاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات . فقررت أنه
ستحق :

(ا) درجة جيد جدا فى الرسالة .

(ب) درجة فائق فى الجغرافية عند العرب .

(حـ) درجة فائق فى الروح الدينى للخوارج » . وفى منتصف
لساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور الذى احتشد فى قاعة الامتحان ؛
ارتاح مجلس الجامعة لهذه النتيجة . وقرر تبليغها لسمو الجناب العالى
لخديوى ، والتماس تقديم الشيخ طه حسين لأعتابه الكريمة ؛ بإشارة برقية
هذا نصها :

« حضرة ياور جناب خديوى المنتزه

الجامعة المصرية المشمولة برعاية الحضرة الفخيمة الخديوية عقدت
لبارحة لأول مرة امتحانًا علنيًا . تقدم إليه الطالب الشيخ طه حسين
لكفيف البصر لنوال الدكتوراه فى الآداب . وقد فاز فى هذا الامتحان
فوزاً باهراً ، ونال فيه أعلى الدرجات ، وهذه أول ثمرة من غرس ولى النعم ،
فمجلس إدارة الجامعة يلتمس من مكارم الجناب العالى الخديوى ؛ إن سمح
وقته الثمين . الإذن السامى بحظوة الطالب المذكور بالمثول بين يدى سموه .

وكيل الجامعة

شفيق »

وقد كان لهذه البرقية أثرها فى نفس سموّ الخديوى ، فأذن بالمقاب
وتحدّد الموعد . ويشير نص المحضر إلى ما يلى :

« فى الساعة الرابعة من مساء يوم الثلاثاء ١٢ من مايو سنة ٩١٤
تشرّف صاحب السعادة أحمد شفيق باشا وكيل الجامعة المصرية بالمثو
بين يدى الجناب العالى ، وقدّم إلى سموّه الدكتور طه حسين ، فتلقّاه
سموّه ، حفظه الله ، بما عهد فيه من البشاشة والبشر . وأظهر من العطف
على الجامعة وخريجيها ما يستحقّان أن يهنّآ به . ولبثا بين يديه مدة مر
الزمن ، وكان سموه يتفضّل ويسأل سعادة شفيق باشا عن كيفية امتحا
الدكتور طه حسين ، وموضوعه ، وأسماء الممتحنين . والدرجات التى نا
فى الامتحان ، فإذا شرح لسموه ذلك . وعلم أيضًا أنه أمضى امتحانات
آداب اللغة الفرنسية ، أظهر من السرور والابتهاج ، ومن الإعجاب
بنتيجة الجامعة المصرية ، والاستبشار بجمال مستقبلها ، ما هو ضمان لحسن
منزلة الجامعة من قلب الخديوى ، حفظه الله ، وعظم حظها من عطف
السامى ، ومعونته المالية . وقد أعجب سموه إعجابًا خاصًّا ، حين علم أن
الدكتور طه حسين قد درس الفرنسية ، وأدى فى آدابها امتحانًا نال فيه
٢٨ من ٣٠ درجة ، وقد تفضّل سموّه فسأل الدكتور طه حسين عن مبلغ
دراسته ، وعن المدة التى قضاها فى الأزهر الشريف . ولما علم سموّه بعز
"الجامعة المصرية" على إرسال الدكتور طه حسين إلى أوربة لإتمام درس
هنالك ، أظهر من الرضا بذلك ، والسرور له ، ما شجع الدكتور طه حسين
على كل ما عسى أن يلقى من المتاعب فى سبيل العلم وتحصيله ، لنفع الأمة
والجامعة المصرية » .

٥

أخذ الدكتور طه يعدّ العدّة للسفر إلى باريس . ولم يكن ذا سعة ،
ولم يشأ أهله أن يقفوا دون تحقيق رغباته بالرغم مما هو عليه . وكان لتفوقه

أثره فى نفوس الجميع . من عرف ومن لم يعرف .

ولعل من أطرف وثائق الجامعة القديمة أيضًا ذلك الالتماس الذى قدمه إليها الطالب الأزهرى السابق الشيخ طه حسين — هكذا — لكى تقرضه خمسة عشر جنيهًا يشترى بجزء منها ملابس إفرنجية بدلا من زيه الأزهرى ، ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها . استعدادًا للسفر فى البعثة إلى باريس . فصرفت له . كما صرفت له المكافأة التى وقفها الدكتور محمد علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى . وقدرها عشرة جنيهات لمن ينبغ من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ . بالنظر لتفوقه فى الدراسة ولنيله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جدا .

٦

وفى شهر مايو من سنة ١٩١٤ ، ركب الشيخ طه حسين البحر فى طريقه إلى فرنسا . وما كاد يصل إلى مرسيليا حتى أخذ طريقه إلى مونبلييه للدراسة العلوم التاريخية .

وقد أيقظ السفر فى نفسه عوامل مختلفة سجلها أكثر من مرة فى رسائله التى كتبها من باريس . وليس هنا موضع هذه الرسائل التى تضمنتها بعض كتبه ، بل حسبنا أن نشير إشارة خاطفة إلى سنى دراسته فى باريس ، ونعتمد على بعض أحاديثه فى هذا الصدد ، قال :

« . . وصلت إلى باريس فى أول يناير سنة ١٩١٤ ، بعدما مكثت عامًا فى مونبلييه . وكنت قد بدأت الدراسة بها . ثم ساءت حالة الجامعة المالية ، فأعادتنا فى أواخر عام ١٩١٥ . ومكثت ثلاثة أشهر فى مصر . . وما أحسبنى تألمت فى حياتى تألمى فى هذه الأشهر الثلاثة ، وأثر هذا الألم لانقطاع درستى قد ظهر فى مقالات بجريدة « السفور » . وبعد ذلك ساعد المغفور له السلطان حسين الجامعة ، فأعادنا إلى باريس .

« وأول ما وصلنا نزلنا فى تريانون بالاس أوتيل فى أول شارع فواجيرار ، ومكثنا بضعة أيام . وبعد ذلك سكنت عند عائلة تقطن الطابق السادس من البيت نمرة ٣٢ بشارع ديفير روشرود . وفى تلك العائلة فتاة كانت تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر ، فساعدتنى كسكرتيرة . والفضل لها فى أنه أمكننى أن أدرس اللاتينية ، كما درستها مع شارل بران الصحفى المشهور والأستاذ بمدرسة لوى لوكراند . وفى عامين درست اللاتينية . وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسى فى ست سنوات بين ثانوية وعالية .

« كانت حياتى بباريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة : السربون ، وفيه كنت أحضر دروس التاريخ القديم : تاريخ اليونان على جلوتز ؛ وتاريخ الرومان على بلوك ؛ والأدب الفرنسى على لانسون ؛ والفلسفة والاجتماع على دوركايم ؛ وديكارت على ليفى برول ؛ واللاتينى على مارنا ؛ والثورة على أولار ؛ والبيزنطى على شارل ديل ؛ والتاريخ الحديث على سينيوس ؛ والجغرافيا على دى مانجون وجالو .

« والمعهد الثانى هو الكوليج دى فرانس . وكنت أحضر فيه درس القرآن بالعربية على كازانوف . و علم النفس على بيير جانيه .

« والمعهد الثالث مكتبة القديسة جنيفياف . كانت تصحبنى الآنسة ، وكانت لى غرفة خصصت بها مدير المكتبة ، وكنت ألجأ إليها شتاء عام ١٩١٧ ، وكان البرد شديداً . ولا وسيلة إلى التدفئة فى البيت . فكنا نذهب لندرس ونتدفأ فى وقت واحد . .

« البيت : أعدّه المعهد الرابع ، فقد كنا نجتمع فى المساء . الآنسة وأختها وأمها وأنا . فنقرأ إحداهن رواية ، أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية ، فقرأنا تمثيل القرن الماضى ، وكثيراً من كتب أناتول فرانس وبورجيه وبريفو . وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة . ولا يقطعها إلا مداهمة الطيارات واضطرارنا إلى النزول فى « البدروم » . ولم تمض أشهر على إقامتى فى باريس

مع هذه العائلة حتى أحببت الآنسة التى كانت تعمل معى وخطبتها ، وبعد سنتين ، أعنى عام ١٩١٧ طلبت من الجامعة الإذن بالزواج فأذنت ، وتزوجنا فى أغسطس ولكن بعد ما كنت قد أديت امتحان الليسانس » .

* * *

لقد أحب طه حسين تلك الفتاة الفرنسية التى كانت النور الذى أضاء له جوانب حياته . وما كان — وهو فى باريس — ليفكر فى الحب الآثم . وأراد أن يتزوجها لتكون شريكة حياته . وقد قامت دون هذه الرغبة عقبات . فما كان ليسمح للطلاب بالزواج من الأجنبيات . وعلى طه حسين ، الشيخ الأزهرى ، أن يخضع لما تفرضه الأنظمة ، ولكن هناك عوامل كانت تدعوه أن يربط حياته بمن خفق قلبه بها ، وكانت له خير أنيس يبدد هذه الوحشة من غربة السفر . ويضىء بعض ما نزل به من ظلمة.

وتقدم إلى الجامعة يلتمس الإذن له بالزواج الاستثنائى . وقد شرح العوامل التى دفعته إلى هذا الزواج . ومما جاء فى خطابه قوله :

إنه بالنسبة إلى حالته الطبيعية الخاصة التى تقتضى اشتراك شخص آخر معه ليساعده على الدراسة ، وبالنسبة إلى كونه ، مدة إقامته فى فرنسا ، وجد فى أسرة منها فتاة كانت قارئته وكاتبته . وقد أخلصت له الإخلاص كله . بحيث أصبح لا يرى بدًّا من مرافقتها ، فهو يلتمس من الجامعة التجاوز له عن الشرط القاضى بعدم زواج الطلبة مدة دراستهم ، والإذن له بصفة استثنائية فى الزواج .

وقد تداول المجلس فى هذا الموضوع ، واختلفت الآراء فيه . فبعضهم قبل الموافقة على هذا الطلب الاستثنائى . مراعاة لحالة هذا الطالب الخصوصية وبعضهم قال بالرفض احترامًا لقرار المجلس السابق صدوره فى ١٥ مارس سنة ١٩١١ القاضى بعدم جواز تزوج طلبة الإرسالية ، ١ دامو فى سلك الدراسة بأوربا . وبعد مناقشة طويلة تقرر أخذ الآراء . فكانت النتيجة ما يأتى :

(ا) :

١ — إسماعيل حسنين باشا
٢ — عبد الله وهبى باشا } أبدوا رأيهم برفض الطلب
٣ — حسن سعيد باشا

(ب) :

١ — الدكتور محمد علوى باشا
٢ — المسيو فوكار } أبدوا رأيهم بقبول الطلب
٣ — عبد العزيز فهمى بك
٤ — أحمد لطفى السيد بك

وهكذا تقرر بالأغلبية الإذن للشيخ طه حسين بالزواج من الفتاة التى يرغب فى الزواج منها .

وكانت هذه الفتاة الآنسة سوزان ؛ وقد أشار روبير لاندرى ، الكاتب الفرنسى الشهير ، إلى هذا الزواج بقوله :

« . . وذات يوم بينما كان طه حسين على مقعده فى قاعة المحاضرات فى جامعة السربون سمع صوتًا جميلا يرن فى أذنيه ، صوت صبية حنون تقول له بعذوبة : إنى أستطيع أن أساعدك فى استظهار الدروس . كانت صاحبة الصوت سوزان التلميذة الفرنسية المنحدرة من عائلة كاثوليكية فى مدينة بورغون .

وقد ظلت سوزان تتردّد زمنًا طويلا قبل أن تتزوج طه حسين المسلم .

ولكن أحد أعمامها استطاع أن يقنعها ، وكان ذلك العم قسيسًا ، وقد قال لها : « مع هذا الرجل يمكن أن تثقى بأنه سيظل معك دائمًا » .

وعاشت سوزان وطه حسين فى منزل متواضع فى الحى اللاتينى . وهنا بدأت مهمة الزوجة المثالية فى إخراج زوجها عن عزلته الروحية والمادية عن الناس ، وعاش طه حسين معها ، وأصبحت سوزان "الحاسة السادسة"

له ، وأخذت تكافح معه ومن أجله كل حجب الظلام » .

* * *

وقد قص علينا الدكتور طه فيما بعد قصة هذا الزواج وملابساته ، وعوامل حبه لسوزان ، وما كان من وراء هذا الحب ، بهذه الصورة الأدبية التى تعد من أجمل قطع أدب الاعترافات لهذه الفترة من حياة الكاتب .

قال الأديب العظيم :

« كان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر أيار (مايو) ١٩١٥ ، فى مدينة مونبلييه ، فى وقت يقع بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ويقع كذلك بين عاصفتين عنيفتين من هذه العواصف التى تثور فى بعض المدن الفرنسية حين يتقدم الربيع وتبدو طلائع الصيف ، فتجمع فى السماء سحباً ثقالا كثافاً ، ثم تبعث فى الجو ماشاء الله من برق خاطف ورعد قاصف ، ثم تفتح أفواه القرب ، فتصبّ الماء على الأرض صباً ، ثم تصفو السماء ، وينجلى الجو ، وتستقر الأشياء . ويتحدث الناس عن شدة العاصفة وغزارة المطر ، ويستعدّون لعاصفة أخرى شديدة ومطر آخر غزير .

فى هذا الوقت ، وبين هاتين العاصفتين . طرق باب غرفتى وكنت أنتظر أن يطرق ؛ وكنت أخشى أن تحول العاصفة بينى وبين ما كنت أنتظر . ثم فتح الباب ، ودخلت منه فتاة تصحبها أمها ، فسلمت فى استحياء ، وسلمتُ فى استحياء ، وأخذنا فيما كنا قد التقينا له من حديث .

ولم يكن حديثنا طويلا ولا متبسطاً ولا منوعاً ولا طلقاً ، وإنما كان مقيداً أشد التقييد . كنت أول أجنبى تراه هذه الفتاة ؛ وكانت أول فتاة تزورنى ، فلم يكن سبيل إلى أن يسهل بيننا الحديث فضلا عن أن يختلف ويتنوّع ، ولكنه على كل حال كان حديثاً له ما بعده ، ملأ قلبى غبطة وبهجة وحبوراً وأملا ، نظمنا به مواعيد نلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم ، فنقرأ ماشاء الله أن نقرأ من أدب وفلسفة وتاريخ . وإنى لأكذب

القارئ إن زعمت له أنى نمت فى تلك الليلة نومًا هادئًا مريحًا . وإنى لأصدق القارئ إن أنبأته بأنى قد اتخذت هذا اليوم عيداً أحييه فى كل عام مهما تكن الظروف ، ومهما تكن الخطوب . واتصل لقاؤنا شهرين كاملين فى المساء من كل يوم ، نقرأ الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر ، ونتحدث أحيانًا . ولست أدرى أى الأمرين كان أحب إلىّ وأحسن موقعًا فى نفسى : القراءة أم الحديث ؟

ولم ينقض هذان الشهران حتى كان بين هذه الفتاة وبينى ودّ عقلى خالص ، قوامه حب هذا الأدب الذى كنا نقرؤه والذى كانت تفسّره لى وتدلنى على مواضع الحسن فيه .

ثم مضى بها الصيف إلى حيث يصطاف الفرنسيون من أعالى الجبل وسواحل البحر ، وبقيت أنا فى هذه المدينة أقرأ الأدب الفرنسى مع غير هذه الفتاة ، ولكن لم أكن أسمع صوت قارئتى ، وإنما كنت أسمع صوت صديقتى ؛ وكانت الكتب بيننا متصلة ؛ فكثيراً ما كنت أستبقى بعض ما يعرض لى من المشكلات فيما أقرأ لأسألها عنه ، وما كنت أجد الرضا إلا فيما كانت تجيبنى به .

ثم يريد الله أن أعود إلى مصر يائسًا ، وأن تذهب هى إلى باريس ، ولكن الكتب تتصل بيننا على ذلك . ويظهر أثر ما كنت أجد من الحزن واليأس فيما كنت أكتب من الفصول أثناء تلك الأشهر الثلاثة التى قضيتها فى القاهرة غريبًا بأصح معانى الكلمة وأدقها بين أهلى وأصدقائى من المصريين .

ثم تتاح لى العودة إلى فرنسا ، فإذا أنا أعدل عن مونبلييه إلى باريس ، لأن السوربون فى باريس ، ولأن سوزان فى باريس أيضًا .

والله وحده يعلم مقدار ما ملأ قلبى من الغبطة والرضا حين بلغت مدينة مونبلى ، فوجدت منها كتابين قرأهما علىّ صاحبى الدكتور أحمد ضيف مرة ومرة ومرة ، حتى إذا سئم القراءة ، وكره أن ننفق فيها هذه الساعات التى

قدر لنا أن نتفقها فى نابولى ، ردّ إلى كتابى وأكرهنى على الخروج .

ثم أبلغ باريس . وألقى صديقى . وشهد الله ما افترقنا بعد هذا اللقاء إلا كارهين . كنا نلتقى إذا أصبحنا ، ونلتقى إذا أمسينا ، ونقضى معاً شطراً من الليل فى صحبة أمها وأختها لأنى اخترت المقام فى أسرتها ، ولم يكن يفرق بيننا إلا الدروس التى كنا نختلف إليها . وما أكثر ما كنا نلتقى بين درسين فى هذين العامين من سنة ١٩١٦ إلى أواخر سنة ١٩١٧ ! كانت صديقتى أستاذاً لى ، عليها تعلمت الفرنسية ، وفقهت ما أستطيع أن أنقهه من أدبها . وعليها تعلمت اللاتينية ، واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس . ومعها درست اليونانية ، واستطعنا أن نقرأ معاً بعض آثار أفلاطون ، على أنى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس بينى وبين صديقتى إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق . ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى . وما أظن أنك تطمع منى فى أن أصور لك ما كان يثير هذا الحب فى قلبى من عاطفة ، وما كان يذود عنى من نوم . وما كان ينغّص علىّ من راحة ، وما كان يضيع علىّ من درس .

لقد كنت أسمع صوتها وهى تقرأ لى أو تتحدث إلى ، فأشغل بهذا الصوت عما كان يحمل إلى من الألفاظ ، وعما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان . ولو أن سائلا سألنى فى وقت من هذه الأوقات عما سمعت أو عما وعيت لما استطعت أن أجيب إلا بأنى سمعت أجمل الموسيقى وأعذبها ، ولو أن سائلا سألنى عما وعيته من هذه الموسيقى الجميلة العذبة لما استطعت أن أجيب إلا بأنى أحب مصدرها . ولكن أحداً لم يكن يسألنى ، فلم أكن فى حاجة إلى أن أجيب ، إنما كنت أسأل نفسى ، وأجيب نفسى ، وأغتبط بما كنت أجد من سعادة ، ولا أحفل بما كنت أضيع من وقت ودروس ، ثم يأبى هذا الحب إلا أن يعلن نفسه ، ولكن لا يلقى صدى إلا أن يكون هذا الصدى

رفقاً وعطفاً وإشفاقاً ، والحب لا يسأم ولا يملّ ، ولا يعرف الفتور ولا يخاف الإخفاق ، ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه . وقد ألحّ حبي ، وأسرف فى الإلحاح . واضطرت صديقتى إلى أن تفترق ، فتركتنى فى باريس ومضت هى إلى الجنوب مع الصيف .

فيا لها أسابيع تلك التى قضيتها فى باريس لم أعرف فيها راحة ولا نعمة ولا أمنا ولا هدوءاً ، والكتب مع ذلك متصلة بيننا ! ثم ينتهى إلىّ كتاب منها تدعونى فيه إلى أن ألحق بها حيث تقيم . إنه الرضا إذن ، وإنه الفوز ، وإنه فصل من فصول الحياة يختم ، وفصل آخر يبتدئ . أحبب إلىّ بهذه القرية الريفية من قرى الجنوب فى سفح البرانس ! هنالك أعلنت خطبتنا فى مساء يوم من الأيام ، فلما أصبحنا بدأنا ندرس معاً مقدمة ابن خلدون ، ونستعد معاً لتهيئة الرسالة التى سأتقدم بها لامتحان الدكتوراه .

وقضينا عاماً كاملا خطيبين صديقين ، ندرس الأدب والفلسفة والتاريخ واللاتينية ، ولا نستطيع أن نفكر فى الزواج ، فلم يكن بد من إذن الجامعة ، ولم يكن سبيل إلى طلب هذا الإذن حيث يثبت للجامعة أنى لا أنفق أياماً فى فرنسا عابثاً ولا لاعباً . والله يشهد ما عبثت وما لعبت . والذين عرفونى فى فرنسا من المصريين يشهدون ما عبثت وما لعبت . والله يشهد ما عرفت فى حياتى كلها وقتاً ملأه الجد الذى لا جد بعده ، والطهر الذى لا طهر بعده ، والنقاء الذى لا نقاء بعده كهذين العامين اللذين قضيتهما فى باريس أثناء العمل ، وفى الجنوب أثناء الصيف .

وأى جد يشبه هذا الجد الذى يحمل الخطيبين على أن يجتمعا إذا أصبحنا ليقرأ فلسفة أغوست كونت . أو ينغمسا فى تاريخ اليونان والرومان . أو يغرقا فى آثار تاسيت وتتليف وهرودوت ؟ ومع ذلك فعلى

هذا النحو قضيت مع صديقتى عامين . ولقد كنا نخرج للنزهة فى بعض ضواحى باريس ، ولقد كنا نمعن فى المشى فى بعض الغابات حتى إذا خلا لنا المكان ، وتخيرنا مجلساً جميلا حلواً يصفو فيه الحديث بين المحبين ، جلسنا فتحدثنا فى بعض آمالنا . ثم فتحنا كتاباً من هذه الكتب التى هى أبعد الأشياء عن الحب وجوّه ، فانغمسنا فيه سعيدين. وفى سنة ١٩١٧ استطعنا أن نظفر بالليسانس — واستطعت أن أستأذن الجامعة فى الزواج . واستطاعت الجامعة أن تأذن لى ، فقد كنت أول عضو من أعضاء بعثتها ظفر بإجازة الليسانس فى الآداب . . وفى اليوم التاسع من آب (أغسطس) عام ١٩١٧ . حين أوشك النهار أن ينتصف ، أتم الله نعمته علىّ وجعل لى من سوزان . كما قلت فى تصدير بعض كتبى : « نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس . . »

ورجع إلى مصر لا مع سوزان وحدها . كما يرجع أكثر الطلاب الشرقيين مزهوين بزواج تعيس ، بل رجع مع سوزان يحمل أرفع الشهادات — يحمل الليسانس ، وقد نالها سنة ١٩١٧ ؛ والدكتوراه ، وقد نالها سنة ١٩١٨ ، ودبلوم الدراسة العليا فى التاريخ القديم ودراسة اللاتينية واليونانية التى نالها ١٩١٩ ، عدا اللغة الفرنسية التى حذقها كأبنائها .

٧

أحب الدكتور طه ، وهو فى باريس ، أن يقدم إلى مصر ثمرة جديدة من ثمرات جهده وذكائه . فمن يأتى بعد أبى العلاء ؟ لقد استعرض الشخصيات الفذة فى تاريخ العرب الفكرى ، فرأى أمامه ثبتاً طويلا بالأسماء ، كان ابن خلدون ألمعهم وأقربهم إلى نفسه.. فعكف ، فى باريس ، يدرس حياته وآراءه ونزعاته ، وما زال حتى كتب رسالته الجامعية « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، كتبها بالفرنسية

سنة ١٩١٧ ، ونال الدكتوراه من السربون بتفوق باهر ، وقد منحه « الكوليج دى فرانس » جائزة « سنتور » المعروفة .

وليس بالأمر السهل أن يغوص طالب أزهرى درس الفرنسية وهو شاب ، وفى مدرسة خاصة ، إلى أعماق حياة ابن خلدون يستجلى نظرياته الفلسفية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويكتب حولها رسالة جامعية بالفرنسية تنال أعظم تقدير من أساتذة السربون — ليس هذا بالسهل على طالب أزهرى . ولكن لا شىء بالنسبة لألمعية طه حسين الذى كان فى حياته الدراسية رمزاً للدأب والصبر والذكاء .

وقد كان لظهور هذه الرسالة أثره فى مصر ، واعتبرتها الأوساط الأدبية أول بحث علمى منظم كتب عن ابن خلدون ، كما كانت رسالته عن « ذكرى أبى العلاء » أول بحث علمى منظم كتب عن ذلك الشاعر .

وإنه لمن دواعى الاعتزاز بالعقلية الشرقية أن يقدم شاب فى أواخر العقد الثالث من عمره ، وفى تلك الفترة ، على معالجة قضايا فى فلسفة الاجتماع كتبها مؤرخ عربى قبل ستة قرون ، فيبرزها بلغة غير لغته فى صورة تحوز رضا أساتذته ، ويظفر بأكبر شهادة من جامعة السربون .

وطه حسين ، إلى اعتداده بنفسه ، يبدو جم التواضع ، فحين أملى هذه الرسالة أحب أن يعتذر عن أسلوبه الفرنسى فكتب فى مقدمة الرسالة يقول :

« وليسمح لى بأن أعتذر عن أسلوبى الفرنسى إذا ما بدا ، بلا ريب ، فى كثير من المواضع ركيكاً أو خاطئاً . . وكذلك عن الأغلاط المطبعية التى قد تقع فى هذه الرسالة ، فما كنت إلا غريباً وأعمى ! . . »

* * *

لقد أحب طه حسين ابن خلدون كما أحب أبا العلاء . .

وإنه ليكشف لنا عن عوامل هذا الحب بالكلمة التمهيدية التى قدم بها رسالته بقوله :

« يحتفظ تاريخ الآداب العربية ، منذ عصر الجاهلية إلى عصرنا هذا ، بذكر رجلين يمتاز كل منهما بابتكار خارق لم يتصف به أحد من المسلمين أساتذة كانوا أم تلامذة . . أولهما أبو العلاء المعرى الذى استحدث فى أدبنا صنفين لم ينسج مثلهما منذ عهده . فقد استعرض فى مجموعة شعرية اسمها « اللزوميات » فلسفة باهرة تفيض زهداً وتشاؤماً حتى قيل إنه لوكريس العرب . وتخيل لنا فى شبه قصة اسمها « رسالة الغفران » التى تذكرنا قراءتها بالكوميديا الإلهية — رحلة إلى العالم الآخر وصف لنا فيها الجنة والنعيم وصفاً قويا رائعاً .

أما عمل الثانى : فطبيعته تخالف عمل الأول تمام الخلاف ، وقد لا يجب أن نصفها بالعبقرية . كان ابن خلدون عقلية عملية ، لم تمكنه حياته الدبلوماسية . التى مزجت أيما امتزاج بالدسائس والمصاعب السياسية . من أن يطيل التأمل فى نفسه أو فى الحياة الأخرى ، على أنه استخرج من تلك الحياة ذاتها . ومن دراسته لتاريخ الإسلام ومختلف النظريات الفلسفية التى عرفها المسلمون دراسة عميقة مستفيضة — فلسفة جديدة موضوعها : المجتمع وتاريخه » .

وقد عرض طه حسين آراء ابن خلدون وفلسفته ونظراته فى الحياة والمجتمع — آراءه فى الظواهر الاجتماعية للحياة البدوية والخواص العامة لحياة الحضر . . وهو فى عرضه لآراء ابن خلدون ومذهبه السياسى والاجتماعى كان يناقش المؤرخ بتؤدة حيناً ، وبصرامة حيناً آخر . . وما يزال حتى يستخلص الفكرة التى تبدو له صحيحة على ضوء مختلف المذاهب الفلسفية والقيم الأخلاقية وشتى النزعات الاجتماعية لعصره : فمن أمثلة ذلك : رأى ابن خلدون فى العرب — ذلك الرأى الذى يقول فيه إن العرب ليسوا أهلا لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى

قوى ، وإنهم يجهلون سياسة الملك . . إلى غير ذلك مما جاء استطراداً فى مقدمته . وقد ناقش طه حسين هذا الرأى فى صلب رسالته الجامعية مناقشة علمية هادئة دحضت آراء المؤرخ الكبير . . . ومن كلماته فى هذا الصدد ، بعد أن عرض لفكرة ابن خلدون ، قوله :

« ليس لنا أن ندخل فى تفاصيل الإصلاحات القيمة التى استحدثتها حكومات الخلفاء الراشدين والأمويين وبنى العباس ، على أنه من المحقق أن العرب من بين جميع الأمم التى قبضت على ناصية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها ، وأمهر من عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلى والمادى . وليس لنا إلا أن نقارن النتائج التى ترتبت على حكم الترك والعرب فى بلاد المشرق حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا وعمروا ، وأن الترك ما فعلوا سوى أن أبادوا وخربوا » .

وانتهى إلى أبعد من هذا ، فرأى فى المذهب الذى اعتمده ابن خلدون لدراسة التاريخ نهاية التزمت والضيق فقال :

« ألا يكفى ابن خلدون أن تلك القبائل البدوية التى خرجت من القفار ، والتى كانت حتى خروجها بعيدة عن كل مجتمع متمدن ، قد وصلت إلى أن تفرض دينها ولغتها على قسم عظيم جدا من العالم الرومانى الفارسى القديم ، فيحكم عليها بأعدل مما فعل ، وربما بشىء من شكر الصنيعة ؟ وإذا كان ابن خلدون لم يفهم بأحسن مما فهم أن الحضارة التى تمتع بها هى من صنع العرب ، فلا ريب أن ذلك لأن المذهب الذى يدرس به التاريخ ضيق جدا ! »

ولا يتسع المجال لأن نسرد الكثير من آراء طه حسين فى نقد ابن خلدون ، ولكن حسبنا القول إن إعجاب طه حسين بعبقرية المؤرخ الفذ لم يمنعه ، كعالم يدرس نظرية مؤرخ عالم ، أن يناقشها وينقدها .. وقد جئت بهذا الاستطراد الطويل لأدحض هذه الفكرة التى يلوكها

« الشعوبيون » عن العرب ، ويستندون فيها إلى رأى ابن خلدون الذى فنده طه حسين . ولأنفى عن طه حسين ، من جهة ثانية ، هذه الفكرة الخاطئة التى عاشت فى عقول البعض ، فترة ما ، عن فرعونية طه حسين وكرهه العرب ! !

وبعد فقد كدت أخرج ، بهذا الاستطراد ، عما أنا بصدده ؛ فلأقف عند هذا الحد ، إذ لا أريد أن أتحدث عن كتابه الثانى : « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » أكثر مما تحدثت . فحسبى القول إن هذه الرسالة كتبها طه حسين فى فجر شبابه ، وكان لها — بعد أن ترجمها الأستاذ عنان إلى العربية — الأثر نفسه الذى كان للرسالة الأولى ، سواء فى المحيط الجامعى أم فى الأوساط الأدبية .

٨

إننا مع طه حسين ، وهو فى الثلاثين من عمره ، وقد بدأ حياته الأدبية بداية حسنة ، أصدر كتابين كان لهما أثرهما البليغ فى نفوس القراء . . وظل ، بعد أن فاز بدكتوراه الأدب من السربون ، يقرأ الفرنسية واللاتينية ويتعمق فى دراسة أدبهما إلى أن ملك ناصيتهما ، وعاد إلى وطنه ممتلئاً بالآمال ، وكان بين أفراد البعثة الوحيد الذى لم يخيّب ظن أساتذته .

* * *

عاد من فرنسا ممتلئة نفسه بالمعرفة ، وقد حرص أن يفرغ كل ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه إلى أبناء وطنه . ولقد اختير تلميذ الجامعة القديمة للتدريس فيها . . ومن أليق منه لإشغال هذا المنصب ؟! وبدأ يدرس التاريخ اليونانى القديم . وكانت الجامعة فى بدء تكوينها ، وكان أكثر تلامذتها ممن صهروا فى بوتقة هذه الدراسات المحدودة ذات المناهج العتيقة . وأراد الدكتور أن تحذو الجامعة فى نهجها حذو جامعات

الغرب ، فلم يكد يبدأ هذا النحو الجديد ، ويفرض على تلامذته دراسة التاريخ اليونانى حتى رضى قوم وسخط آخرون . . « وكان الذين رضوا أقل الناس عدداً . والساخطون أكثرهم جمعاً وأضخمهم جمهوراً . . قالوا : ما لنا ولتاريخ اليونان ، ندرسه ونحفل به . ننفق فيه ما نملك من وقت ، ونضيع فى سبيله ما عندنا من قوة وجهد ، ونحن إلى إنفاق ذلك الوقت . وهذه القوة والجهد فى درس تاريخ مصر خاصة ، والأمم الإسلامية عامة ، أشد ما نكون حاجة ! »

وما شك الدكتور طه فى ذلك . . ولكن قال لهم هل يمنع هذا أن ندرس تاريخ اليونان القديمة ؟ بل ذهب إلى أبعد من هذا حين قال : « إن فهم التاريخ المصرى خاصة ، والتاريخ الإسلامى عامة ، موقوف على فهم التاريخ اليونانى ، فما ينبغى لأحد أن ينسى ما كان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر فى حضارة العالم كله ، ومنه البلاد الإسلامية ، ولم يكن هذا التأثير مقصوراً على الحياة العقلية والأدبية بل تناول الحياة السياسية ، فإن اليونان قد ملكوا الشرق أكثر من قرنين ، فوضعوا فيه نظماً لم يكن له بها عهد ، وجاء الرومان فلم يمحوا هذه النظم ، ثم جاء العرب فأخذوا ما وجدوا ، ولم يزيدوا على أن عربوه . ومن الميسور على كل مؤرخ متقن لعمله ، إذا درس تاريخ الأمم الإسلامية أن يتميز النظم القديمة وما بينها وبين النظم الإسلامية من صلة . وإذا كان درس التاريخ فى رأى المؤرخين المحدثين عملا تحليليا قبل كل شىء ، أى أنه يلزم المؤرخ أن يرد كل شىء إلى أصوله التى ألفته ، وعملت على تكوينه ، فلا شك أن مؤرخ الأمم الإسلامية ولا سيما مصر ، يجب عليه أن يعرف تاريخ الأمة اليونانية ويتقنه ، لكى يستطيع أن يميز ما كان لها من أثر فى حياتها العقلية والاجتماعية والسياسية » .

بهذا الأسلوب الرائع حبب الدكتور طه حسين إلى تلامذته

دراسة التاريخ اليونانى ، وما لبث أن قدم إلى قراء العربية نماذج مختارة من الشعر التمثيلى ، ثم من الأدب التمثيلى عند اليونان — نقل إليهم ألواناً مختلفة من التراجيديا ، وألواناً من الكوميديا لإيسكولوس وسوفوكليس — عدا محاضراته التاريخية الممتعة التى نشرت فى صحيفة « الجامعة المصرية » القديمة ، وعدا كتابه « نظام الأثينيين » الذى ترجمه عن أرسطاطاليس ، ذلك الكتاب الثمين الذى كشف فى مصر سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ، ثم نقل إلى المتحف البريطانى فى لندن ، ثم طبع فى لندن وباريس وغيرهما . كما ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية من اللغات الحديثة ، وظلت لغة الضاد محرومة منه إلى أن جاء طه حسين فنقله إلى العربية . وبذلك أسدى أكبر خدمة لرجال الفكر والقضاء .

وهكذا فتح الدكتور طه باب الدراسات اليونانية على مصراعيه ، فولجه الكثيرون . وقدم لنا تلاميذه نماذج حية من هذا الأدب الرفيع الذى كان يعتبره غوته شاعر الألمان الأكبر ، ركيزة الدراسات الأدبية كلها . ومن قوله عن هذا الأدب : ادرسوا موليير ، وادرسوا شكسبير . ولكن قبل كل شىء ادرسوا الإغريق القدماء . . دائماً الإغريق .. وهذا ما أراده الدكتور طه حسين حين وجه تلامذته إلى دراسة تاريخ هذا الشعب ، بل ذهب إلى أبعد من هذا — إلى ضرورة تدريس اللغة اللاتينية واليونانية فى المدارس الثانوية .

اثنان من أدباء العرب المعاصرين عرفا قيمة هذا الأدب : سليمان البستانى بترجمة إلياذة هوميروس . وطه حسين فى توجيهاته وتعريبه طائفة من نماذج هذا الأدب .

٩

لم يشأ الدكتور طه أن يحصر نشاطه فى البيئة الجامعية ، بل توزع هذا النشاط على الصحف والمجلات وعلى دور النشر وندوات الفكر ، وتولى فى عام ١٩٢٢ تحرير الصفحة الأدبية لجريدة « السياسة » ، وكانت لعهدها من أقوى وأرقى صحف مصر ، ضمت إلى هيئة تحريرها صفوة من أكابر رجالات الفكر وأساطين الساسة وزعماء المدرسة الحديثة ، وأخذ الدكتور طه ينشر كل يوم أربعاء بحثاً ممتعاً من بحوثه الرائعة فى الأدب العربى — أدب الأمويين والعباسيين ، وكل يوم أحد قصة ملخصة عن أدب الغرب . وقد أثارت بحوثه ، ولا سيما بحوث الأدب العربى ، ثائرة رجال الأدب ، لا بروعة المباحث وجدتها فحسب ، بل بالآراء الجريئة التى كان يرسلها ، والتى كانت تميط اللثام عن حقيقة الحياة السياسية والاجتماعية للعصر الذى درسه ، ثم بإثارته معركة القديم والحديث فى الأدب . هذه المعركة التى كانت بداية الانتفاض والبعث الأدبى . نعم ، لقد أثار الدكتور طه ثائرة القدماء حين أعلن أن العصر الذى انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية هو عصر شك وعبث ومجون . . أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته .

كيف يجرؤ طه حسين على هذا القول ، وقد اعتادوا أن يضفوا صفة القداسة على كل ما هو قديم ؟ !

إنه لم يعبأ بأقاويلهم وبهذا الإيمان الذى عاشوا فى صميمه معصوبى العيون . لقد انتهى إلى أن العصر الذى أعقب انحلال الدولة الأموية عصر شك وعبث ومجون ، وعلى ضوء هذه النظرية أو هذه الفكرة أخذ يبحث حياة الشعراء الماجنين . . وما كادت بحوثه تظهر ويتهافت عليها القراء حتى أخذ القدماء يردون عليه ردوداً طويلة ،

خلاصتها أنه لا يصح أن يتخذ هؤلاء الشعراء صورة لذلك العصر . . وهنا كان جواب طه حسين أن نظرته ، فى فهم التاريخ ، تختلف عنهم كل الاختلاف . فهم يريدون أن يسبغوا على التاريخ الإسلامى صفة الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى ، مما يحول بين العقل والنظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح . فهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ؛ وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد . . فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، وأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شىء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

وانتهى إلى أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما . وأن الإثم هو تعمد الجهل . وأن تتكلف إخفاء ناحية من النواحى الأدبية بما كانت أحق من غيرها بأن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لأى إنسان يقدر العلم وكرامته أن يغير التاريخ ، أو يظهر عصراً من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه !

* * *

طرح هذه النظرية الجديدة التى اعتمدها فى كتابة تاريخنا الأدبى ، لم يلتفت إلى نقد القدامى من شيوخ الأدب ، ومضى يؤرخ بطريقته التحليلية ذلك العصر بمختلف ظواهره الأدبية والاجتماعية والسياسية . . وقد جمعت هذه الفصول فيما بعد فى كتاب أسماه « حديث الأربعاء » ، وهو فى ثلاثة أجزاء ضم بحوثاً طلية مبتكرة عن شعراء

العصر الجاهلى ، وشعراء العصرين الأموى والعباسى ، ولا سيما الشعراء الغزلين ، مع بحوث عن بعض الأدباء والشعراء المعاصرين . وقد صب الدكتور طه فى هذه الفصول الكثير من آرائه الجريئة فى طبيعة الأدب العربى ، ففتح للأدباء الباحثين منافذ جديدة كانت موصدة . . ولا أسرف إذا قلت إن منهجه هو المنهج الذى اتبعه الأدباء فى دراساتهم الأدبية وما زالوا لا فى مصر وحدها بل فى جميع البلاد العربية .

* * *

وقد كان للقراء من محصول مقالاته التى كان ينشرها على صفحات « السياسة » يوم الأحد كتاب « قصص تمثيلية » . . وقد عمد فى عرض هذه القصص إلى التلخيص . . وطريقته فى التلخيص أن يغوص إلى أعماق الفكرة التى أرادها الكاتب من قصته . فبعد أن يهضمها هضماً جيداً يناقشها مناقشة أدبية مثيرة . ثم يعرض خطوطها البارزة ، ونقاطها الدقيقة ، وصورها المتباينة ، ورأى النقاد فيها . حتى إذا تملى القارئ الفكرة ساق إليه مشاهد الرواية وفصولها ، وما يزال حتى يكشف روح الكاتب وفكرته وسخريته وفلسفته . وما شئت من عوالم فياضة ، بحيث لا ينتهى القارئ من تلاوتها إلا وقد اكتسب متعة وفائدة معاً . وقد قدم للقارئ العربى أكثر من كتاب ضم هذه التلخيصات . وقد نعود إليها فى صدر كلامنا عن ثبت مؤلفاته .

١٠

نحن فى عام ١٩٢٥ وقد أصبحت لطه حسين مكانته الكبرى وأصبحت دور النشر ومختلف المعاهد تتهافت على مقالاته وكتبه ومحاضراته . وهو كالفيض يمدّ الجميع بسيل من معين عبقريته ، أو كالزر الكهربائى — وهذا التعبير للدكتور هيكل ، وقد سمعته منه فى إحدى الجلسات الأدبية — لا تكاد تضغط عليه حتى يشع إشعاعه

الباهر . نعم ، هو كالفيض ، وما أشبهه بصنوه أبى العلاء المعرى الذى كان يملى الآيات البينات بدون أن يرجع إلى النصوص والكتب . وهذا الذى أثار دهشة ابن القارح حين أعلن فرط إعجابه ودهشته بما سمعه من رسائله وبدائعه التى أملاها بلا توقف ، وهى ـ فيما يرى ـ تستكثر على من يكتب ، بله من يملى ، وهى لو صدرت ـ كما يقول ابن القارح ـ عن رجل غارق فى خزائن كتبه ومراجعه يقلب فى هذا ويرجع إلى هذا لكانت آية معجزة ، لأن القلم لسان اليد ، وأحد البلاغتين كما يقولون ، فكيف بمن يبتكر روائعها ويمليها ويحل مستغلقها بديهاً ، ويبدع آياتها ارتجالا ، ويمليها من فوره مقالا !

قال : « ووالله لقد رأيت علماء منهم ابن خالويه إذا قرئت عليهم الكتب ، ولا سيما الأسفار الضخمة منها ، أقبلوا على مراجعهم يلوذون بها مستعصمين ، ويرجعون إليها مقابلين . احترازاً من الوقوع فى خطأ مبعثه النسيان أو تصحيف ناسخ أو غلط واهم ، ولا كذلك أبو العلاء ، فهو يستلهم أبداً جنانه المتثبت اليقظ ، ويستعين دائماً بحافظته الواعية ، وذاكرته الجبارة التى لا تعرف الوهن ، ولا يسمو إليها النسيان » .

وطه حسين كصنوه أبى العلاء فى هذا المضمار . . إنه كالفيض . . وقد كان إلى كتابته المستمرة فى الصحف والمجلات ، وإلى إصداره الكتب يتابع دروسه فى الجامعة . وقد كثر عدد تلامذته وقويت أركان مدرسته .

وتمرّ بمصر أزمات مختلفة ـ أزمات سياسية حادّة . وللدكتور طه رأيه الصريح فى هذه الأزمات . . ولكنه كرجل جامعى كان يعتصم بصمته ، ويعتمد أن يظل فى معزل عن هذه التيارات . . لا يعلن رأيه إلا فى شئون الفكر وقضايا الأدب .

وتقتضيه الدراسة الجامعية أن يعرض إلى الشعر الجاهلى . . وطريقته فى البحث تختلف ، كما أشرنا ، كل الاختلاف عن طرائق من سبقه

من أساتذة الأدب . ولا سيما أنه عاش هذه الفترة اليقظة من حياته الفكرية فى محيط جامعى . . ومن تقاليد الجامعات أن تأخذ البحوث الأدبية والدراسات العلمية طابع البحث الحر . . وسار فى نهجه يدرس النصوص ويبحثها دراسة ناقد بصير . . ونهجه فى البحث الأدبى أن يكون العقل العربى متحرراً من كل الرواسب والعفونات . . وأن يصل ببحوثه إلى نتائج يقرها العقل ويرضى عنها الفكر المتحرر . . وأثمرت هذه الدروس كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

وشاع أمر هذا الكتاب — شاع ما فيه من آراء اعتبرت منافية لروح الدين . . واستغل خصوم طه — وما أكثر خصوم الموهوبين ! — استغلوا ما جاء فى الكتاب من آراء عدوها زندقة وهرطقة ! . . استغلته الحزبية ، واستغله الرجعيون . . وثارت مصر على طه حسين . وانقسم الناس فريقين : فريقاً معه . وهم صفوة المفكرين ؛ وفريقاً عليه وهم الكثرة المطلقة من مختلف الطبقات . . وقد تزعم هذه الحركة حماة الدين أو علماء الجامع الأزهر ، فاجتمعوا وقرروا — وأكثرهم لم يقرأ الكتاب — قرروا أن فى كتاب الدكتور طه كفراً صريحاً ، وطالبوا الحكومة بمصادرته ومنع مؤلفه عن التدريس كيلا يفتن نابتة الأمة بما يبثه فيها من أضاليل !

وماذا فى الكتاب ؟

إننا لا نريد أن نعيد سرد تلك القصة الطويلة ، ذات الذيول المعقدة التى أثارها خصوم طه حسين — خصومه الحزبيون الذين اختبأوا وراء الرجعيين من رجال الدين ! . . لا . . لا نريد أن نسرد تلك القصة الطويلة التى تمس حرية الفكر فى الصميم . . ولكن الأمانة التاريخية تقتضينا — ونحن نشير إلى ملامح من حياته الفكرية — أن نمر بجو تلك العاصفة ، لأن فى عدم التعرض لهذه الأزمة الخادة ما يترك فجوة كبيرة فى حياته الأدبية .

حين بدأ الدكتور طه دراسته الأدبية فى الجامعة المصرية ، أراد أن يؤرخ الأدب العربي تأريخاً جديداً . أى أراد أن يبدأ من الأساس ، وأن ينسف جذور تلك الطرق المعوجة التى اعتمدها من سبقه من مدرسى الأدب . . ويبدأ بالشعر الجاهلى ؛ وما كاد يتوغل فى دراسة هذا الشعر حتى شك فى قيمته . وكان هذا الشك نتيجة بحث طويل ، وتفكير عميق ، وقراءة مستمرة ، وتدبر فى ألفاظه ومعانيه . وما زال يقرأ ويحفظ ويقايس ، ويخرج الأصيل من الدخيل ، حتى انتهى به البحث إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ؛ فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح هو عنده قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى . وأن أكثر ما نقرؤه من شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء فى شىء . وإنما هو انتحال الرواة ، أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاة ، أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

عرض هذه النظرية ، ثم أخذ يسوق الحجة تلو الحجة من النواحى التاريخية واللغوية والفنية ، ليؤكد نظريته التى تنتهى به إلى أن هذا الشعر لا يمكن أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن .

وقد درس موضوعه بهذا النهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت ، أى أراد أن يشك ليصل إلى اليقين ؛ وقادته هذه الشكوك إلى أن يحطم كل الأسانيد التى لا يقبلها منطق العلم الحديث .

وما كان البحث لذاته ليثير هذه الضجة الكبرى لو لم يستغل خصومه جملة جاءت استطراداً فى صلب البحث الذى عقده عن الشعر العربى واللغة ، وعن القحطانية والعدنانية . والعرب البائدة والمستعربة ،

والخلاف الجوهرى بين اللغة التى كان يصطنعها الناس فى جنوب البلاد العربية واللغة التى كانوا يصطنعونها فى شمالى هذه البلاد . وقد ساق أكثر من حجة على صدق نظريته التى انتهت به إلى أن هذا الشعر الذى يسمونه « الجاهلى » لا يمثل اللغة الجاهلية ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأنه وجد بين الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلى ، قوماً ينتسبون إلى عرب اليمن — إلى هذه القحطانية العاربة التى كانت تتكلم لغة غير القرآن والتى أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية.. وإلى هنا فلاشىء يؤخذ عليه، إلا أنه فى استطراده قال :

« إنه لا يكفى ، لكى نثبت من الوجهة العلمية وجود إبراهيم وابنه فى التاريخ ، أن يكون اسماهما قد ذكرا فى التوراة والقرآن » . .

هذه الجملة وغيرها مما اقتضاه سياق البحث قد أثارت عليه ثائرة الأزهريين . . وقد رد على خصومه بأن قوله هذا لا يعنى أن إبراهيم لم يوجد قط كما نسب إليه القول كثيرون ممن لم يقرءوا كتابه . .

ولا أريد هنا أن آتى بالآراء التى جاءت فى صلب كتاب الدكتور طه ، ولا بردود خصومه ، فهمتى ، فى هذه الرسالة ، أن أسجل ظاهرة من حياته الفكرية ، وما مر بها من ملابسات . ويكفى أن أقول إن الكتاب أثار ضجة كبيرة حين نشره ، و إن المطابع قد أخرجت ، فى السنة التالية لطبع الكتاب ، عشرات الكتب والرسائل فى الرد عليه ودحض آرائه ، أظهرها كتاب « تحت راية القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعى . . و « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة ، و « نقد الشعر الجاهلى » للعلامة محمد فريد وجدى ، و « نقض الشعر الجاهلى » للأستاذ محمد الخضر حسين ، و « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى مع مقدمة طويلة للمرحوم الأمير شكيب أرسلان . . وما لا أذكره من الكتب والرسائل وأكثرها غير ذى بال . .

ولم تقف المعركة عند هذه الردود العلمية والأدبية ، بل دخلتها السياسة لتقف إلى جانب خصوم طه حسين ، وكان من جراء الحملة المنظمة عليه أن اضطرمت ثورة شيوخ الأزهر ، ومن ورائهم البيئات الرجعية ، وخاف كبار المفكرين من رجالات مصر وأحرارها أن تنال الثورة من الجامعة المصرية ، وهى حديثة العهد بالميلاد . . لا سيما أنه لم يمض على إلحاقها بالحكومة المصرية عام واحد . . وعبثاً حاول طه حسين أن يفهم خصومه أن شكه فى الشعر لا يعنى شكه فى قداسة الدين . وقد أنكر ما اتهموه به من شك فى الدين الإسلامى ، فكتب إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . وكان من المنتظر أن تقف الحملة عند هذا الحد . . وأن تخمد نيران تلك الثورة التى نفخ فى ضرامها خصوم طه حسين الذى حطم تماثيل أديهم الكاذب ، ولكن الرجعية - رجعية الفكر ، ورجعية السياسة — وجدت فى إثارة هذه المسألة معاكسة حزب كان الدكتور طه ينتمى إليه . . وقامت أزمة وزارية ، ونشطت النيابة العامة بإيعاز من الحكومة وتحت ضغط الأزهر تحدد « جريمة » الدكتور طه حسين فى دين البلاد الرسمى . .

ولم تجد الجامعة المصرية ولم يجد الدكتور طه بدًّا من جمع نسخ الكتاب منعاً لتداوله خشية أن تودى ثورة الرجعية والرأى العام بالجامعة . .

* * *

سكت طه حسين على مضض ، فلم يردّ على خصومه . . وكان فى سكوته مضطرًّا خشية أن يكون نزوله إلى الميدان والرد على معارضيه سبباً يمهد للرجعية أن تعبث بحرية الفكر والتفكير . .

وكان ثروت باشا ، عضو مجلس إدارة الجامعة ، وأحد أقطاب السياسة ، وثانى رجلين عرفتهما مصر فى تاريخها السياسى الحديث : أريد بهما سعد وثروت — كان ثروت باشا قد طلب إلى الدكتور طه

أن يثبت للعاصفة حتى تمر بسلام ، وألا يردّ على خصومه احتفاظاً بكرامة أستاذيته للجامعة ، وكرامة العلم الذى يمثله ، وحتى لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان وأمام الرأى العام . ونزولا عند هذه الرغبة سكت على مضض . وظلت الصحف الحزبية والرجعية مدة طويلة تهاجمه هجوماً عنيفاً ، وهو فى ثورة من الصمت الملتهب الذى كان يحرق نفسه . وقد أطالت بعض تلك الجرائد الكلام حتى أزعجت والد الدكتور طه ، فكان يرسل إليه خطابات حزينة ينبع منها ، كما يقول زكى مبارك ، الدمع فى الصخر الجلمود .

ومن الرسائل التى بعث بها الدكتور طه إلى والده هذه الرسالة الصغيرة بكلماتها والكبيرة بمغزاها ومدلولها :

« أبى

أنت أوصيتنى بألا أصدق كل ما أسمع ، وأنا أوصيك بألا تصدق كل ما تقرأ .

لك من زوجتى ومنى أطيب التحيات .

طه حسين »

وليس هذا فقط ، بل تلقى رسائل تهديد بقتله من بعض طغمة الرجعية فلم يعبأ بها . .

وأخيراً . . نزل عند رغبة أصدقائه ، وفى طليعتهم ثروت باشا ، وسافر إلى باريس ، إلى أن مرت العاصفة وخمدت نارها بعد أن ذهبت بكتاب « فى الشعر الجاهلى » ، ولكنها تركت لطه حسين شهرة لم يصل إليها كاتب معاصر من جميع كتاب العالم العربى .

على أن النقطة الحساسة التى عالجها طه حسين فى كتابه . وأفادت الأدب العربى إفادة كبرى ، ليست شكّه فى أكثرية الشعر الجاهلى ، ولا تعرضه لتلك النقطة الدينية الحساسة التى أقامت الدنيا عليه — دنيا الرجعية المتزمتة — بل هى التمهيد للحرية المطلقة أن تشيع فى البحوث

الأدبية ، فقد دعا أدباء العربية إلى التحرر من كل المواضعات التى تقيدهم ، وطلب إليهم ألا يتأثروا فى بحوثهم بأى مؤثر إلا الحرية ، لأنه يعتقد اعتقاداً صادقاً أنه لن توجد العلوم اللغوية الأدبية ، ولن تستقيم فنون الأدب إلا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ، ويباح لنا أن نخضعها للبحث كما نخضع المادة لتجارب العلماء .. وقد وضع نظريته هذه للجيل الصاعد . وسار فى طريقه يدرس الأدب العربى بهذا المنهج الذى هو منهج جميع الباحثين والمفكرين الأحرار .

وطويت ضجة كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، بعد أن حذف منه فصل ، وبعد أن زيدت عليه عدة فصول ، وصدر باسم « الأدب الجاهلى » ، وهو يدرس اليوم فى جميع مدارس البلاد العربية كأساس لفهم الأدب ، والأدب الجاهلى بصورة خاصة — هذا الأدب الذى رسم الدكتور طه خطوطه الواضحة بهذا الكتاب العظيم الذى أصبح أشهر وأدق كتاب أدبى بين كتب الأدب العربية المعاصرة .

وليعذرنى القارئ إذا رآنى تحدثت طويلا عن كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، فقد تحدثت عنه مطولا للملابسات التى رافقت صدوره ، وهى ملابسات انبثق عنها هذا الصراع الحاد بين مذهبين : بين القديم والحديث ، أو بين القدماء الذين ينكرون مذهب التطور فى الحياة ، وبين المجددين الذين يؤمنون بحرية البحث وحرية الفكر .

١١

رجع الدكتور طه حسين ، بعد هذه الضجة ، إلى الجامعة ستأنف عمله ، يدرس ويحاضر . . وكان لرجوعه إلى البيئة التى أنبتته ثره غير المستحب لدى خصومه ولدى البيئات الرجعية بصورة خاصة - كانوا ينالونه كل يوم بالمقال تلو المقال . . وكانت ردوده عليهم هذه دروس ثمينة فى تاريخ الأدب وتاريخ الفكر . وكان يزود العربية

بدراساته ومقالاته ، وهى ذات متعة وطرافة جذبت إليه حتى خصومه الذين أخذوا يخففون من غلواء خصومتهم نحوه . . وصدر له كتاب « الأيام » ، وهو سرد أخاذ لطفولته وقريته ، لبيته وأهله ، لرفاقه وأترابه ، ولكثير من العادات المصرية الساذجة ، والحياة الكامدة التى تحياها الأسر الريفية فى مصر . . وقد تلقاه الأدباء والمفكرون والمستشرقون بالترحاب ؛ لأنه تصوير رائع لحياة هذا الطفل الذى كان لا شىء كمئات الآلاف من المصريين ، فأصبح شيئاً — تصوير حياته ومجتمعه . . فقد صور هذه الحياة تصويراً رائعاً غاية فى الدقة بأسلوب حى يقظ غاية فى الجزالة والسهولة والجمال . . وقد لفت هذا الكتاب أنظار المستشرقين الذين كانوا يبحثون عن صورة من الأدب الذاتى الحى فى أدبنا المعاصر ، فوجدوه عند طه حسين فى قصة « الأيام » ؛ وهذا الذى دفعهم إلى نقلها إلى لغاتهم : نقلها المستشرق الروسى كراتشفوسكى إلى الروسية ، والبروفسور باكستون إلى الإنكليزية ، وراؤول فاغوى إلى الفرنسية ، وتسينغ يانين ، الأستاذ بجامعة نانكين ، إلى الصينية ، وكاتب لا أذكر اسمه إلى العبرية . . ولخص المرحوم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم أكثر فصوله إلى الألمانية والتركية ، وهكذا . . . فيكون هذا أول كتاب أو قصة تصويرية نقلت إلى أكثر من لغة واحدة من لغات الشرق والغرب .

* * *

واستثار الكتاب الدكتور طه أن يتمم فصول هذا الكتاب . أى أن يؤرخ حياته بأسلوبه الرائع ، فأصدر الجزء الثانى من « الأيام » بعد سنوات عشر ، وقد قص فيه فترة من تاريخ حياته الأولى ، كيف نقل من الريف إلى الأزهر ، وكيف عاش تلك الحياة الجافة المؤلمة ، والمصاعب التى واجهته ، والكتب التى قرأها ، والأساتذة الذين أخذ عنهم ، والإهمال الذى كان يلاقيه من عائلته . كيف كان مهملا

بعض الإهمال . فأصبح معنيًّا به كل العناية . . وقد تحدث فى هذا الجزء عن الأزهر أكثر مما تحدث عن نفسه ، فذاتيته . فى الفصول الأولى . منكمشة قد قبعت فى زاوية من الأزهر ، تراقب بوعى يقظ ما يجرى فى الأروقة . وقد أطال الحديث عن هذا وذاك من زملائه وأساتذته أكثر مما أطاله عن نفسه . فاستطاع بتلك الفصول أن يؤرخ طبيعة الحياة الأزهرية ، ولون الدراسات العقيمة فيها . ونفسية الطلاب والأساتذة . أكثر مما أرّخ هذه الفترة من حياته . وقد وصف الماضى القريب من حياة الأزهر وصفاً دقيقاً حتى لكأنك أمام شريط سينمائى يعرض عليك بوضوح أكثر مظاهره وخفاياه . فنعلم من ثنايا هذه الفصول التى يلمح فيها إلى فساد الدراسة فى الأزهر أن الفتى طه حسين لم يكن كبقية زملائه الطلاب يهز رأسه بدون فهم . وينام على الخطأ بدون تفكير . بل كان يجادل الأساتذة بعنف . ويحرجهم بالأسئلة حتى يغيظهم . فكانوا لا يجيبونه هذه الأجوبة المقنعة . فإذا ألح انتهروه بكلمات نابية تؤلم نفسه أشد الألم . وكثيراً ما كان يضطر أن يترك حلقة هذا الشيخ إلى ذاك . وينتقل من درس إلى درس . ومن عالم إلى آخر إلى أن اتجه إلى دراسة الأدب . مع أن توجيهه كان إلى دراسة الفقه والعلوم الشرعية ليكون مدرساً من مدرسى الأزهر . . وهكذا حدثنا فى هذه الفصول عن العوامل التى نقلته من الطور الدينى إلى الطور الأدبى . من أفق الأزهر الضيق إلى أفق الجامعة الواسع حيث وجدت نفسه بيئتها التى رفقت به أجمل رفق . وعنيت به أكرم عناية وما زالت حتى رفعته إلى القمة .

ويتساءل الكثيرون متى تصدر بقية الأجزاء التى تؤرخ هذه الحياة

العجيبة التى مرت بأدوار خطيرة ؟ لا أعلم[١] . . وكل ما نرجوه أن يسمح الوقت لهذا الإنسان أن يؤرخ حياته بأسلوبه الحى ، وحسه المرهف ، وعقله اليقظ ، وسخريته اللاذعة بالأحداث التى مرت به ، ولا شك أن الدكتور طه لو سمح له وقته بكتابة فصول هذه الحياة فى شتى مراحلها ، وبما مر بها من ظروف عصيبة وظروف باسمة ، لظفر الأدب العربى بكتاب ربما كان من أخلد كتبنا الأدبية .

* * *

ومن الكتب الأدبية التى نستطيع أن نسلكها فى سمط هذه المجموعة التى تؤرخ حياته كتاب « أديب » . ولا نتحدث عنه بأكثر مما تحدث هو عنه . فقد سأله أحد الصحفيين يوماً عن أى كتاب من مؤلفاته يؤثره على غيره فكان جوابه : « إن الكتاب الذى أحبه وأؤثره لا يعجب الناس ، وهو كتاب " أديب " ، وإعجابى به يرجع إلى أننى وصفت فيه كثيراً من شئون حياتى الخاصة ، وما كان يحيط بها فى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه . لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة ، وعن سفرى إلى أوربا . وهى ذكريات أحبها وأؤثرها . صنعت هذا الكتاب على أن ما فيه تخيلات مما يخطر فى مخيلات الكتّاب . والحقيقة أنه ليس فيه شىء من التخيل ، بل هو مجموعة من الحقائق ، ولكن الناس معجبون

---

(١) صدر عن دار المعارف ، فى أوائل هذا العام (١٩٧٣) ، آخر روائع فقيد الأمة العربية : الجزء الثالث من « الأيام » ، يضم عشرين فصلا تحدث فيها عن تتمة ذكرياته ومراحل حياته الخصبة .

تحدث عن حياته فى فرنسا ، وعن اختفاء المرأة ، وكيف سقط فى امتحان العالمية ، وعن أستاذه الذى دعا عليه بالشقاء ، وعن الفلسفة المفسدة ، وعن مقابلته السلطان حسين كامل ومقابلته الملك فؤاد أيام كان أميراً ورئيساً لمجلس الجامعة ، وبعد أن صار ملكاً ، وعن رفضه حضور مؤتمر للعميان ، وعن لقائه بالأديبة الآنسة م زيادة ، وعن قصة حبه ، والمرأة التى أبصر بعينيها .. وحديثه عن هذه السيدة من أروع ما كتب الفقيد العظيم ، لما تميز به من رهافة الحس ، وعمق التعبير .

بكتاب " الأيام " لا فى البلاد العربية فقط بل فى أوربا أيضاً ، وقد تلقيت أمس عقداً لترجمته من " الزوج " ؛ والناس معجبون أيضاً بكتاب " على هامش السيرة " وكتاب " مستقبل الثقافة "... »

١٢

إن حياة الدكتور طه التى وددنا أن يؤرخها بقلمه تؤرخ نفسها بنفسها . . فمذ برز إلى مسرح الحياة الفكرية واسمه بين أخذ ورد ، بين محبّ وقالٍ ، بين معجب وكاره . . وقد كثر اللغط حوله ، فى تلك الفترة من حياته ، وأى لغط ! لغط الحشو بين المتحجرى العقول الذين كانوا ينالونه بمناسبة وبغير مناسبة . لقد أثار الأستاذ عبد الحميد سعيد فى البرلمان — وكان رحمه الله وغفر له من أئمة الرجعية فى مصر — أثار سنة ١٩٣٢ قضية كتاب « فى الشعر الجاهلى » من جديد . . وكان على رأس الحكم إسماعيل صدقى باشا ، وكان وزير المعارف حلمى عيسى باشا ، ولم تكن الأمور بينه وبين الدكتور طه على ما يرام ، لاختلاف وجهات نظرهما فى كثير من قضايا الفكر . . ومن جهة ثانية كانت نزعة الدكتور طه السياسية تخالف نزعة الحكومة ، وأراد صدقى باشا أن يستخدم أدب الدكتور طه فى دعم سياسة حكومته ، وأغراه براتب ضخم ليكتب المقال الرئيسى فى جريدة « الاتحاد » لسان حال الحكومة ، فأبى ، ورأى فى ذلك ما يتعارض وكرامته ونزعته السياسية . . وكان هذا الرفض من العوامل التى حدت الحكومة أن تدفع نوابها الرجعيين أن يثيروا فى البرلمان قضيته مرة ثانية ليؤلّبوا عليه الرأى العام ! وقد دفعوا الأزهر من جديد ليسند الحكومة بهذا الاتجاه ، فنقلوا طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف ، ثم فصلوه من الوظيفة . . وهنا انقلبت الآية ، فوقف الرأى العام إلى جانبه ، ولا سيما حين علم أن سياسة الحكومة تريد أن تستخدم أدبه وقلمه فى مقاصدها . . وكان لحرمان الجامعة من علمه ، وهو عميد الأدب

العربى ، أثره فى نفوس الطلاب ونفوس المفكرين على اختلاف وجهات نظرهم .

ومن الأمانة لتاريخ الفكر فى مصر أن نثبت هنا فقرات من أحاديثه إلى الصحفيين الذين هرعوا إليه يسألونه رأيه فى موقف صدقى باشا الذى أراد بفصله من الجامعة ومن الوزارة أن يحمى الإسلام من هذا الملحد !

قال الدكتور طه من حديث طويل غاية فى الطرافة والسخرية والهزء من صدقى باشا ومن شيخ الأزهر معاً :

« . . على أنى أريد أن أقف وقفة قصيرة جداً من شيخ الإسلام . ومن حامى الإسلام . . فقد أصبح صدقى باشا حامى الإسلام منذ فصل طه حسين من الحكومة . . أريد أن أقف معهما وقفة قصيرة لأسألهما عن حماية الإسلام هذه ما هى ؟ وكيف تكون ؟ وماذا يبلغان منها بفصل طه حسين من خدمة الحكومة ؟ ! فهما لن يمنعاه بهذا الفصل من أن يتكلم ، ولا من أن يكتب . ولا من أن يكون له تلاميذ . . ولا من أن يلقى تلاميذه القدماء . . وإذن . . فما حمايتهما للإسلام . . وكيف يفهمانها . . وكيف يحققانها ؟ . . أهما يحميان الإسلام حقاً أم يرضيان شهوات خفية ؟

لقد قرأ صدقى باشا كتاب "فى الشعر الجاهلى" وكتاب "الأدب الجاهلى" ، وكان من المدافعين عنهما فى الأزمات الماضية . وهو الذى سعى وألح فى السعى لتعيين طه حسين عميداً لكلية الآداب . وسعى وألح فى السعى حين كان رئيساً لهذه الوزارة . . فما بال هذين الكتابين يروعان صدقى باشا . . لقد أعلن صدقى باشا لطه حسين حين التقيا أخيراً أنه فوجئ باستجواب عبد الحميد سعيد ، وطلب إلى طه حسين أن يدع له أمر هذا الاستجواب السخيف . . واستعمل هذا اللفظ . . فكيف انقلب هذا الاستجواب قيماً بعد أن كان سخيفاً ؟ وكيف استحال صدقى باشا محامياً بعد أن كان منكراً لهذا الاستجواب ؟!

وقرأ شيخ الإسلام أو شيخ الجامع الأزهر هذين الكتابين فيما يقول ، والله وحده يعلم ماذا فهم من هذين الكتابين ، وكيف فهم ؟ ولكنه على كل حال كان يلقى طه حسين ويتلطف له ، ويبارك عليه ، ويستشيره فى كثير من أشياء الأزهر ، فكان يضمر شيئًا ويظهر شيئًا . . أم هو يؤمن ببعض الكتاب دون بعض ؟

إن حماية الإسلام لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة . . وإنما تكون بتحويل نظم الحكم كلها — بتحريم الربا وإغلاق المصارف ، ومنع الحكومة من أن تستفيد من أموالها فى البنك الأهلى وغيره من البنوك ، ومنعها من أن تبيح الخمر وتجبى عليها الضرائب . ولعلّ مرتب الأستاذ الأكبر أن يكون بعضه من هذا الربا أو من ضريبة المحرمات !

حماية الإسلام تكون بإغلاق دور الفحش والفسوق . وتكون بأخذ رجال الدولة بأن يظهروا دائمًا خضوعهم للإسلام وإذعانهم له ! »

ثم استطرد ، بعد أن سخر من رئيس الوزراء ، ومن شيخ الأزهر بأسلوبه الهازئ إلى رجاء حار . . قال :

« أرجو أن ينسى رئيس الوزراء وشيخ الأزهر أنفسهما لحظة واحدة ، وأن يفكرا فى أنهما يخجلان بلدهما ويسيئان إليه بهذا العبث الكثير . . فنحن فى القرن العشرين لا فى القرن الثانى عشر . . وكرامة الأمة يجب أن تكون أحب إليهما وآثر عندهما من النكاية بفرد من الأفراد ، وإن كان هذا الفرد طه حسين ! . . »

لقد أرادت حكومة صدقى بسياستها الحرقاء أن تشوّه سمعة بطل من أبطال الفكر . أن تحرقه بنارها اللاهبة . . ولكن طه حسين أذكى من أن يكون آلة بيد الأهواء ، وأرفع من أن يلوّث نفسه ويتحدّر فى الأغوار فعصم نفسه وصان كرامته وخرج من المعركة التى أثارتها ضده الحكومة ظافراً .

١٣

لقد أصبح طه حسين بدون عمل ، وهو رجل لا يملك شيئاً . . فلا مزارع عنده . ولا أطيان ، ولا أموال . . يعيش عيشة كريمة من راتبه ومما تدبجه يراعته . وسرعان ما طلبت إليه جريدة « كوكب الشرق » ، لسان حال الوفد المصرى . أن يقبل رياسة تحريرها . . أى أن يقبل كتابة المقال الرئيسى . ومعنى هذا أن الوفد المصرى أراد أن يضم هذا الرجل الكبير إلى حظيرته ، ليصاول معه عهد الطغيان . .

وكان طه حسين يود أن يظل فى صومعة الفكر — فى الجامعة — يدرس ويحاضر وينشئ جيلا يؤمن بالحرية إيمانه المطلق بها . ولكن الظروف العصيبة . وموقف الحكومة منه . اضطرته أن يرتضى العمل فى الصحافة . لأنها ستكون المنبر الحر للتعبير عن ميوله وآرائه واتجاهاته ، والصلة الوثقى بينه وبين قرائه وتلاميذه . . وأخيراً — وليس آخراً — ليقف وجهاً لوجه مع الحكومة التى وقفت منه هذا الموقف المزرى الذى يتنافى وكرامة الفكر وحرية الضمير .

قبل العمل فى جريدة « كوكب الشرق » كرئيس لتحريرها . وقد منحته أضخم راتب منح لكاتب . ومنذ باشر تحريرها ارتفع عدد المبيع ارتفاعاً لم تعرفه الصحافة المصرية قبل ذلك اليوم .

وقد استقبل صاحب الجريدة المرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض الدكتور طه حسين بمقال فى ستة أعمدة تحدث فيه عن عبقريته وإخلاصه لوطنه ودفاعه عن الحريات : حرية الفكر وحرية الوطن . . ومن كلماته عن صلة طه حسين بالصحافة قوله :

« . . لقد كان طه حسين فى جميع مراحله فى الصحافة التى كثيراً ما خدمها ، وكثيراً ما أحسن البلاء فيها ، والإفادة لها . كان إلى جانب

رسالته العلمية والفكرية والأدبية ، لا ينشد من وراء كتاباته كلها إلا ما يراه متفقاً والمصلحة الحقيقية بحافز صادق من إيمانه الفياض المرسل كاسمه إرسالا ، والمنطلق بوجدانه الحي المترع حساسية وشعوراً . وبعاطفته النبيلة المعناة ، وحماسته المتقدة الحكيمة . وكان فى كل أطواره نعم العون ، ونعم المدافع والنصير لجميع الحريات : حرية الفكر ، حرية الكتابة ، حرية الاجتماع ، حرية الخطابة . .

ولا أنسى جلسات خاصة جلسناها معاً والمرحوم ثروت باشا . كان صديقى ، يافعاً وشاباً ورجلا . الخصم الشريف فى العرف الكتابى ، والمصرى الوطنى فى التاريخ الواقعى ، مع سعة عطن ، وليانة جانب ، ومع عطف وحدب ، رضمير ووجدان ، ومع إخلاص صامت ، ومع حماسة جيّاشة ، ومع اتئاد فى تدفق ، ومع حصافة فى إضرام ، ومع إضرام فى هدوء ، ومع هدوء فى حياة ، ومع حياة فى اتزان ، كل ذلك ورائده مصلحة الوطن فى غير ضوضاء . . وشعاره الجهر بالحق فى غير خور ولا تردد ، وفى غير حذر ولا حيطة . . "

وإذ لبس الثوب الصحفى لم ينْضُ عنه الثوب الجامعى فكان فى مقالاته الثائرة هذا الكاتب الهادئ الذى يفلسف الأمور بروح منطقية وبأسلوب هازئ ساخر . . وما يزال يهزأ ويسخر بخصمه حتى يرديه قتيلا . . ولم يحاول قط ، فى حياته الصحفية ، الانحدار إلى أسلوب المهاترة ، بل كان عفّ اللسان ، شأنه فى جميع خصوماته . وكان القارئ يخرج من تلاوة مقاله وكأنه يتلو قطعة من أدب الحياة .

١٤

ظل فى نضاله الصحفى مدة غير قصيرة ، ولكن لم يترك جوه الفكرى ، فكان إنتاجه غير منقطع . وصدر له فى هذه السنة (١٩٣٢) كتاب « فى الصيف » ، وهو مجموعة الرسائل التى كتبها من أوربا . . وهو

كتاب لا تحدّه هذه الفصول والأبواب التى تحدّ الكتب عادة . . فهو صورة حية لنفس قوية خصبة تتحدث عن الأدب والتجديد ، عن الأزهر وشيوخه وعلله وطرق إصلاحه ، وعن هذه الصور الفنية الخالصة فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وعن كثير من صور الحزن والفرح ، والبؤس والمرح التى تزخر بها النفس . ولقد أطال الحديث عن البحر وحياة السفر ، وعن باريس وما جدّ فى باريس ، منذ تركها ، من صور جديدة . وما يروق الدكتور طه شيء كما يروقه الحديث عن باريس ، وترديد ما لها فى نفسه من ذكريات قديمة ، سواء حين كان طالبًا أم حين يعاودها للمرة الثانية أو الثالثة أو العاشرة . . وقد رسم تأملاته بروح فلسفية منطلقة — تأملاته فى الحياة والكون ، فى مصر وأوربا ، فى الشرق والغرب . . وقد أعطانا المثل الواضح بكتابه هذا على أنه ليس مؤرخًا أديبًا فقط بل هو أديب فنان من الطراز الأول . .

وذهب غير واحد من كبار الأدباء ، بعد أن قرءوا « الأيام » و« فى الصيف » إلى القول إن فى طبيعة الدكتور طه هذه النزعة القصصية التى لا تتحدث عن شيء إلا استهوت قارئه ، وسحرته سحراً يسيطر على كل حاسة فيه . وقد أشار المرحوم الأستاذ المازنى إلى هذه النزعة بقوله :

« إن الدكتور طه قصصى بارع ، وأديب رِبانى من الطبقة الرفيعة ، وإنه خير للأدب المصرى فى رأيى ، أن ينضو عنه بردة العلم ويتناول قلم القصاص . وأحسبه يوافقنى على أن كتابه " الأيام " سيبقى ، على حين قد يبقى أو لا يبقى "حديث الأربعاء" أو " فى الأدب الجاهلى" . وأرجو ألا يرى فى هذا انتقاصًا للكتابين ! » . .

ثم أردف الأستاذ المازنى ، رحمه الله ، هذا الرأى برأى آخر فقال :

« وهل " ذكرى أبى العلاء " ، و " ابن خلدون " ، و " حديث الأربعاء" إلا قصص تمثيلية ؟ و " الأدب الجاهلى " بحث علمى حرّ . . ولكنه على هذا رواية ممتعة . . ولست أقول هذا اليوم فقط ، فقد قلته

لما صدر كتابه " فى الشعر الجاهلى " وثار به الحمقى والدساسون والمشعوذون والحاقدون ! »

والواقع ، أن كتابه « فى الصيف » هو قصة رحلة ، وهو قصة ممتعة ، كتبها طه حسين وهو موتور من الكثير من الأمور ، صور فيها هواجس نفسه من يوم ترك مصر إلى أن عاد إليها — تلك النفس الهائجة الثائرة ، المضطربة ، المغيظة مما يمثل على مسرح مصر من المآسى الحزينة ، ولم يمنعه — وهو يرسم خلجات هذه النفس — أن يذكر ماضيه القريب ، فيصور بعض حالاته . ومن الصور الطريفة التى جاءت عرضاً فى هذه الرسائل قوله :

« كنت أرانى حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معمماً قد صعد إلى السفينة ، يتعثر فى أذيال جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التى قضت بها عليه عاهته التى حالت بينه وبين الضوء . فلم أكد أصل إلى غرفتى حتى طارت العمة عن رأسى ، ولقد أريد أن أتذكر إلى أين فلا أجد إلى ذلك سبيلا . . كل ما أعرفه أنى خلعتها حين دخلت الغرفة . . ثم لست أدرى إلى أى حال صارت . . ولو قد عثرت عليها لحفظتها تذكاراً باقياً . . ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل حين آخذ بين يدى ذلك الطربوش الكالح وتلك الحرقة التى ما أظن أنها كانت يومئذ ناصعة البياض . . وخلعت الجبة والقفطان وأنا أعلم إلى أين صارا . . منحهما أخى هدية لسيدة كان يألفها فى فرنسا . . ولست أدرى ماذا اتخذت منهما . . خلعت الجبة وخلعت القفطان ودخلت فى هذه الثياب الأوربية . . فكم ضقت بها ! وكم كرهتها ! وكم ندمت على جبتى وقفطانى طوال الأسبوع الذى قضيته على ظهر " أصبهان " رحمها الله ! . . فقد هوت " أصبهان " إلى قاع البحر وعبث الموج بأجزائها ، كما عبث بأجزاء عمتى فى أكبر الظن » .

١٥

بعد كتابه « فى الصيف » صدر له كتاب « حافظ وشوقى » . . وهو دراسة شاملة عن شاعرى مصر الكبيرين مع بحوث قيمة فى الأدب الجديد ، وترجمات عن الشاعرين الفرنسيين بودلير وسوالى برودوم ، وكلام عن الحرية والفن . وتؤلف هذه البحوث والدراسات آراء الدكتور طه فى مميزات الأدب الجديد . . وقد أطلق رأيه صريحاً . كعادته ، فى حافظ وشوقى ، فحافظ عنده مقلد صريح التقليد ، وشوقى مجدد ملتوى التجديد . . هكذا ابتدأ حياتهما الشعرية . . ثم يمضى الزمن على حافظ وشوقى فإذا تقليد حافظ يستحيل إلى نضج غريب ، وقوة بارعة ، وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضاً . . وإذا تجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء . . لا يتستر فيه ولا يحتاط ، ينشئ القصيدة فلا نحتاج إلى تعب أو مشقة لنجد القصيدة التى يحاكيها . . وينتهى الدكتور طه من آرائه فى الشاعرين إلى أن شوقى لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقى من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا ، أخصب من حافظ طبيعة ، وأغنى منه مادة ، وأنفذ منه بصيرة ، وأسبق منه إلى المعانى ، وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضاً . وينتهى إلى « أن لشوقى فنوناً لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها ، فشوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشئ الشعر التمثيلى فى اللغة العربية . يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان

فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظًّا فى إقامة مجدنا الحديث » .

قيمة هذا الكتاب أنه يضم آراء جريئة فى التيارات الأدبية المعاصرة .

١٦

وقد كان طه حسين ، خلال هذه الفترات التى مرت من حياته ، ولا يزال ، مثال المفكر الحر ، والأديب العظيم الذى يريد أن يرقى بالأدب العربى إلى المكانة التى تحتلها آداب الأمم الحية . . وقد كتب عدة محاولات فى شتى فنون الأدب واتجاهاته ، فكان خير مثال يحتذى . .

وإن الدكتور طه ، كما أشرت فى بدء كلامى ، صاحب مدرسة ومنهج ، ومدرسته التى تقوم على الهدم والبناء ، هى التى يحتذيها الأدباء المجددون فى الشرق العربى ، وهو إلى نزعاته التجديدية الصريحة ، كثير الالتفات إلى الماضى ، أى إلى الأدب العربى القديم ، يتخذه أصفى مادة للدرس والبحث ، وقد أبرز صوره الجميلة بأسلوبه الأخاذ ، فاستطاع أن يحببه إلى الكثيرين حتى الذين أنكروا قيمته . ولم تقف مباحثه فى تاريخ الأدب العربى القديم عند هذه الدراسات الأدبية الجافة ، بل أحب أن يقدم إلى قراء العربية صوراً رائعة من الأساطير العربية التى لا تقل فى روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية ، فكان لنا كتابه « على هامش السيرة » ، وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم ، بل هو صور رائعة قوية كانت مدفونة فى بطون كتب السيرة ، فجلاها بأسلوبه الأخاذ ، وإذا هى آيات من الأدب الأسطورى الجميل . قد عرض هذه الأحداث الجسام التى سبقت ولادة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فتحدث ، بنزعة قصصية رائعة ، عن قريش وتبّع ، عن الحجاز واليمن ، عن بلاد الحبشة وما جاورها . وقد ربط بين هذه القصص وبعض الأساطير القديمة

بين نشأة اليهودية واصطدامها بالوثنية ، ونشأة المسيحية واصطدامها بالوثنية واليهودية معاً . . وانتهى من هذه القصص والحركات التى رافقت الديانتين إلى ولادة الإسلام ، بعد أن صور بلاد العرب وعاداتها ورجالاتها وطبيعتها وقصصها ونشأة أديانها بأسلوب غاية فى الدقة . واستطاع أن يضفى على التاريخ لوناً من طلاوة الأدب وفتح باب المثولوجيا الإسلامية على مصراعيه . وقد أقبل على قراءة هذا الكتاب ، غير أولئك الذين آمنوا بعبقرية طه حسين ، جميع الذين أنكروا عليه أدبه ، حتى المعممون وأنصار القديم الذين اتهموه فى دينه ، وقد رأوه فى كتابه هذا يصور الإسلام بسماحته وبطولة شخصياته تصويراً تعجز أقلامهم عن بلوغ بعض ما بلغه زعيم التجديد الذى رسم هذه الصور بنزعة المؤرخ القاص ، وروح الأديب الشاعر الذى تستهويه الصورة الجميلة ، فيضفى عليها حسه ومشاعره وفنه وأدبه .

١٧

ثم تتابعت كتب الدكتور طه .. وكان لا يمر عام بدون أن يصدر له كتاب أو كتابان . بعضها مقالات ودراسات ورسائل كتبت سابقاً فجمعت فى كتاب ، وبعضها ألف تأليفاً مستقلاً . ومن المقالات والدراسات المجموعة كتاباه « من بعيد » و « من حديث الشعر والنثر » . ويريد بكتابه « من بعيد » هذه المقالات والرسائل التى كتبت من باريس ، ومن أقصى الغرب الفرنسى ومن بلجيكا وڤيينا .

وللسفر فى نفس الدكتور طه عوامله الغريبة ، فلا يكاد يترك مصر ومشاكلها حتى تنطلق نفسه بآراء وخواطر حرة كانت تحول بعض العوامل دون كتابتها فى مصر ، وقد أشار إلى هذا بقوله :

« إن النأى عن الدار ، والتنقل فى أقطار الغربة ، يثيران فى نفس

الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاستقرار . ويهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له حين يكون مستقيما مستقرًا فى داره بين أهله ومواطنيه » .

وقد ضم كتابه هذا فصولا رائعة عن حياة باريس وذوها . عن سارة برنار وتمثيلها . عن حياة البحر والسفر . عن الشك واليقين . عن الكثير مما له صلة بحياة الفكر ونزعات التطور . على أن أهم ما تضمنه هذا الكتاب بحثه الرائع « بين العلم والدين » . وهو البحث الذى كتبه على أثر الضجة التى قامت حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » . أى أن الدكتور طه لم يشأ أن يدخل مع خصومه فى مهاترات بعيدة عن روح البحث . فكتب قصة النضال بين العلم والدين منذ عهد الإغريق إلى يومنا هذا . وضاقت صحف مصر آنئذ بهذا البحث فلم تستطع نشره ، أو لم تسمح السلطات الرجعية بنشره . فرحبت به حلب . ونشر فى مجلة « الحديث » .

ومن البحوث ذات الصلة بتاريخ الفكر ، والتى تضمنها كتاب « من بعيد » ، فصل عنوانه « ديكارت » لم يقصد فيه كتابة سيرة ديكارت بقدر ما أراد أن يوضح مذهب الشك واليقين بروح من الهزء والسخرية — لهزء الصارخ من شيوخ الأدب القديم ومن أئمة الرجعية فى مصر . . فبز ، بهذا الفصل ، الجاحظ فى سخرياته . ولم ينأ عن روح فولتير .

والكتاب بمجموعه صفحات قوية عن حرية الفكر ، جمع بين أدب الرحلة وأدب الفكرة . وقد تطوف مع طه حسين دنيا الغرب فلا تشعر إلا بالمتعة والبهجة والسرور ، لأنه يحدثك حديث النفس حديث الفكر الممتلئ بأصفى ما وعته دنيا الفلسفة ودنيا الحقيقة .

* * *

أما كتابه « من حديث الشعر والنثر » فقد جمع فيه المحاضرات التى ألقاها فى مختلف الظروف والمناسبات الأدبية ، وهى تعلن عن رأيه صريح فى قيمة أدبنا القديم خلافًا لما يأخذه عليه المتحذلقون الذين كانوا

يتهمون زعيم التجديد الأدبى بأن تجديده يقوم على إنكار القديم بالمرة . . وهذا جهل وضلال . . وما أعرف أديبًا معاصراً دعم الأدب العربى القديم وحببه إلى النشء الجديد كالدكتور طه ، فمن مقارناته اللطيفة بين الأدب العربى والآداب العالمية قوله :

« إن النهضة الأولى التى ظهرت فى القرن الثانى عشر فى أوربا إنما هي نتيجة اتصال أوربا بالعرب . فأدبنا هوالذى أحيا العقل الأوربى حتى جاءت النهضة الثانية التى اتصل فيها الأدب الأوربى بالأدب اليونانى القديم ، فلو لم يكن للأدب العربى إلا أنه قد حمل لواء الأدب الإنسانى والعقل الإنسانى فى عشرة قرون لكان هذا كافيًا للاعتراف بأن هذا الأدب من الآداب التى تعتز بنفسها . وتستطيع أن تثبت لصروف الزمن . . »

ولا مجال لأن نسهب فى عرض نظرينه فللقارئ أن يرجع إليها فى مظانها . ولا شك أن لهذا الرأى قيمته ، لصدوره عن رجل جامعى ، وأديب فذ قد وسع ذهنه الآداب العالمية قديمها وحديثها ، وهو إذ يقارن تبدو مقارنته حكمًا مبرمًا .

إن كتاب « من حديث الشعر والنثر » يتضمن محاضرات قيمة عن النثر العربى فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وعن الحياة الأدبية فى القرن الثالث ، ودراسات شاملة عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى تغنى عن الكثير من المطولات ، لأنها زبدة آرائه فى الشعراء وفى الحياة الأدبية لذلك العصر .

١٨

وكما قلت آنفًا ، وكما أشار هو أكثر من مرة ، إن رحلاته إلى الغرب ذات تأثير فى إنتاجه الأدبى . فلا يكاد يسافر ، ويخلد إلى الراحة

حتى يفكر بإملاء موضوع جديد . . وطه حسين لا يشكو إلا ضيق الوقت ، فلو تحرر من هذه المشاكل التى تواجهه كرجل مرموق فى عالم الأدب . وانصرف إلى الإنتاج الأدبى الخالص ، لكان للعربية منه فى كل شهر كتاب من أمتع كتب الفكر والأدب . . ولكنه أعطى الحياة العامة جزءاً غير قليل من نشاطه ، فطغت على وقته الذى كنا نريده للإنتاج الفنى الخالص . . ولكن الإنسان مسيّر غير مخيّر . . وهكذا قضت الظروف أن ترتبط حياة طه حسين بشتى التيارات ، فلا ينصرف كأبى العلاء الانصراف المطلق إلى الأدب . وقد يكون هذا التمنى لوناً من الخبل ، لأن الرجل المفكر ابن بيئته . وحياته مرتبطة بما تفرضه عليه الحياة — حياة وطنه من قيود وأعباء .

* * *

كانت الرحلة إلى فرنسا سنة ١٩٣٦ من العوامل التى دفعته أن يكتب فى جبال الألب حياة المتنبى — مالئ الدنيا وشاغل الناس — وقد كُتب عن المتنبى ، بمناسبة ذكراه الألفية ، الكثير من المباحث والرسائل والكتب . . ولكن نظرة طه حسين إلى المتنبى تختلف عن نظرة الكثيرين . إنه لا يحب المتنبى كما يحب غيره من الشعراء . . ومع ذلك صحب ديوان المتنبى معه إلى جبال الألب — صحبه ليقرأ بعض قصائده هناك . وكأنى بطه حسين أراد أن يصفى علاقته مع هذا الشاعر العظيم . . أصحيح أنه يكرهه ؟ لا أظن . . وإلا لما شغل به هذا الاشتغال المضنى فى فترة استجمامه التى أنتجت كتاباً فى جزأين بلغت صفحاتهما نيفاً وسبعمائة صفحة عرض فيها إلى حياة المتنبى وعصره وعوامل طموحه ، وصراعه مع الأمراء والملوك ، وتحليل دقيق للكثير من قصائده . وما أظن أن أديباً استطاع أن يرسم هذه الظلال من حياة المتنبى كما رسمها طه حسين . أيدل هذا على أنه يكرهه ؟ ويأبى الدكتور طه إلا أن يؤكد الكراهية . كرهه لشخصه لا لأدبه بهذه الكلمات التى جاءت عرضاً فى سياق بحث من بحوثه :

« . . . إلى هذه الحال انتهى المتنبى حين فارق سيف الدولة ، وألقى بنفسه بين يدى سيده الجديد كافور . . جحد ماضيه كله . ورفض آراءه كلها . ونزل حتى عما كان خليقاً أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء . ولا تقل إنه كان محتاجاً إلى هذه الذلة ، مضطراً إلى هذا الهوان ، عاجزاً عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن . فلم يكن المتنبى فى ذلك الوقت بائساً ولا فقيراً . بل كان بعيداً كل البعد عن البؤس والفقر . أخذ من سيف الدولة مالا كثيراً . ولم يسرف فى هذا المال . . بل أسرف فى حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح . وخرج من مالك الحمدانى يسوق بين يديه مالا ضخماً ، ويحيط به عدد ضخم من الرقيق . فلو شاء أن يعيش حراً كريماً مستقلا لما وجد فى ذلك مشقة ولا جهداً . وقد يقال إن حياة الشعراء فى ذلك العصر لم تسمح لهم بهذا اللون من الحياة . وقد يقال أيضاً إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يعرض عن مدح الأمراء والملوك . ولو حاول ذلك لعرضوه للأذى ولأكرهوه عليه إكراهاً — قد يقال هذا كله ولكنه لا يغنى عن المتنبى شيئاً ولا يزيد على أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبى كان شاعراً كغيره من الشعراء . ورجلا كغيره من الناس ، قد رفع نفسه فوق قدرها . وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغى لمثله أن يطمع فيه . . ظن نفسه حراً . ولم يكن إلا عبداً للمال ، وظن نفسه أبياً . ولم يكن إلا ذليلا للسلطان . وظن نفسه صاحب رأى ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التى كان يتهالك عليها أيسر الناس أمراً وأهونهم شأناً .

وقد جاء بعد المتنبى رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس وازدراهم . وأنكر الملوك الأمراء . وزهد فى التقرب إليهم والدنو منهم ، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم ، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف . فوفى لنفسه وعقله بكل ما أراد . ولم يكن أقل شاعرية من المتنبى ، ولم تسعده الأيا

كما أسعدت المتنبي . فقد حرمته بصره . ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له الحياة وخفض العيش . . ومع ذلك عاش كريماً ومات كريماً ، ولم يتعلق عليه أحد بذلة ، ولم يغتمز فيه أحد هفوة . وسخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان ، واستطال على السلطان ، وعجز السلطان أن يستطيل عليه . وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يخلّوا بينه وبين حريته ، وألا يشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر . . وألا يخرجوه معهم إن خرجوا من المدينة فارين أمام الروم ، وأن يقيموا فى المدينة إن أمنوا ، ويظعنوا عنها إن خافوا ، ويتركوه فيها على كل حال . لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعاً ، وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذى أتحدث عنه ، وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين . هو الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس . والذى أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل هو أن المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم . ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما خدع معها كثيراً من الناس ، فظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم . . وليس هو من هذا كله فى شىء . إنما هو رجل من أهل زمانه لم يتميز منهم بأخلاقه . وإنما امتاز منهم بلسانه ، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء . . »

على أن هذا الكره ، أو هذا الرأى الذى أبداه طه حسين فى خلق المتنبي وفى شخصيته ، لم يمنعه أن يغوص إلى شعره الوثيق الصلة بحياته ، وبمن اتصل بهم . يدرسه ويدرس عوامل اتصاله بهم دراسة مفصلة وينتهى — بعد أن يعرض جميع مراحل حياته — إلى رأى غريب يطرحه بكثير من الحرية ، وهو أن ديوان المتنبي يصور لحظات من حياة المتنبي لا أكثر ولا أقل ، كما أن كتابه هذا « مع المتنبي » يصور لحظات من حياة طه حسين لا أكثر ولا أقل !

وبالرغم من هذا الالتواء الذى أراده الدكتور طه ، فالكتاب — فى رأيى — أوفى دراسة لحياة المتنبى من شعره الذى قاله فى شتى المناسبات منذ فجر صباه إلى آخر لحظة من لحظات حياته . .

وقد أتعبه هذا الكتاب . ولم يذق خلال أشهر الصيف طعم الراحة ، ولاحظت عليه زوجه أثر هذا التعب فكانت تحاول أن تصرفه عن الكتابة . . ولكن أنى لها ذلك . . فقد عاش جسمه فى جبال الألب ، ولكن فكره فى بغداد وحلب وأنطاكية ومصر وأرّجان ، مع المتنبى وابن عمار وأبى العشائر وسيف الدولة وكافور وعضد الدولة . . لقد تابعه فى كل لحظة من لحظات حياته وما زال حتى انتهى من تأليف هذا الكتاب . . وما كاد يفرغ منه حتى التفت إلى زوجه يهديها ثمرة جهده بهذه الكلمة الكبيرة التى تعبر أصدق تعبير عما يحمله لهذه السيدة الحنون من حب وما تحمله هى له من عطف وحب :

« . . (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

صدق الله أيتها الزوج الكريمة ، وتمّت كلمته . ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول ، وإن قلبى ليملؤه البر ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك ، من حثّ لى على الراحة ، ورغبة إلىّ فى التروّض ، وإلحاح علىّ فى الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فى جبال الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض . . وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والإشفاق . وإنى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسياً جافيًا . . ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذنى لى فى أن أقدمه إليك لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين » .

وهذا الإهداء إنما يدلنا على الجهد الذى أرهق به نفسه فى سبيل

المتنبي الذى أحبه وكرهه ، وكان نتيجة هذا الحب والكره المزدوج كتابه العظيم عن ذلك الشاعر العظيم !

١٩

مرّت سنة ١٩٣٦ فى جد وكد . ولم يستطع أن ينعم بروائع الطبيعة فى ظلال الألب . ولم تتيسر له الراحة التى ينشدها المصطافون . وعاد من أوربا إلى مصر يتابع نشاطه الذهنى . ويستقبل الحياة العنيفة المفعمة بألوان النشاط المختلفة حتى ضعف جسمه وانهدت قواه . ويؤكد فى إحدى رسائله أن أعصابه قد اضطربت ، فأصبح سريع الغضب ، سريع الرضا ، وسريع الانفعال بوجه عام . ولم ير بدًّا ، بعد أن مرت فصول السنة الدراسية . من أن يسافر إلى أوربا . فركب البحر إلى فرنسا ، ومر بباريس مروراً سريعًا فى طريقه إلى قرية نائية منزوية فى أعالى جبال الألب ، فقضى الصيف فى قرية « سالنش » . وقد صمم هذه المرة أن يعيش حياة المصطافين وأن يطلق عالم الصحف والكتب . وأن يقضى أيامه فى ظلال الطبيعة يستجم . . وتشاء المصادفة أن يصطاف توفيق الحكيم فى تلك القرية الجميلة ، وكان لابد من اجتماع الأديبين العظيمين فى تلك المرتفعات — وكلاهما قد تزود بالثقافة الفرنسية — وكان لابد من أن تترك هذه الزيارة أثرها فى نفسيهما . . وقد كان ذلك . . ورأيا أن يستلهما « شهر زاد » صفية توفيق الحكيم . . وأن يتبادلا رسائل أدبية يعبران فيها عن الكثير من آرائهما فى الأدب والحياة ، وأن يكشف كل واحد منهما ، أمام شهر زاد ، مباذل صاحبه فى أسلوب باريسى غاية فى الرقة والظرف .

وقد أنتجت هذه الرسائل كتابًا لم ينل الحظوة الكبرى لدى جمهور القراء ، وإن نزل من نفوس الأدباء منزلة كريمة ، أريد به « القصر المسحور » — قصر شهر زاد التى تركت هجير بغداد لتلحق بالأديبين فى

ذرى الألب ، فكانت طرفًا ثالثًا فى هذه الرسائل بين طه والحكيم اللذين لم يكادا يفرغان من الكتاب حتى أهدياه إلى تلك المرأة التى كانت تشيع ذهابهما إلى القصر المسحور وتتلقى عودتهما منه بنظرات حائرة وبسمات ساحرة ، فيها الرحمة والإشفاق والتشجيع . لأنها تعرف كيف تحيى زهرات الأدب وتبعث نشاط الأدباء — إلى مدام طه حسين .

٢٠

إن طه حسين كأديب جامعى ، رافقتْ حياتُه جميعَ مراحل التعليم فى فتراته كافة ، وكمواطن حر يريد لمصر أن تخطو خطوات سريعة فى ميادين العلم والمعرفة ، آلمه ألا يكون لمصر برنامج علمى عملى . تجارى فيه الأمم الحية فى نظمها التعليمية وطرق دراساتها الحرة . وقد أراد أن يضع لمصر هذا البرنامج العملى فكان كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » . وهو كتاب فى جزأين بلغت صفحاتهما الخمسمائة صفحة تقريبًا .

ومن حظ الحياة الفكرية فى مصر ، والحياة الثقافية بصورة أعم ، أن يؤرخ أحداثهما هذا المعلم الحكيم . ومن حظ قراء العربية أن يقرءوا هذه الفصول التى كتبها زعيم التجديد فى مصر ، وقد عاش طوال حياته فى الجو المدرسى المنطلق . والواقع أن النهضة الفكرية فى البلدان العربية ترتبط أوثق رباط بالنهضة الفكرية فى وادى النيل . وكتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » تصوير دقيق للكثير من مشاكل الثقافة فى الشرق العربى ، ولأطوار التفكير وأطوار التعليم فى اتجاهاتها المختلفة . وهذا ما عرض له الدكتور طه بكثير من التوسع ، وبكثير من الوعى والمعرفة . وخرج من بحوثه بخطط ونظريات جريئة ، لقلب أكثر أوضاع التعليم تمهيداً لخلق جيل جديد يجارى التيارات الحديثة فى تطوراتها المتدافعة .

كتب كتابه هذا فى ذرى جبال الألب بين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ . وكانت أقصى أمنياته — بعد أن رسم هذا البرنامج الطويل الذى ينقل مصر العزيزة من الظلمة إلى النور — أن يتحقق الحلم الذى تراءى له وهو يخط سطور كتابه . وما هذا الحلم ؟

هو تحرر مصر من الظلمة والفقر والجهل .

فهو فرح إلى أقصى غايات الفرح ، مبتهج إلى أبعد حدود الابتهاج ، سعيد إلى أرقى درجات السعادة ؛ فقد رأى . فى حلمه ، شجرة الثقافة المصرية باسقة . قد ثبتت أصولها فى أرض مصر . وارتفعت فروعها فى سماء مصر . وامتدت أغصانها فى كل وجه . فأظلت ما حول مصر من البلاد . وحملت إلى أهلها ثمرات حلوة ، فيها ذكاء للقلوب ، وغذاء للعقول ، وقوة للأرواح . . وهم يسعون فى هدوء واطمئنان وثقة إلى هذه الغصون النضرة الوارفة . فيستمتعون بمنظرها ، ويأوون إلى ظلها ، ويستمتعون بثمراتها المتشابهة . لأنها تصدر عن شجرة واحدة . هى ثقافة مصر المختلفة . لأنها تحمل إليهم ألوان العلم ، وضروب المعرفة ، وصنوف اللذة الفنية على تنوعها .

وقد رأى . على ضوء حلمه الرائع الجميل . مصر — وقد بذلت ما دعاها إلى بذله من جهد فى تعهد ثقافتها بالعناية الخالصة والرعاية الصادقة — قد انجاب عنها الجهل . وأظلها العلم والمعرفة . وشملت الثقافة أهلها جميعاً . فأخذ بحظه منها الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والنابه والخامل . والناشئ ومن تقدمت به السن . وتغلغلت لذتها حتى بلغت أعماق النفوس ، وانتشر نورها حتى أضاء القصور والدور والأكواخ ، وشاعت فى مصر كلها حياة جديدة . وانبعث فى مصر كلها نشاط جديد ؛ وأصبحت مصر جنة الله فى أرضه ، يسكنها قوم سعداء . ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالسعادة ، وإنما يشركون غيرهم فيها ؛ وأصبحت مصر كنانة الله فى أرضه حقًّا ، يعتز بها قوم أعزاء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم

بالعزة وإنما يفيضون على غيرهم منها .

ولم يدر الدكتور طه حين كتب كتابه هذا أن القدر كان يمكر به هذا المكر الجميل ، وقد دفعه أن يرسم تلك الخطط الجريئة ليطالبه ، بعد عشر سنوات ، بتنفيذ ما أملته تلك النفس العلوية التى هامت بحب مصر وأهل مصر .

وها هو ذا الآن ، بعد أن تسلم مقدرات التعليم وأصبح وزيراً للمعارف ، يعمل عمل الجبابرة لتحقيق حلمه الرائع الجميل . .

ولكن أتواتيه الظروف للعمل وفق هواه ؟ أم تقف القيود الكثيرة سداً منيعاً دون تحقيق برنامجه الضخم ؟ هذا ما لا يدخل فى نطاق كلامنا ، وإن كان قد استطاع أن يعمل فى عام ما لم يستطع أن يعمله غيره فى ربع قرن . . وكانت مجانية التعليم أولى خطوات برنامجه الثقافى الواسع الذى يهدف إلى إنشاء المدرسة الأولية فى كل قرية ، والمدرسة الثانوية فى كل مدينة ، والمدارس الفنية على اختلافها فى كل إقليم ، ولا أتحدث عن تعزيزه الحياة الجامعية ، فقد كان وما زال الدعامة الكبرى التى تسند الحياة الجامعية وتعززها وترفع من شأنها لا فى مصر وحدها بل فى أقطار الشرق العربى كلها .

* * *

لقد انتثرت فى كتابه الكثير من الآراء التى تمس النواحى الثقافية وأسس التعليم مباشرة ، فلا نعرض لها ، ولكن هناك آراء طريفة لا بد لنا أن نمر بها مروراً سريعاً ، لأنها تعبر عن نزعاته التجديدية فى حياة مصر المتطورة ، فمصر ذات التاريخ الثقافى القديم يجب ، فى عقيدة طه حسين ، ألا تبقى فى معزل عن هذا التطور الذى يهز العالم ، بل يجب أن تندفع مع التيار التقدمى لتحفظ هذا التوازن بين ماضيها وحاضرها . فمستقبل الثقافة فى مصر مرتبط بماضيها البعيد ، والعقل المصرى مرتبط منذ القديم بشعوب بحر الروم ، وقد خالط الفكر اليونانى القديم تمام المخالطة ، فتأثر

به وأثر فيه ، ويذهب إلى أن مصر غير شرقية ، فتبدو نظريته غريبة ، ولكنه لا يكاد يجردها من شرقيتها حتى يعود ليؤكد مصريتها . . فمصر ، فى نظره ، بعيدة كل البعد عن الهند والصين واليابان ، وهى قريبة كل القرب من اليونان والطليان والفرنسيين ؛ ويثبت بكثير من الحجج والبراهين أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد ، وإنما نشأ مصرياً برغم ما مر به من فتوحات وحضارات ، وينتهى إلى موقف مصر الثقافى فى الماضى ، وحمايتها العقل الإنسانى فى عهد اليونان ، وحمايتها إياه بعد غارة الترك ، ثم يؤكد أن لا فرق بين المصرى والأوربى فى العقلية ، وفى هذه المثل العليا التى يتجه إليها الغرب . وبهذا يرد مباشرة على الذين يقولون إن « العقلية المصرية » عقلية إفريقية ، وإن خصائصها دون خصائص « الذهنية الأوربية » بكثير ! . .

هذا ، ولا يفوت طه حسين أن يهزأ ويسخر بالعقلية الرجعية التى تحاول عبثاً أن تبتعد عن أوربا وعلمها وفنها . فيخاطبها متهكماً بقوله :

« فلو قال قائل : إنا قد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا حرب الكر والفر ، وهذه العُدة التى تنحصر فى السيف والرمح والقوس والسهم والدرقة والدرع ؛ فلندَعْ للأوربيين نظامهم الحربى . وما استحدثوا من ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش تشبه فى عَدَدها وعُددها جيش خالد ابن الوليد أو جيش بيبرس — لو قال قائل هذا الكلام للقيه المصريون جميعاً بالضحك والسخرية والاستهزاء ، ولكان المحافظون وأنصار القديم أشد الناس التواء عليه وازوراراً عنه . .» ؛ ثم قال : « إنى لأتخيل داعياً يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى ورثوها عن آبائهم فى عصر الفراعنة . أو فى عصر اليونان ، أو العصر الإسلامى — أتخيل هذا الداعى ، وأسأل نفسى : أتراه يجد من يسمع له ويسرع إلى إجابته أو يبطئ فى هذه الإجابة ؟ . . ولكنه يجيب عن كل حال ، فلا أرى إلا جواباً واحداً يتمثل

أمامي بل يصدر من أعماق نفسي وهو : أن هذا الداعي إن وجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به ! . . »

وفي جوّ هذه الاستطرادات التي ترمز إلى نزعاته التجديدية ، وبعد أن وضع ذلك البرنامج الضخم لمستقبل الثقافة في مصر . حدد موقف مصر من التطور العالمي ، أو رسم خطوط هذه الثقافة التي أرادها ثقافة مصرية إنسانية ، فيها شخصية مصر القديمة الهادئة ، وفيها شخصية مصر الباقية الخالدة ، وهي في الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم ، وتخرجهم من الظلمة إلى النور .

٢١

بعد كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » صدر له كتاب عن أبي العلاء المعري . .

لقد عاد إلى صنْوه وصديقه ليكتب عنه من جديد . وما زال أبو العلاء أحب شخصية أدبية إلى طه حسين الذي يجد عنده دائماً نواحي جديدة جديرة بالدرس . هذا ما أكّده طه حسين غير مرة ، وفي مناسبات كثيرة . . فهو يذهب إلى أن واحداً — مهما يكن قوياً ماهراً في البحث متقناً إياه — لن يستطيع أن يتفهم وحده أبا العلاء . ويُظهر الناس على دخيلة نفسه وعلى وجوه مذاهبه في الأدب والفلسفة وغيرهما من فروعه المختلفة للعقل والشعور . . ليس ذلك بالشيء اليسير لرجل واحد . . بل لا بد في رأي عميد الأدب من أن يتعاون عليه رجال مختلفون كلهم قويّ في مادة من مواد العلم . وكلهم ماهر في منهج من مناهج البحث . أي يجب أن يفرغ الأدباء المجودون لأدب أبي العلاء . ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبي العلاء . ويجب أن يتقسّم الأدباء فيما بينهم أدب أبي العلاء . فيفرغ قوم لشعره العادي ، وآخرون لشعره الفلسفي ، ويفرغ قوم لنثره

لعادى ، وآخرون لنثره الفلسفى . ويجب أن يتقسّم الفلاسفة فلسفة
بى العلاء، فيفرغ قوم لفلسفته الدينية. وآخرون لفلسفته النفسية والخلقية
والاجتماعية . وآخرون لفلسفته الطبيعية وهلم جرًّا . . ثم يجب أن يفرغ
علماء النحو واللغة لعلم أبى العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما . وعلى هذه
لقاعدة يستطيع كل هؤلاء الباحثين أن يخلصوا من درس أبى العلاء إلى
تائج ، إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك فهى مرضية مشجعة على
لأمل .

هذه هى وجهة نظر طه حسين فى دراسة شخصية أبى العلاء وأدبه
فلسفته .

وقد فتح هو الباب — كما قدمنا — على مصراعيه بكتابه « ذكرى
ى العلاء » ، و « تجديد ذكرى أبى العلاء » . وبهذه الدراسات الجامعية
تى كتبها تلامذته على ضوء توجيهه . وهى دراسات نفيسة . . ولم يكتف
و بما كتبه . وبما وجه إليه تلامذته . بل أطرفنا بكتاب ثالث عنوانه
مع أبى العلاء فى سجنه » . وهو كتاب يتناول نواحى نفيسة دقيقة من
ياة أبى العلاء . كتب هذا الكتاب فى إحدى سفراته إلى باريس . وهو
ملات فى تلك الحياة المنكمشة التى عاشها الشاعر الفيلسوف . . وليس
طه حسين أديب يستطيع أن يتحسّس تلك الحياة وينفذ إلى أغوارها .
د أضاء لنا ما أنتجته تلك الحياة من أدب وفلسفة .

فتشاؤم المعرى . عند طه حسين . مصدره العجز عن تذوق الحياة
قصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم
ذة . وفى أكثر من فصل يعرض طه حسين إلى معنى التشاؤم والتفاؤل ،
سم صوراً من نفسيته ونفسية أبى العلاء — نفسية طه حسين المتفائلة
سية أبى العلاء المتشائمة . . ثم يصور لنا هذه الفروق بين المكفوفين
بصرين فى تلمس جمال الحياة ومباهج الطبيعة . ولا أريد أن ألخص هذه
صول التى لا تلخص ، بل ألمّح إلى تلك الصفحات المشرقة التى أملاها

عن فلسفة أبى العلاء القاتمة التى كتبها فى سجنه ، هذا السجن الذى ارتضاه لنفسه ، فلبث فيه خمسين عاماً ينثر آراءه فى مصير النفس ومتاعب الحياة ، فى السعادة والشقاء ، فى اللذة والألم ، فى الموت والبعث ، فى الشك واليقين ، فى الديانات والنبوات ، فى الإيمان بالعقل الذى قاده إلى شتى المعضلات الفلسفية التى زادته حيرة وشكاً ، ولم تهده إلى نتيجة يطمئن إليها ضميره .

لقد بدا طه حسين فى كتابه هذا ناقداً فيلسوفاً أكثر منه أديباً مؤرخاً ، وإذ يعرض إلى نواحى فلسفته التشاؤمية بأسلوبه الرائع الذى يبسط مشكلات تلك الفلسفة المعقدة يثير فى نفس القارئ أسئلة خطيرة عن نواح مختلفة من أدبه وفلسفته .

هل أراد المعرى فى « الفصول والغايات » معارضة القرآن ؟ ما وجه التشابه بين « اللزوميات » و « الفصول والغايات » ؟ ما رأى المعرى فى البعث ؟ أين تلتقى وأين تختلف آراء المعرى مع آراء الأبيقوريين ؟ لماذا آثر أبو العلاء الرمز واصطنع الألغاز فى أدبه ؟ ما هى الناحية الإنسانية فى شخصية أبى العلاء ؟ كيف بدأت حياته الفلسفية ؟

يجيبنا الدكتور طه عن هذه الأسئلة بفصول بارعة ، على ضوء من شتى المذاهب الفلسفية وشتى المذاهب الأدبية ، ليصل إلى الحقائق الناصعة التى تكشف لنا الكثير مما غمض من حياة أبى العلاء . .

* * *

وما دمنا فى صدد كتاب الدكتور طه عن أبى العلاء فيجب أن نشير إلى كتيب صدر له فى سلسلة « اقرأ » عنوانه « صوت أبى العلاء » ، وهو نثر بعض قصائد أبى العلاء بأسلوبه الشعرى الأخاذ ، فمهد للكثيرين الذين يصعب عليهم فهم اللزوميات فهماً صحيحاً أن يدركوا غايات الفيلسوف الشاعر ومراميه ، وهذه الصور المنثورة التى تعرض لحقيقة الكو

وفلسفة الحياة كثيرة الشبه برباعيات الخيام مع مراعاة الاختلاف بين مزاجى الشاعرين !

٢٢

وتتابع إنتاج الدكتور طه ، وتتابعت كتبه . وبعض هذه الكتب حصول كانت قد نشرت فى الصحف والمجلات كما قلت ، وبعضها مما لفه . وكان محصوله من القصص غير قليل فصدر له كتاب « لحظات » ، « صوت باريس » وكل كتاب فى جزأين ، ويضمان هذه القصص التى لخصت من عيون الأدب الفرنسى المعاصر : عن پول چيرالدى ، وشارل ترى ، وألفريد كايو ، وهنريك بيك وغيرهم من الكتاب المعاصرين الذين ذوا المسرح الفرنسى والأدب الفرنسى برواياتهم التمثيلية وقصصهم الطريفة تى تصور حياة فرنسا فى مختلف مظاهرها تصويراً صادقاً ، تمازجه هذه سخرية التى امتاز بها الأدب الفرنسى ، بل تمازجه هذه « الواقعية » تى تمثل على المسرح ما يجرى فى محيط العائلة وفى صميم المجتمع .

وطريقة الدكتور فى تلخيص القصص الفرنسية سبق أن أشرنا إليها لا نعود إليها . فهو يعرض إلى فن الكاتب ومرماه الفلسفى واتجاهه الاجتماعى روح البيئة وآراء النقاد فيه حتى إذا أدناك من القصة ومن الكاتب عمد ، إبراز فصولها فى إيجاز ، غير مخلّ ، فلا يضيع على القارئ إلا هذه ستطرادات التى يتوسع بها الكاتب فى وصفه مما لا طائل تحته . والكتابان جموع قصصهما يضمان نماذج طريفة من الروح الباريسية والحياة اريسية بشتى صورها ، وهى لون جميل من الأدب الفرنسى عاصر .

هذا ، وقد أصدر الدكتور طه ، فى هذه الفترة ، روايتين مصريتين ان لهما أثرهما فى الأوساط الأدبية ، وهما « شجرة البؤس » و « دعاء

الكروان » . وقد برهن الدكتور طه ، فى هاتين القصتين ، على أنه قصصى من الطراز الأول . حرص أن يصور هذه الصور البارزة من ملامح المجتمع المصرى ، وبالأخص الطبقات الفقيرة التى تعيش فى جو مظلم من البؤس والضنك والشقاء . والتى تحرص كل الحرص على عاداتها وأخلاقها وشرفها وعرض نسائها.

و « دعاء الكروان » من القصص الإنسانية التى كتبت بأسلوب نفسانى عميق . فقد وصف الدكتور طه فى هذه القصة بشاعة الجريمة ولذة الانتقام . ضعف الرجل وقوة المرأة . العدل الإلهى والظلم الإنسانى . نزوات البشر وأحكام القدر . مناعة الخلق فى الريف وميوعته فى المدن . وقد بلغ الغاية فى تصوير هذه المأساة الإنسانية بأسلوب عاطفى يهز الأفئدة ويستدر الدموع من المآقى.

وكتابه « المعذبون فى الأرض » تصوير دقيق لهذه الأسر الكادحة التى تلاقى ألوان الشقاء وأصناف البؤس حتى اتهم الدكتور طه بميله إلى اليسارية بعد صدور كتابه هذا الذى ضاق به جو مصر . فنشره فى لبنان . وأهداه إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، والذين يؤرقهم الخوف من العدل ، وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون والذين لا يجدون ما ينفقون .

لقد كان طه حسين فى هذه الفترة فى ثورة نفسية هائجة ، وكان هو أحد المعذبين . لقد تآمرت عليه الدولة ، وتنكر له حتى أخلص أصدقائه . فاعتصم فى صومعته — فى بيته ومكتبته — يملى من ذلك العالم النفسيح آراءه الفلسفية الحرة فى الحياة والمجتمع وفى طباع الناس وأخلاق البشر . وقد كان من وراء ذلك كتابه « جنة الشوك » . وهو لون جديد من ألوان الأدب لم يطرقه الأدباء المعاصرون ، يرمى إلى تصوير فترات عصر الانتقال التى تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأى واختلاط الأمر وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة مما يدفع المصلحين إلى النقد والعناية بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج والدلالة على الخير ليقصد

إليه ، وعلى الشر لتنكّب سبيله . ويخيل لمن يقرأ بعض فقرات هذا الكتاب أن طه حسين قد سلك مسلك صديقه أبي العلاء في تصوير طباع الناس الذين أحسن إليهم فأساءوا إليه . وصارحهم بما ينطوي عليه قلبه من حب ، فخاتلوه وخذلوه وتآمروا عليه . وهو كأطود ينظر إلى ختلهم ومؤامراتهم وكذبهم ونفاقهم بالهزء والسخرية . ولا يعتمد إلا على نفسه وعلى سجيته وهذا القلم الذي يخفق من ألمه كإنسان . ومن ألم الإنسانية التي يحس إحساسها ويشعر شعورها .

وما زال في الطريق الوعرة الشائكة . إلى أن انجلت عنه تلك الظلمات . وأخذ مكانه من القمة . فلم ينتقم حيث كان يستطيع الانتقام ، ولم يمس أحداً من أصدقائه بأذى . بل عطف عليهم . وأدناهم منه ، وكأنه أراد أن يعطيهم درساً في الأخلاق . وهذه القطعة التي نقتبسها من كتاب « جنة الشوك » تمثل لنا نفسيته الجميلة أصدق تمثيل :

« قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :

إني أقرأ في بعض ما يقول نيتشه : أن كثيراً من الناس لا ينبغي أن تصافحهم بيد رقيقة . وإنما تبسط إليهم يداً كبرثن الأسد . وأريد أن تكون فيها مخالب حادة . . فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :

هم أكثر الذين تلقاهم مصبحاً وممسياً . فيلحظونك بعيون ملؤها الود ، ويبسمون لك من ثغور مشرقة رقيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب . وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك . ولا سيما حين تحدث الأحداث بتلم الخطوب .

ولكن نيتشه يا بني صاحب قسوة وسطوة وعنف . فاقرأ إن شئت ول الله عز وجل : (ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) » .

وكم كان طه حسين قوي العزم حين صبر بإباء وشمم على غدر

أصدقائه الذين كادوا له ، فغفر لهم عقوقهم ، ولم يمسّ واحداً منهم بأذى .

٢٣

عُرف الدكتور طه بدراساته الأدبية الممتعة ، وإنتاجه الفنى الرائع ، وبما أنشأه من كتب فى شتى فنون الأدب ؛ وعرف إلى جانب ذلك كإمام من أئمة النقد . وقد حمل معوله يهدم هذه التقاليد البالية ، ولا سيما حين ثارت الخصومة بين القدماء والمحدثين ، فكانت صيحاته التجديدية ثورة لاهبة على الرجعية . . وكان لا يهدم إلا وقد رسم خطط البناء للجيل الصاعد . . وهكذا استطاع هذا الأديب المجدد أن يخلق ثورة فى حياتنا العقلية ، وأن يسير بالأمة هذا السير الحثيث الذى يدنيها من الأمم الحية اليقظة التى تنشد الكمال فى كل شىء . . لقد اصطنع النقد لا للهدم فحسب بل للبناء — اصطنعه كأداة لبعث الحيوية . وقد تناول بالنقد فى عدة مناسبات الحياة الأدبية التى خلت ، وكانت له جولات وصولات مع أئمة الأدب القديم وشيوخ الرجعية ؛ ومع المجددين وكبار الشعراء ، ثم صرفته شؤون الجامعة والإنتاج الأدبى الخالص وشتى صروف الحياة عن المصاولة . . وشعر أن الحياة الأدبية تغط فى نوم عميق . أو أن أدباءنا وشعراءنا ينتجون وهم نيام ، وقد أمنوا النقد أو استيأسوا منه ؛ لذلك نراهم ينتجون فى فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، إذ اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضا أو يبين عن السخط . والقراء يقرءون وهم ناءون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين فى قراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لهذا الأديب أو ذاك ؛ لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأى من الآراء ، أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإنما دعتهم العادة إلى القراءة .

هذا النوم العميق هو الذى حفزه أن يوقظ النوام ، وأن يبعث الحياة الأدبية من رقدتها ؛ فعرض إلى غير واحد من الأدباء والشعراء . . عرض إلى كتبهم فنقد أدبهم وشعرهم ، داعبهم ومازحهم . سخر وهزأ ، وأظهر مواطن الضعف والقوة فى أدبهم وطباعهم . وقد حاول أن يكون فى نقده قاسياً ، ولكنه لم يكد يعرض إلى كتب أصدقائه حتى كانت مقالاته رسائل فى الحب والعطف والمداعبة والتنبيه إلى بعض الهفوات أكثر منها إلى هذا النقد الصارم القاسى الذى ارتقبه الأدباء والقراء من عميد الأدب ، ولا سيما أنه قد وعد أن يقبل على الأدباء لا مسالماً ولا موادعاً بل مخاصماً وملحًّا فى الخصام . . فجاءت خصومته أو نقده ثورة من رهافة الحس ، وباقات من أضاميم الزهر التى كشفت عن المحاسن وأغضت بعض الإغضاء عن المساوئ . . ولم يكمل ما بدأ به . واقتصرت هذه المقالات على نقده كتاب « فيض الخاطر » لأحمد أمين ، و « رجعة أبى العلاء » للعقاد ، و « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ، ومناقشة هادئة لآراء المازنى فى الأدب ، وعرض إلى كتب وقصص بالفرنسية دبجتها يراعة بعض المصريات والمتمصرات ، وهذا ما اشتمل عليه كتابه « فصول فى الأدب والنقد » . . ضم إليها دراسات عن أندريه جيد ، وجول رومان ، وبول ڤاليرى .

وقد كان القراء يرقبون من عميد الأدب العربى أن يستمر فى كتابة هذه الفصول ، وأن يعرض لنقد عشرات الكتب : كتب الناشئين الموهوبين والشيوخ الذين آذنت شمس شهرتهم بالغروب ؛ ولكنه اكتفى بهذه الفصول ، أو أن ظروف الحياة — وما أقساها ! — قد صرفته عن متابعة هذه الرسائل ، وهى على قلتها تعد من المراجع الحسنة للون من مصاولات النقد فى الأدب المصرى المعاصر .

٢٤

لا يشكو الدكتور طه حسين شيئاً بقدر ما يشكو من مواضعات الحياة فى مصر ؛ ومذ استفاضت شهرته كثرت أعباؤه . وكثرت مضايقات الناس له ؛ فهو يشكو ثقل أولئك الذين يزعجونه كل يوم بمناسبة وبغير مناسبة ؛ وينفر سمعه من صوت التليفون الذى لا تهدأ صلصلته منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ! . ثم من هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليه صبًّا بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيذان بها وانتظار لها حتى سلبته راحته ؛ وسلبته هذه اللحظات القصار يخلو بها إلى نفسه ويهدأ من أعباء الحياة ، حتى لم يعد ملكاً لنفسه ؛ ولا ملكاً لأهله ولا لعمله ، بل أصبح ملكاً لأولئك المحبين الذين أزعجوه وأرهقوه وسلبوه راحته !

وتمتد هذه المضايقات إلى مخبرى الصحف الذين يريدون رأيه فى الأحداث التى تواجه مصر ، وإلى أصحاب الصحف والمجلات الذين يطلبون إليه باستمرار أن يكتب فى كل موضوع ، حتى فى المواضيع التى لا صلة له بها . يطلبون إليه أن يكتب فى شؤون العلم مثلا . . فإذا اعتذر لأصحاب العلم بأنه صاحب أدب لم يقبلوا . وألحفوا بالطلب . وتوسلوا ليزيدوه إرهاقاً وإزعاجاً ؛ وإلى هذا أشار فى إحدى رسائله :

« والناس لا يعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رفقاً ولا ليناً ولا مباشرة . . وأكاد أملى : ولا حياء ! . . فهم يطلبون ويطلبون ، ويلحون ويلحون ، فإذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب ، وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته ردًّا حتى يبغضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ، ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة ! »

وهذا الذى كان يدفعه إلى الهرب من مصر إلى أوربا حين يقبل فصل الصيف : لا يخلو فى مرتفعات فرنسا إلى نفسه ، وينسى ثقل هذه المضايقات . . أى كان يقسر نفسه على استعمال إجازته السنوية ليرتاح . ولكن هل كانت تتهيأ له الراحة والاستجمام ؟

لقد رأينا فى الفصول السابقة أنه ما سافر فى إجازة إلا رجع بكتاب جديد . وأكثر الكتب التى ألفها هى وحى رحلاته . فقد كتب أكثر من كتاب فى ذرى الألب وفى جبال لبنان . .

فالإجازة عنده هى الخروج من حياة إلى حياة . والتخفف من أثقال لاحتمال أثقال أخرى . والاستعفاء من بعض الواجبات لالتزام واجبات أخرى . وقد أشار إلى هذه الناحية بقوله :

« . . ونحن إذن لا نعفى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل فى عمل آخر . . وإنى لأشهد . لقد بدأت إجازتى هذا العام (١٩٤٧) كما بدأتها فيما مضى من الأعوام . فلم أشعر إلا بأنى انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن التزام إلى التزام » .

وهكذا . وبالرغم من هذه الأثقال والمضايقات . لم ينقطع إنتاجه الأدبى . . وقد ظل . ولا يزال . على صلة وثيقة بقرائه فى الأقطار العربية كافة ، ينتقل بهم من أفق إلى أفق . من اليونان القديمة إلى مصر الحديثة . من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث . وله فى كل حقبة من هذه الحقب وقفات طويلة . يتحدث فيها عن شتى أنماط الفكر وتيارات الأدب ، فيطيل الحديث . ويرسل أضواءه المشعة على تلك الظلمات . فينير جوانبها . . وما من ناحية من نواحى التاريخ . أو ظاهرة من ظواهر الأدب التى عرض لها إلا وفاها بحثاً ودرساً . وخرج بآراء طريفة واتجاهات جديدة . وآخر ما قدمه للقارئ العربى ، بعد أن ترجم له طرائف من فولتير وأندريه جيد ، كتابه القيم « الفتنة الكبرى أو تاريخ عثمان بن عفان » . ويعرف

القراء أن الفتن بين أحزاب المسلمين قد وقعت منذ ولى الخلافة سيدنا عثمان . . وقد انشطرت الآراء حوله : تحزب قوم له ، وتحزب أناس ضده ، واستمر الخلاف آماداً طويلة . ولا يزال فى بعض البيئات الإسلامية إلى يومنا هذا . . وقد أحب طه حسين أن يدرس هذه الناحية بروح المؤلف المنصف الذى برئ قلبه من كل مؤثر . . فكانت نظرته إلى الأحداث نظرة خالصة مجردة ، لا تصدر عن عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين . . وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريداً كاملا من النزعات والعواطف والأهواء ، مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها . بهذه النظرة درس التيارات العاصفة التى أثارت رياح هذه الفتنة . وقد عرض فى بحثه إلى بدء ظهور الإسلام وانتشار رسالته . وإلى الشخصيات الفذة التى لعبت دورها فى تلك الفترة العصيبة ، وإلى الآراء والاتجاهات والمطامع . ثم عرض إلى عوامل الخلاف والنزعات الاقتصادية . وهذا الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، فكان مؤرخاً من الطراز الأول . وكانت نظرته التاريخية وتفسيره للأحداث يختلفان كل الاختلاف عن نظرة من سبقه من المؤرخين الذين عرضوا لأحداث التاريخ الإسلامى . وقد أخذ الكثيرون يتساءلون بعد تلاوة هذا الكتاب لماذا لا ينصرف طه حسين إلى تدوين التاريخ الإسلامى بهذه الروح الكبيرة البعيدة عن الأهواء والنزعات ، بهذه النزعة الفلسفية الواسعة الآفاق التى تنظر إلى أحداث التاريخ نظرة موضوعية كما تؤرخ الأحداث العالمية الكبرى . ونرجو أن يواتيه الزمن لتحقيق هذه الرغبات ، ونرجو أن يكون قد استطاع إنجاز الجزء الثانى من هذا الكتاب فى إجازة هذا العام .

٢٥

فى أواخر عام ١٩٤٨ عقد فى بيروت المؤتمر الثالث للأونسكو ، وقد حضره ما يقرب من خمسمائة مفكر من أبرز مفكرى العالم . يمثلون أربعاً وأربعين دولة ، بينهم الوزير الخطير . والجامعى الكبير ، والمؤلف الشهير ، وأصحاب النظريات فى العلم والأدب . عدا عشرات الأساتذة والصحفيين. وقد شاهد الشرق والغرب فى لبنان مهرجاناً عظيماً من مهرجانات الفكر ، ونظمت هيئة الأونسكو ، بالاشتراك مع الحكومة اللبنانية . سلسلة من المحاضرات العامة التى يلقيها بهذه المناسبة أكابر مفكرى العالم . كان بينهم المسيو بيدو رئيس وزراء فرنسا سابقاً . والمستر هكسلى الأديب العالمى ، وبوده ، وطه حسين ، وغيرهم من أعلام الفكر فى الشرق والغرب ، وكانت محاضرة طه حسين عن « أثر الحضارة العربية فى الحضارة الغربية » ، فوقف قرابة الساعتين يتكلم بفرنسية عالية مما أثار دهشة وإعجاب مندوبى أمم العالم ، وقد خرجوا جميعهم وهم مؤمنون بعبقرية هذا الرجل ، وأن الشرق سيعود إلى سابق مكانته ما دام أفراده أمثال طه حسين .

* * *

كانت مصر ، أو كانت الهيئات الرسمية فى مصر . قد تنكرت لهذا الرجل فى الفترة التى كانت شهرته فيها قد استفاضت فى البيئات الفكرية فى الغرب ، برغم مكانته فى العالم العربى . وكان خلال هذه الفترة يطوف أوربا ، وقد بدأت جامعات الغرب تستدعيه ليحاضر طلابها . وقد لقى أكبر حظوة وأجمل تكريم حتى كاد ينوى الإقامة فى الغرب تحدياً لعقوق بعض الهيئات الرسمية التى أخذت تضايقه حتى فى رزقه ! . . فلما اختير فى أواخر سنة ١٩٤٩ وزيراً للمعارف ، كان لهذا الاختيار أثره العظيم لدى جميع المفكرين الأحرار ورجالات الأدب ، الذين يذكرون لهذا الإنسان

العظيم جهوده الفذة فى سبيل حرية الفكر . وفى سبيل تطور العقلية العربية .

وتسلم عمله الرسمى دون ضجيج . وهكذا عاد المعلم الحكيم إلى البيئة التى نشأ فى أجوائها . ليتابع رسالته . وقد استطاع فى فترة قصيرة أن يحدث تغييراً بليغاً فى الأسس والمناهج . وأن يرسم خططاً جديدة لانقلاب خطير فى العقلية المصرية . وقد سار فى طريقه محطماً القيود والسدود . مقتلعاً من طريقه الأعشاب والأشواك لتحقيق رسالته . ورسالته التعليمية تهدف قبل كل شىء إلى تحقيق الحرية لأبناء وطنه . فهو يصرخ من الأعماق هذه الصرخة المدوية فى آذان الذين يلتمسون لوطنهم الحرية فيقول لهم : يجب عليكم . قبل كل شىء . أن تنقلوه من الجهل . وأن تعلموه واجبه أولا . وحقه بعد ذلك . ثم يصرخ فى آذان أولئك الذين يلتمسون المجد لوطنهم فيقول لهم : عليكم أن تفتحوا لأبنائه طريق المجد . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم . ثم يختم هذه الصيحة فيخاطب أولئك الذين يلتمسون لوطنهم الكرامة ويأبون أن يكون وطنهم مستذلا لوطن آخر . ويطالبون بأن تعرف الدنيا مجده القديم وعزته الحاضرة . وأمله فى مستقبل سعيد يلائم ماضيه وحاضره — يخاطب كل هؤلاء بقوله : عليكم أن تمكنوا هذا الوطن من تحقيق هذه الآمال التعليمية واستنقاذه من الجهل . فلا مجد والجهل مخيّم ولا حرية والجهل مستأثر بالقلوب .

ولا يزال الدكتور طه . إلى كتابة هذه السطور [1] . يعمل فى الوزارة بصمت . وقد أثارت أعماله الخطيرة إعجاب أحد خصوم حزبه السياسيين . والسياسة الحزبية فى الشرق تقلب النور ظلاماً . والخير شراً . والهدى ضلالا . فرأيناه — وهو وزير سابق — يشيد بعمل زميله الجبار فى وزارة المعارف ويطلب بروح طيبة « تأميم » أوقات هذا الرجل للإفادة من مواهبه الفذة . .

---

(١) سنة ١٩٥١ .

وقد كانت سنة ١٩٥٠ هى السنة التى احتفل فيها بعيد الجامعة الفضى . . والدكتور طه أول ثمرة من ثمراتها . وقد أصبح بعد هذه السنوات الخمس والعشرين . وبعد أن أصبح وزيراً للمعارف — أصبح الأب الروحى لهذه الغرسة الطيبة . وقد أقيمت حفلات فخمة لهذه المناسبة العلمية دعى إليها أكابر المفكرين وأكثر جامعات العالم . وكان الاحتفال مهرجاناً كبيراً للعلم والمعرفة .

وكانت الدعوات قد أخذت تنهال على « مارتن لوثر » مصر . كما تسميه الدوائر العلمية فى الجامعات البريطانية . « وريتان » مصر الضرير. كما تلقبه الصحافة الفرنسية . كانت الدعوات تنهال عليه من الجامعات الكبرى لتمنحه الدكتوراه الفخرية تقديراً لأدبه وعلمه — من ليون ومونبلييه ومدريد وروما وأكسفورد وأثينا — فلبى طلبها . واحتفت به حفاوة بالغة . وألقى عدة محاضرات كان لها وقعها العظيم فى الأندية العالمية . وكان فى أجوبته عن كلمات الخطباء الذين أشادوا بعظمته كأديب عالمى وجامعى حرّ . ن هذا التقدير — والتواضع بعض سجاياه — ليس لشخصه بل لمصر . هذا منتهى الإفراط فى الوطنية النبيلة التى عمر بها قلب طه حسين .

إنه اليوم فى القمة .

وما فتئ هذا المفكر الحر يعمل لمصر وللشرق باندفاع وإخلاص .

* * *

إن مجال الكلام عن طه حسين واسع جداً . فكل ناحية من نواحى ياته تستغرق كتاباً مستقلا . وما أردنا من هذا الكتيب إلا أن نسجل ات من نواحى هذه الحياة الوثيقة الصلة بحياتنا الفكرية . فقد كان رمزاً رة التحرير الفكرى . وقرن اسمه بالكثير من الأحداث الأدبية . وقاد تركات الفكرية بكثير من الجرأة والإخلاص والذكاء .

وبالرغم من أعبائه الكبرى لا يزال المفكرون . والأدباء بصورة خاصة

يرقبون منه أن يقوم بأعمال أدبية ضخمة . وما أتمناه شخصياً أن تتاح له الظروف المواتية لتدوين « تاريخ الأدب العربى فى كافة عصوره » بالنزعة التحررية التى عرف بها وبالانطلاق الذى وضع أسسه . . فبالرغم من الكتب الكثيرة التى صدرت عن تاريخنا الأدبى لا يزال هذا التاريخ الضخم غير مكتوب . وما كتب عنه قد كتب بروح متزمتة وتفكير ضيق وأسلوب رجعى سقيم . . ولن يستطيع أحد أن يملأ هذا الفراغ غير عميد الأدب . وهذه أمنية غالية تنطوى عليها صدور الآلاف من قرائه فى الشرق والغرب .

فهل يحقق الوزير الأديب هذه الأمنية الغالية ؟ !

هذا ما نأمله وما نرجوه[1] . .

---

(١) ظهر هذا الجزء فى سلسلة « اقرأ » ، فى العدد ١١٢ . وقد كـ
مؤلفه فى أغسطس عام ١٩٥١ .

الجزء الثانى [1]

(١) ظهر هذا الجزء فى سلسلة « اقرأ » ، فى العدد ٣٠١ ، الصادر فى
اير ١٩٦٨ .

١

ألممت فى الجزء السابق إلماماً موجزاً بمراحل حياة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، وما رافق هذه الحياة من أحداث تتصل اتصالا وثيقاً بحياتنا العقلية .

وقد مرّت سنوات تزيد على العشر . شهد خلالها العالم العربى أحداثاً فذة فى السياسة . وفى التفكير ، وفى نمط الحياة ، وفى صلاته مع الغرب والشرق ، وفى مقاييس الأدب ، وفى قيم الأخلاق ، وفى الاتجاه الثورى التحررى . .

وقد كان لطه حسين آراؤه فى الكثير من هذه الأحداث كمفكر أديب وصاحب رسالة . .

وإذ فاتنى تدوين الكثير من مراحل هذه الحياة التى تنبض بمختلف مظاهر التى ترمز إلى حيوية المفكر العربى فى سيره وتطوره وعدم إخلاده إلى الركون ، فان يفوتنى تدوين بعض هذه الملامح والصور هنا . وهى صور وكلمات تناثرت فى الصحف والمجلات . القديمة منها والحديثة ، أيت من الأمانة للتاريخ إثباتها فى هذه العجالة ، فقد تفيد الكثيرين ن سيكتبون عن هذا الإنسان العبقرى الذى يدين له الجيل العربى بالكثير ن آرائه الحرة ، ودراساته المنهجية فى الأدب العربى ، وآداب الأمم الحية ـ لك الدراسات التى قلبت مناهجنا الأدبية رأساً على عقب . ووجّهت نياتنا العقلية وجهة صحيحة . .

٢

قبل أن أبدأ بنشر هذه الجذاذات . يسرنى أن أشرك القارئ معى بنشر سالة الخاصة التى وصلت إلىّ منه عقب صدور الجزء السابق :

قال حفظه الله :

« صديقى العزيز :

كانت مفاجأة كريمة هذه التى بلغتنى بها فى أول الشهر الماضى . فل
أكن أعرف أنك تحسن إضمار المكر وإتقانه حتى فاجأتنى سلسلة اق
بهذه الرسالة الكريمة التى كتبتها عنى وأهديتها إلى زوجى .

وقد عرفتك دائمًا أخًا كريمًا وصديقًا حميمًا وخليلاً لا يحرص ع
شىء كما يحرص على الوفاء . نشكر الله لك ما أسديت إلى زوجى وإلىّ م
خير . وما أهديت إلينا من معروف . وغفر الله لك ما قدمت إلىّ م
ثناء لا أشرى أنى له أهل . ولكنك فاضل متفضل . وهيهات أن ينهض
شكرى بحقك .

فتقبل معذرتى وأصدق تحياتى وأعمق مودتى .

٥ يونيو ١٩٥٢ طه حسين »

وما كان الجزء السابق — علم الله — إلا الوفاء لرسالة الأدب
ما كان لى فيها إلا تسجيل نبضات من حياة أديب عظيم . لع
بجرأته وإيمانه وعمق ثقافته أكبر دور فى تاريخنا الفكرى الحديث .

وما أعذب هذا المكر ، سيدى العميد ، حين يكون طريقه الو
لقدسية الفكر الحر وقدسية الحرف والكلمة !

٢

عُرف الدكتور طه حسين أنه كاتب حر . وهو ذو نزعة إنس
صارخة ، يريد الخير والحياة لأبناء وطنه . وهو فى مقالاته وأحا
يدعو إلى تحرير المصرى من الجهل والفقر والمرض . وفى سبيل ذلك أ
يكتب قصص الكادحين وقصص النفوس المعذبة . وقد فُسِّرت
النزعة — ولا سيما عند المترفين الذين ينعمون بالدمقس والحرير ويعي
مرفَّهين فى الأبنهاء والقصور — فُسِّرت تفسيرات ملتوية . ولهذا تع

مصر فى وجه طه حسين . وأصبح من الكتاب المغضوب عليهم . ولولا خصيته الفذة . ومكانته السامقة فى مصر . وفى غير مصر . لكان ممن ضهم الجوع بنابه . ولتعرّض للأحكام التى تودى به إلى السجن . ولكن خصيته القوية الكبيرة هى التى دفعت عنه هذا البلاء . .

وحين منعت الحكومة طبع كتبه فى مصر طبعت فى لبنان .

وبالرغم من شتى صنوف الأذى الذى واجهه ظلّ عند عقيدته . فلم كتب مقالا ولم يلق محاضرة إلا عبر فيها أصدق تعبير عن الشقاء الذى يط بأبناء وطنه . وعن الوسائل التى ترفع عنهم هذا الشقاء .

صورة لن أنساها أبداً : فحين أهبط القاهرة يكون الدكتور طه فى يعة من أسعى إلى زيارتهم . . وفى إحدى سفراتى . وبعد يوم من وصولى . ات عنه . لأحدّد موعد الزيارة . فعلمت أنه خرج لتوّه من المستشفى د إجراء عملية الزائدة . كان ذلك سنة ١٩٣٢ إذا لم تخنى الذاكرة . رع إلى منزله فى هليوبوليس لأعوده . ولا أكاد أطرق الباب حتى تستقبلنى جه باطف مثوب بنزق مبطّن . وهى إذ تعلم مدى مودتى سمحت لى ريارة بعد تردد . ثم همست فى أذنى بألاّ أطيل الزيارة . وحرصى على نته — علم الله — لا يقل عن حرصها . .

وأدخل عليه فأحييه . وأستفسر عن صحته . فيستقبلنى أحر استقبال ، كرنى على هذه الزيارة . ويسأل عن أصدقائه فى سورية . وأقوم لأودعه أن اطمأننت على صحته . . فيستبقينى . ولا يكاد يدور الحديث عن ب . وعن الخصومة القائمة بين القدماء والمحدثين حتى يتطرق إلى وع شائك : إلى الفقه الرومانى والفقه الإسلامى ؛ فأخذ يفيض فى يث عنه . فكان موقفى وهو يتحدث . وهو ممدّد فى السرير . من ج المواقف : حرصى الشديد على صحته وعدم إرهاقه بالكلام ، متاعى غير المحدود بعمق الحديث وجدته وطلاوته . .

وتمر الثوانى والدقائق . مسرعة أو بطيئة لا أعلم . وهمسات ربة البيت

بألا أطيل الزيارة تقرع فى أذنى ، وتثير كل خالجة من خوالج ذاتى . كان العرق يتصبب منى . وأنا مأخوذ بنشوة لاحدود لها : أأشير عليه بالتوقف وكيف أشير ؟ وهل فى وسعى أن أقف السيل المتدفق ؟

يالتلك اللحظات التى عشتها بين متعة وخجل فى زيارة طارئة دامت قرابة العشرين دقيقة لم ينقطع خلالها حديثه العذب . وأقسم لو أنى دونت ما فاض به قلبه لخرجت بأتم محاضرة فى موضوع من أعوص الموضوعات وحمدت الله أنه كان فى تلك الفترة فى غاية النشاط . وودعته بعد أن تمنيت له الشفاء القريب ، ليستأنف جهاده الفكرى . واعتذرت للسيد بأن الذنب فى طول الزيارة لم يكن ذنبى . فودعنى بامتعاض مزجته بابتسامة باريسية . قلقة . وعادت إليه لتلومه . .

ومَنْ يدرى ؟ . . فربما أغلقت الباب سرا فى ذلك اليوم . فى وجه جميع زائريه من أصدقائه وزملائه وتلاميذه ، وربما حتى فى وجه أقربائه وذويه ! ! . .

٤

فى خلال الفترة التى تسلّم فيها وزارة المعارف . من ١٣ يناير عام ١٩٥٠ حتى ٢١ يناير عام ١٩٥٢ ، استطاع أن يقوم بأعمال فذة فى سبيل نشر التعليم . وأن يحقق المبدأ الذى آمن به ودعا إليه . وهو أن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء . .

وحين ترك الوزارة أوى إلى بيته يعيش حياته العلمية الهادئة . وكان قد بدأ يكتب الجزء الثانى من كتابه « الفتنة الكبرى : على وبنوه » . فشغل نفسه بتلك الأحداث الجسام التى مرّت بها الأمم الإسلامية . عن هذا اللغو الذى كان يسود مجتمعات القاهرة .

ومن يدرى ؟ فربما كانت تتراءى له — وهو يتابع صور الأحداث

صور من النفس البشرية فى صراعها الدامى، وإذا هى هى لم تتغير . وإن اختلفت فى منازعها ومقاصدها .

ويمضى فى حياته الهادئة . يغوص فى بطون الكتب والتاريخ . ثم يستخلص هذه المذاهب والآراء التى يبسطها لقرائه . حلوة سائغة . بأسلوبه السهل الممتع .

وتمر مصر فى سيرها القلق المضطرب . وقد تآكلتها الهواجس . تنظر إلى غد مشرق . فلا ترى بصيص نور . ولا سيما بعد النكسة الكبرى التى أصابت الأمة العربية فى حرب فلسطين . .

فساد فى الحكم . ووزراء مغلوبون على أمرهم . وملك يحكم أرض الكنانة برعونته وغواياته . وشعب هدّته الأحداث يبحث عن قائد حكيم ينقذ السفينة من الغرق .

وبينا مصر فى غمرتها وقلقها إذا حادث جسيم دوّى فى أقطار الدنيا . هزّ مصر وهزّ العالم العربى . وكان بدء انطلاقة ثورة كبرى .

ذلك الحادث هو ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . التى رسمت لمصر وللجيل العربى القلق خططًا ثورية ومناهج تحررية تختلف كل الاختلاف عن المناهج التى سارت عليها فى العهد البائد . وكادت تودى بها إلى الدمار .

٥

كان لم يمض على الثورة غير شهرين .

وكان مغتبطًا كل الاغتباط بزوال العهد الملكى وما جرّ وراءه من عسف وطغيان وفساد .

وكان يقضى يومه فى بيته الهادى مع كتبه ودراساته .

يستقبل بين فترة وفترة الصفوة المختارة من أصدقائه الأوفياء يتحدثون عن الأيام السود التى مرت بها مصر . ولا يكادون يضيقون بهذه الأحاديث

حتى تجتذبهم شئون الفكر .

ويدور الحديث عن محنة الأدب والركود الذى اعترض الحياة الأدبية فى السنوات الأخيرة . ويستمعون إلى رائد الفكر الحر . فيحصر أسباب الركود فى ثلاث ظواهر :

أولاها : الظروف السياسية وما تأتى به من فرض الرقابة على النشر . وقد استغرقت هذه الرقابة أكثر من خمس عشرة سنة فى أقل من ربع قرن . ورأيه فى هذا الصدد : أن الحرية هى قوام الحياة الأدبية الخصبة . فإذا ذهبت أجدب الأدب وعقم الفكر .

والثانية : مشكلة النشر . فكثير من الشباب يكتبون فلا يجدون قبولا من الناشرين . ولا تشجيعاً من شيوخ الأدب .

والثالثة : ضعف التعليم الأدبى فى مصر . فالأدب يدرس فى المدارس والمعاهد والجامعات على نحو يحزن أكثر مما يسر . وإنتاج الأساتذة ضعيف . والمتخرجون فى أقسام اللغة العربية بالجامعات لا يعرف بعضهم كيف يبحثون فى كتاب الأغانى لأنهم لم يسمعوا بفهرست الأغانى الذى وضعه « جويدى » .

ويكثر الجدل حول هذه الموضوعات وغيرها . ويستمع لأصدقائه فى جو من المناقشة الهادئة التى تتخللها النكتة المرحة التى تأنس بها نفسه .

ويتوافد عليه الزائرون من المشرق والمغرب . علماء وأدباء ومستشرقين ومفكرين . وتلامذة يحملون أطروحاتهم للاستضاءة برأيه . ومع أنه مثقل دائماً بالكثير من أعمال الفكر . وبالتزامات اجتماعية لا محيص له عنها . أو التفلت منها . لا يرد أحداً . فيستقبل ضيوفه برحابة صدر . ويستمع إلى تلامذته بوعى وصبر . ويفخر بهم أنهم سلكوا الطريق السوىّ والمنهج الذى وضع أسسه حتى إذا ما تباينت وجهات النظر وضلت أفهامهم بيّن لهم الصواب . وشرح المآخذ برفق وحنو . فيخرجون وهم جدّ مغتبطين

بهذه اللقاءة التى قلبت الكثير من مفاهيمهم . فيعودون للدرس والبحث على ضوء ما رسمه لهم من توجيهات وإرشادات .

٦

وأمضى صيف هذا العام[١] على غير عادته فى مصر .

كانت الأحداث بعد الثورة قد جعلته يتريث فى السفر إلى الخارج لقضاء فصل الصيف . فلما استقرت الأحداث . واطمأن إلى مصير الثورة حزم أمتعته وقرر السفر . . .

وأمتعته . على الأكثر . بعض المراجع لكتاب يؤلفه . .

وقد أنجز أكثر كتبه فى جبال سويسرا وفرنسا وإيطاليا .

وكان عليه أن ينجز كتاب « الفتنة الكبرى » . فحمل معه طائفة من المراجع . ولا سيما بعض كتب الشيعة . لعلاقة الموضوع بالإمام على رضى الله عنه — حمل معه « الفصول المهمة فى معرفة الأئمة » للشيخ نور الدين على ابن حمد بن الصباغ . و « فرق الشيعة » للنوبختى . و « بحار الأنوار » للعلامة المجلى محمد بن باقر . وبضعة كتب تتصل بالموضوع .

وما كاد يركب متن البحر حتى تلقى دعوة من الأونسكو لحضور مؤتمر الفنانين الدولى الذى تقرر عقده فى البندقية . والذى اختير مقرراً للجنة الأدبية فيه — هذا المؤتمر الذى اشتركت فيه ثلاث وثلاثون دولة .

ولاختياره مقرراً للجنته الأدبية دلالته . فقد رحبت الصحافة الأدبية ورجالات الفكر بهذا الاختيار أجمل ترحيب .

ونشرت الصحيفة الإيطالية الكبيرة « مومنتوسيرا » . بتاريخ ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٢ . مقالا رائعاً عن الدكتور طه حسين بقلم المسيو جيوافرامى

---

(١) عام ١٩٥٢ .

فارى بعنوان : « الكاتب الضرير والأب الروحى لمصر الحديثة : طه حسين باعث الثورة التى كافح من أجلها منذ حداثة سنه » .

ومما جاء فى صلب هذا المقال :

« يعقد الآن مؤتمر الأونسكو دورته بالبندقية ، ومقرر اللجنة الأدبية الكاتب المصرى طه حسين ملهم الثورة الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى مصر الآن . .

« وطه حسين عضو فى الأكاديمية الإيطالية بروما ، وعضو مراسل لأكاديمية الآداب الرفيعة بباريس ، والمهمة الخطيرة التى عهدت إليه فى المؤتمر الدولى المنعقد الآن بالبندقية توطد دعائم صيته الذائع فى أرجاء العالم باعتباره أديباً وفيلسوفاً » .

وبعد أن سرد ملخص تاريخ حياته وكتبه وأسلوبه قال :

« لقد كان من ظلم بعض ظروف الحياة أن زال عن طفل كل أمل فى الاحتفاظ ببصره .

« وطه حسين إذ يذكر بصره المفقود يصيح من أعماق سجنه إلى شعبه بالثورة حتى لا تفقد أبصار بريئة أخرى لأطفال صغار ، وقد استجاب المصريون لصيحته . ولكن طه حسين لم يتجه إلى المصريين وحدهم ، بل تجاوزهم إلى الإنسانية كلها ، وقد أثار إعجاباً بعيد الأثر فى أوربا ، وحماسة شديدة فى أمريكا ، حتى إن الكاتب دونالد روبنسن فى مؤلفه عن أشهر الرجال المائة الذين هم على قيد الحياة — عده بين العشرة الذين لهم أعمق الأثر فى الحضارة العربية » .

٧

وعُقد المؤتمر الذى حضره أكابر رجال الفكر فى العالم . وقام الدكتور طه بالمهمة التى عهدت إليه أحسن قيام ، وألقى خطاباً بالفرنسية عن « دور الأديب فى تكوين الثقافات ومسئوليته أمام المجتمع » كان له أعظم وقع فى نفوس المؤتمرين . .

وفيما يلى تلخيص لأهم النقاط التى تناولها الخطاب والتى كانت مدار بحث المؤتمرين قال :

«إنه فى هذه الحقبة التى تميزت لا بالاضطراب الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى فحسب ، وإنما باضطراب النفوس وقلقها — فى هذه الحقبة التى تفرض على الإنسان أن يتساءل عن مصيره ، يجمل بالمفكر أو الكاتب أن يستخلص من الظروف الحالية ما يلقى ضوءاً على موقفه من نفسه ومن قرائه .

ذلك أن الأخطار المحدقة بالكاتب وبعمله ، فى العصر الذى نعيش فيه ، تزداد صعوبة وتعقيداً . ففى الوقت الذى تتقدم فيه الفنون والصناعات ، وتتعدد فيه وسائل اللهو ، يتضاءل الدور الذى يقوم به الكتاب فى تكوين الثقافات . ومن الكتّاب من يلجأ إلى التبسيط حتى يجتذب قراءه ، وفى هذا تضحية بما يفرضه عليه ضميره من خضوع لقواعد الفن وحدها . بيد أن للقراء أيضاً حقهم على المؤلف ، حقهم فى أن يفهموا ما ينتج من أدب . والكاتب بعد هذا يواجه عقبة ثالثة . هى الدور الذى يقوم به الوسيط ، أى الناشر وماله من حقوق على المؤلف » .

وكان « اجتماع التعاون الفكرى » ، الذى رأسه بول فاليرى ، فى صيف عام ١٩٣٧ ، قد بحث تلك المشاكل ، وانتهى إلى نتيجة متشائمة ، هى التعارض بين العمل الفنى ومقتضيات المعيشة المادية . وهنا نتساءل : هل

يجب على الدولة أن تعين الأدباء إعانة مالية ؟ أليس فى هذا تضحية بحرية الكاتب ؟

ويرجع الدكتور طه حسين إلى العهود الذهبية : إلى قصور روما وبغداد وفرساى . عندما كان الأديب تحت رعاية ملك أو أمير . فأنتج للعالم أدبًا رفيعًا . ولكن كثيراً ما اقترنت هذه الرعاية بالطغيان . فذهبت بكرامة الأديب وحريته . وكم من فنان موهوب لم يقدره صاحب السلطان . فضاعت عليه فرصة الأداء والتعبير ! إن هذا النوع من الرعاية يأخذ الآن طريقه إلى الزوال . ولكن على الأديب أن يبحث عن وسيلة تكفل له معيشته . وتلك مشكلة المهنة الثانية .

ويقول : إنه يجب ألا نخلط بين المهنة والاستعداد . أو بين الوظيفة والإلهام الفنى . فالعمل الأدبى ليس مهنة . والكاتب الحق لا يكتب ليحصل على ربح مادى .

والمشكلة فى نظر الأديب . هى أن نعرف : هل يقوم الكاتب بمهنة خارج عمله الأدبى ؟ وهل تعوق هذه المهنة إنتاجه ؟ ويتساءل : هل يجب أن يقتصر الكاتب على الإنتاج الفنى دون القيام بعمل آخر ؟ ثم يقول : إما أن يكون الكاتب على ثروة . فعليه أن يتفرغ للكتابة . وإما أن يكون قلمه مهنته . فيتعرض لتدخل الدولة أو من يرعاه . وإما أن يكون صاحب مهنة أخرى يرتزق منها . وهو فى هذه الحال محتفظ بكرامته واستقلاله .

وهذه المهنة الثانية مزاياها . فهى تتيح للمؤلف بعض البعد عن عمله الفكرى حتى تنضج ثمراته . وهى تضطره إلى النزول إلى ميدان الحياة . فيكتسب خبرة وعلمًا . وتصبح الحياة فى كل هذا موضوع تفكيره الدائم . وقد يقال إن المهنة الثانية تقصى الفنان عن عمله . غير أن الفنان الحق إن شعر بضرورة التعبير فهو لا بد محقق غرضه مهما كانت الظروف . أو قد يقال إن هذه المهنة تؤثر فى أسلوب الكاتب أو الفنان . ولكن تأثيرها السيئ لا يمكن أن يقارن بفضائلها . والكاتب الصحيح يستغل مهنته ليضفى على

أسلوبه منها ثراء وخصباً . ولقد يقال أيضاً إن هذه المهنة الثانية تستغرق من الأديب وقته وقلبه وعقله . كما تفعل الصحافة والسينما والإذاعة بالمشتغلين بها . ولكن الكاتب الأصيل يستطيع أن يوفق بين هذه الميادين وبين ما يمليه عليه وحيه الأدبي .

ومن ثم فالمشكلة أن يختار الفنان عملاً لا يلهيه عن أداء رسالته . حتى يحتفظ بكرامته دون الإخلال بخدمة فنه .

والمبدأ الخلقي الذي يجب أن يصدر عنه الكاتب . وأن يرتفع بنفسه دون أن ينعزل في برج من عاج . هو أن يتأمل الحياة من حوله وأن يحدد موقفه من الأشياء ومن الناس .

ويخرج الدكتور طه حسين من ذلك إلى الحديث عن دور الكاتب في المجتمع . فيقول إن الأديب في كل العصور يلعب دوراً اجتماعياً . وليس هذا بغريب . فمنذ أن كان المجتمع . قام فيه من غنّى للناس فاستمعوا إليه . ومن كتب لهم فقرءوا له وأثر فيهم . فالأديب إذن عامل في المجتمع . وهو إلى هذا عامل مسئول . فهو يؤثر في الأفراد لأنه ينتج لهم . وهو مسئول عما ينتج . لأن لهذا الإنتاج أثره البعيد في توجيههم الروحي والأدبي . . إن الأديب أو الفنان مرتبط بالمجتمع أراد أم لم يرد . ولكن المشكلة التي يجب أن نضعها هي : أمام من يُسأل الكاتب ؟ وعن أي شيء نسأله ؟

ويرى الدكتور طه حسين أن الأديب مسئول أولا أمام ضميره . فهو لا يستطيع أن يفرض على غيره أن يقرأ أدبه . وهو من باب أولى لا يستطيع أن يخضع هذا الضمير . وهذا معنى حرية الأديب . ولكن المجتمع . في كثير من الأحوال . لا يحترم هذه الحرية . أو لا يتركها على الأقل مطلقة . فالكاتب مسئول أيضاً أمام المجتمع وقوانينه . وإن كانت هذه المسئولية خارجة عنه . ولقد تكون القوانين يسيرة هينة . فيتسع للكاتب أن يؤدي عمله

فى حرية سعيدة ، وقد تكون القوانين ثقيلة الوطأة ، فيبذل الكاتب قصارى جهده لكى يحتفظ ببعض حريته .

ومن ثم فالمشكلة هنا مشكلة خلقية ، كما كانت فيما يتعلق بالمهنة الثانية . والتضامن الحقيقى بين الكاتب والمجتمع يفرض على كل من ناحيته حقوقاً وواجبات . فواجب الأديب أن يكون أميناً حراً ، وواجب المجتمع أن يهيئ للأديب ما يقيه شر الظلم والطغيان .

٨

كانت الثورة المصرية ما تزال طفلا يحبو . أى فى منتصف عامها الأول . وأخذ الأدباء والصحفيون يبحثون أثرها فى تطور الحياة العقلية . وسألت عميد الأدب عن رأيه فى ذلك فقال :

نعم . سيكون للثورة المصرية أثرها فى تطور الحياة العقلية . ليس فى ذلك شك . . ولكن بعد أن يمضى وقت كاف تصل فيه الثورة إلى غاياتها . ويشعر فيه الشعب بحقائق هذه الغايات . وتتأثر بها حياته تأثراً صادقاً .

ولأضرب لذلك مثلا :

فقد قررت الثورة تحديد الملكية . وسيتبع هذا القرار توزيع جديد للأرض الزراعية على المصريين . فيجب أن يتم هذا التوزيع . وأن يحس الفقير لذة الملك . ولذة العمل فى الأرض التى يملكها هو . ويحس ابنه شيئاً من لين الحياة لم يكن مألوفاً من قبل . ويومئذ يشيع فى النفوس شعور جديد يكون له أثره فى أعمال الناس وآمالهم وتفكيرهم .

وقل مثل هذا فيما تشرّعه الثورة للعمال من قوانين جديدة تنظم العلاقة بينهم وبين رأس المال . وتؤمنهم على المستقبل . وتعصمهم من العوادى .

وقل مثل هذا أيضاً فيما ستتخذه الثورة من إجراء لجعل التوسع فى التعليم

ملاءمًا لحاجة الشعب إلى المعرفة .

فالثورة الآن ما زالت فى مهدها . لم تبلغ من العمر ستة أشهر . وستة أشهر أمد قصير جدًّا فى حياة الشعوب . ولكنه على ذلك أمر خصب نرجو أن تظهر آثاره فى أقصر وقت ممكن . .

وحين قايس بين الفترة التى عاشتها مصر قبيل الثورة وما يتطلع إليه الشعب المصرى بعد الثورة قال :

كل شىء يدل أوضح دلالة وأقطعها على أن الثورة المصرية القائمة صورة صادقة لنفس الشعب المصرى . فكل مصرى يعلم أن هذا الشعب يكن راضيًا عن حاله ولا مطمئنًا إليها . وإنما كان يتمنى أن تتغير ، يتعجل فيما بينه وبين نفسه . وفيما بينه وبين نظرائه ، هذا التغير . .

وقال :

ولم تكن آلام الشعب وأحزانه وحدها مصدر هذا السخط وإنما كانت هناك مصادر أخرى تملأ النفوس غيظًا والقلوب حنقًا . وتوشك أن تملأ النفوس والقلوب بذلك الحسد الذى يفسد الأخلاق ، ويأكل الوطنية كما تأكل النار الحطب .

وبعد أن عدّد الكثير من الأمراض الاجتماعية والخلقية التى تفتك بالشعب المصرى قال :

كذلك كانت حال مصر حين تركتها منذ شهر ونصف شهر ، وأكبر ظنى أنها ستظل كذلك وقتًا يقصر أو يطول . ولكن هناك فرقًا خطيراً بين مصر حين تركتها فى أوائل يونيو الماضى وبين مصر فى أواخر يوليو الماضى . إن ذلك السخط لم يبق مقصوراً على الشعب ، وإنما أخذ السلطان يشاركه فيه ، معترفًا بهذه المشاركة ، منذ ثار الجيش وثار معه الشعب كله جميعًا يطالبان بالتغيير ، ثم لا يكتفيان بالمطالبة ، وإنما يسعيان إلى الإصلاح سعيًا حثيثًا . وأخص ما تمتاز به الثورة الأصيلة الخصبة هو أنها تفكر فى أمس لتمحو سيئاته ، وتفكر فى اليوم لتصلح شئونه ،

وتفكر فى غد لتبنى فيه مستقبل الشعب على أساس صالح متين . وتفكير
فى الماضى يهيئ لذا الموعظة والاعتبار . وتفكيرها فى الحاضر يمهد
طريق العمل والإنتاج . وتفكيرها فى الغد هو الذى يحقق لذا الخصب
ويقيم الدليل على أنها لم تكن شيئاً طارئاً أثارته الشهوة ودفع إليه الهوى
ولم تكن سطحية جاءت اليوم لتذهب غداً كما تجيء الأحداث العار
وتذهب . وإنما كانت صدى صادقاً مخلصاً لصيحة صدرت من أعماق
نفس الشعب وضميره . وكانت مظهراً لتفكير عميق عكف عليه ق
أولوحزم وعزم . يعرفون مصادرهم وموارده ويحققون فى نفوسهم مايريدو
لا يأتون شيئاً إلا عن إرادة وروية وأناة . ولا يدعون شيئاً كذلك إلا
إرادةوروية وأناة .

وما أشك فى أن ثورتنا هذه القائمة ثورة أصيلة لايكفيها أن تـ
حكومة ويُنفَى ملك . وإنماسقوط الحكومة ونفى الملك عندها وسيلة لإص
أعمق وأكمل وأشمل من هذه الأحداث الخطيرة الظاهرة التى يتحدث
الناس الآن فى أقطار الأرض . والتى سيتحدث عنها التاريخ فيحسن الحدي

ثورتنا إذن صادقة . تصور طموح الشعب إلى الحياة الكريمة النقـ
وأمل الشعب فى المستقبل الكريم المجيد . وهى من أجل ذلك ثورة إص
شامل عميق بأدق معانى هذه الكلمات . وهناك نواح مختلفة لهذا الإص
الشامل العميق . ناحية الإصلاح السياسى . ولست أعرض لها الآ
وناحية الإصلاح الاجتماعى الذى يمس نظام الشعب فى حياته اليوم
ليجعل فقر الفقير محتملاً . ومرض المريض ممكن العلاج حتى يأتى ا
الذى يعصم فيه الشعب من التعرض للفقر والمرض .

ولست أعرض لهذه الناحية أيضاً لأن غيرى أجدر بالحديث عنها م
وهناك ناحية الإصلاح التعليمى الذى يحقق للشعب شعوره بكرام
ويحقق له شعوره بواجباته . وشعوره بحقوقه بعد ذلك . وما أعرف

ب على الثورة أن تأخذه بالحزم والعزم وبالقوة والجد كشئون التعليم .
كل إصلاح اجتماعى أو سياسى فى شعب جاهل لا قيمة له ولا بقاء .
ا أظن أن مصريًا بعد الثورة يحب أن يصلح غذاء الشعب وصحته دون
ليم كما يصلح أصحاب القطعان غذاء قطعانهم وصحتها .

وإنما المصريون يريدون أن يصلحوا غذاء الشعب وصحته على أنه شعب
ن الناس الذين يعقلون ويشعرون ويعرفون أنفسهم ويريدون أن يعرفها
برهم من الناس . والسبيل إلى ذلك واحدة ليست لها ثانية . هى التعليم .
علم قبل كل شىء . وبعد كل شىء . وفوق كل شىء . التعليم الذى
عل المصرى إنسانًا يحتال للفقر حتى يخرج منه . ويحتال للعلة حتى يبرأ
ها . ويتحدث إلى الناس فيفهمون عنه . ويتحدث إليه الناس فيفهم
نهم . وينهاه المصلحون عن الشر فينتهى . ويدعوه المصلحون إلى الخير
جيب .

ومهما يكن من شىء فقد قامت الثورة الأصيلة فى مصر وأصبح .
جبًا على كل مثقف ذى رأى أن يكون بها حفيًا . ولها مخلصًا ناصحًا فى
ى ما يحسن النصح فيه .

* * *

ولم يشأ أن يتوسع أكثر من ذلك . ولا سيما والثورة . كما قال . ما تزال فى
هد . ولا يبدو أثرها واضحًا فى الحياة الفعلية إلا بعد أن يمر عليها ربع
ن على الأقل حيث تتحقق أهدافها . فتعطى على ضوء المناهج والإنجازات
لك الثمرات .

٩

. . والذين سمعوه فى مؤتمر الفنانين الذى عقد فى البندقية من أدباء
مراء وفنانين وصحفيين ورجال دين — وكلهم من الأعلام الذين يعرفون
كر مقامه وللكلمة سحرها — شعروا وكأنهم لم يأخذوا حظهم من أدب هذا

المفكر العربي الذي أنبتته أرض مصر . فلم يكد يعقد مؤتمر السلام المسيحي في فلورنسة حتى كان طه حسين في طليعة المدعوين إليه .

لبّى الدعوة مرتاحًا . وجاء يستمع ، إذ لا شيء أحبّ إلى نفسه من حضور المؤتمرات التي يتخذها وسيلة ، بعد انقضاضها ، للركون إلى الراحة والاستحمام .

وحضر المؤتمر وسمع المحاضرات وهي في موضوع « السلام » ، وهو موضوع يمت بصلة ، في تلك الفترة ، إلى السياسة أكثر مما يمت إلى الأدب . ولا سيما أن العالم قد خرج من الحرب الثانية بعد أن أعطت البشرية من شبابها أربعين مليون نسمة كوقود لها .

وقبل أن ينفض المؤتمر طلب إليه الرئيس إلقاء محاضرة فاعتذر ، لأنه لم يكن مستعدًّا لها . وحين ألحّ لم يشأ أن يرفض ، وجعل موضوع محاضرته : « الإسلام والمسيحية » ، و « الصلاة والشعر » .

ونترك للدكتور طه أن يحدثنا بأسلوبه العذب عن مفارقات هذه المحاضر التي اصطبغت بالروح الإسلامية فأحدثت دويًّا في محيط مسيحي عميق الجذور . ولا سيما حين كان ينقل إلى الفرنسية ترجمة صحيحة لبعض أحاديث النبي الكريم ، وقد بلغ التأثر ببعض كبار المؤتمرين أن وقفوا خاشعين حين استمعوا إلى هذه الأحاديث النبوية ، وتقدموا يهنئونه . وتقدمت زوجة سفير شيلي ، ثم عقيلة سفير النرويج تطلبان إليه أن يعطيهما صورة من الدعاء الذي كان يدعو به النبي إذا تهجد من الليل فأعطاهما ترجمة فرنسية منه .

وفيما يلي مقتطفات من حديثه عن أيام هذا المؤتمر .

« . . وكذلك انقضت الأيام الثلاثة الأولى . أسمع أحاديث القلوب والعقول مصبحًا ، وأزور الآثار والمتاحف ممسيًا ، لا تقيد حريتي شيء من ذلك إلا بمقدار ما أريد أن أقيدها ، فإذا أقبل الليل رددت إلى نفسي . وجعلت أفكر وأتحدث فيما سمعت وما شاهدت .

ولست أخفي أني قد استعذبت هذه الحياة ، واستحببتها وتمنيت أن تطول . وما لي لا أفعل ؟ وأنا أعيش عيشة طالما طمحت إليها نفسي : ضيافة كريمة في فندق فخم مريح . وزيارة ممتعة في المساء لمتاحف الفن وآثار القدماء . .

ولكن رئيس المؤتمر يلقاني ذات مساء في بعض هذه الزيارات فيسألني في لفظ عذب متى ألقي محاضرتي ؟ ولم أكن أعددت نفسي لشيء من هذا ، وكنت قد قدّرت قبل السفر أن هذا المؤتمر سيتحدث عن السلام ، وقلت لنفسي وبعض أصدقائي :

من يدري لعلي أتحدث إلى المؤتمرين عن "السلام في الشرق الأوسط" ولكني رأيت القوم لا يتحدثون في السياسة ولا يعرضون لها إلا بالرمز البعيد ، وقد حاولت أن أعتذر . ولكن رئيس المؤتمر لم يقبل مني عذراً بل قال : ليس من محاضرتك بد ، فغداً ينبغي أن نسمع حديث قلبك كما سمعت أحاديث قلوبنا .

ولم يكن بد من أن أستجيب ففعلت وأنا واثق بأني أغامر أشدّ المغامرة ، ومع ذلك فلا بدّ مما ليس منه بدّ .

وزاد إشفاقي من هذا الموقف أني لم أحمل معي كتباً تتصل بهذا الموضوع من قريب ولا بعيد .

ففزعت إلى القرآن الكريم الذي أصطحبه دائماً ، وأخذت أقرأ فيه قراءة متصلة كلما استطعت الخلوة إلى نفسي وإلى صاحبي ، ولا سيما حين يقبل الليل .

وجاءت الساعة الموعودة ، فرقيت منبر القوم ، وأنا في شيء من الذهول ، لا أعرف كيف أصنعه الآن .

ثم أخذت أتحدث وأنا لا أكاد أعي ما أقول . . . ولكنني رأيتني أتحدث عن "الصلة بين الإسلام والسلام" وأؤكد أن اسم الإسلام مشتق

من السلم . وأن المسلم في القرآن هو الذى يسلم قلبه ووجهه لله . وأن المسلم في حديث النبي صلى الله عليه وسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده . وأن إبراهيم أبا الأديان السماوية قد جاء ربه بقلب سليم . وقد أسلم وجهه لله حنيفاً . فالمسلمون أهل سلام .

ثم رأيتني أتحدث عن الصلاة . وأبين أنها ركن من أركان الإسلام . وأتحدث عن الصلاة بمعناها اللغوى العام ، وهو الدعاء .

وأعرض عليهم نماذج من الدعاء كما ورد في القرآن .

وأقرأ ترجمة فرنسية لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم . كان يدعو به إذا تهجد من الليل .

وكنت قد حفظته من الصحيحين . .

ثم رأيتني أتحدث إليهم عن الشعر . وحكم الإسلام فيه . وعن الشعر الديني عند المتصوفين والزهاد ، وعند أبي العلاء أيضاً .

ثم رأيتني أتحدث إليهم عما بين الإسلام والمسيحية من تقارب في كثير من المثل العليا كما صورها القرآن . وكما صورته الأناجيل .

ورأيتني أنزل عن منبر القوم راضي النفس . مطمئن القلب . كما لم أرني في أعقاب محاضرة ألقيتها بالعربية أو بالفرنسية .

فقد تعودت أن أسخط على نفسي أشد السخط إثر كل محاضرة ألقيتها ، ولكني في هذه المرة لم أشفق من شيء إلا أن تكون فرنسيتي أقل استقامة من فرنسية الآخرين الفرنسيين الذين تحدثوا قبلي .

ومصدر هذا الاطمئنان فيما أعتقد أني لم أتكلم وإنما تلوت من القرآن ، ورويت أطرافاً من الحديث ، وفسرت من ذلك تفسيراً يسيراً ما احتاج إلى التفسير .

وليس من شأني أن أتحدث عن رضا الناس عن هذه المحاضرة . فقد يدفعني ذلك إلى شيء من التكثر الذى نهينا عنه ، ولكني أشهد أني لقيت من الذين استمعوا إلي رضا أي رضا ، واعتقدت منذ تلك الساعة أننا

نستطيع أن نحبب الإسلام إلى قلوب كثيرين جداً أكثر مما نظن إذا عملنا بقول الله عز وجل :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجادلهم بالتي هي أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . وهو أعلم بالمهتدين) .

وقد تلقيت تهاني كثيرة من القسيسين والرهبان . ولكن شيئاً واحداً أثر في نفسي أشد التأثير وأعمقه وأبقاه . هو سعي هذه السيدة البروتستانتية التي تسألني في صوت مضطرب يملؤه الحنان أن أكتب لها هذا الدعاء الذي كان النبي يدعو به إذا تهجد من الليل ، لأنها تريد أن تدعو به كل ليلة .

وقد كتبت لها هذا الدعاء ودفعته إليها من غد .

فقالت لي في تأثر شديد :

"تحيتي إلى الإسلام الذي أحببته منذ أمس" .

١٠

ويحرص القراء أن يعرفوا نص هذا الدعاء وأن يحفظوه . فلننتقل مع طه حسين من إيطاليا إلى الحجاز . ومن البندقية وفلورنسة إلى مكة والمدينة . فقد انتدبته الجامعة العربية سنة ١٩٥٥ ليرأس اللجنة الثقافية التي عقدت في جدة . والتي ضمت مندوبين عن جميع البلاد العربية . ولم يكد يفرغ من مهمته حتى قصد مكة والمدينة . فحج وزار . وقبّل الحجر الأسود . ووقف في المسجد الحرام يناجي ربه . وقد أثارت هذه الزيارة ظنون الكثيرين الذين ما زالوا يشكون . عن جهل . في عقيدته ويقينه . . .

وما كاد يصل إلى القاهرة حتى يزوره الأستاذ كامل الشناوي ويجري معه الحديث الآتي :

كيف كان شعورك وأنت في هذه الأماكن المقدسة ؟

فقال : لقد سألوني مثل هذا السؤال . وقلت لهم : ما بالكم تقحمون أنفسكم بين المرء وربه ؟

فقلت له : إننى بهذا السؤال لا أقحم نفسى بينك وبين ربك ، ولا بينك وبين قلبك . ولكنى أحاول أن أقحم معلوماتى عن المفكر . الحر ، الثائر، طه حسين . .

لقد عرفتك لا تبالى بما يقول الناس عنك . . وما أكثر ما قالوا ! بل ما أكثر ما صنعوا ! لقد اتهموك بالكفر ، ووصل الأمر إلى النيابة العامة ، وخرجت من الاتهام بريئًا نقيًا . . كان ذلك منذ ربع قرن أو أكثر ، عندما ألفت كتابًا عن الشعر الجاهلى . . لقد عرفت الشائعات . . فمن حقى إذن أن أعرف الحقائق . .

وأطرق الدكتور طه حسين . ومسح جبينه بيده . كأنما يحاول أن ينفض عن رأسه غبار بعض الذكريات وقال :

لقد سبق أن عشت بفكرى وقلبى بهذه الأماكن المقدسة . زهاء عشرين عامًا منذ بدأت أكتب « على هامش السيرة » حتى الآن . ولما زرت مكة والمدينة أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعًا . عشت بعقلى الباطن . وعقلى الواعى . استعدت كل ذكرياتى القديمة . ومنها ما هو من صميم التاريخ . ومنها ما هو من صميم العقيدة . وكانت الذكريات تختلط بواقعى فتبدو حقائق حينًا ورموزاً حينًا آخر . وكان الشعور بها يغمرنى ويملأ جوانب نفسى .

وقلت للدكتور طه : هل أخرجك هذا الشعور عن المألوف ؟

فابتسم وقال : على أى حال لم أصل إلى درجة الانجذاب . كنت دائمًا فى كامل وعيى . . أخذتنى الرهبة والخشية والخشوع كل مأخذ عندما كنت وحدى . .

فسألته : هل زرت الأماكن المقدسة مرتين ؟

فقال : لا . . بل زرتها مرة واحدة ، وكنت فى هذه المرة الواحدة مع نفسى فى وقت واحد !

قلت : هذا كلام يحتاج إلى إيضاح .

فقال : إليك الإيضاح .. لقد جرت العادة عندما يصل المرء إلى كعبة ، أو المسجد الحرام أن تتسلمه طائفة من الناس يسمون فى مكة المطوفين » ، أى الذين يقومون بإجراءات الطواف بالكعبة . ويسمون فى لمدينة « المزورين » . أى الذين يقومون بإجراءات الزيارة لقبر الرسول ليه السلام .

وقد حاولت جهدى أن أتخلص من المطوفين والمزورين ، ولكن محاولاتى هبت هباء ، ووجدتنى بين أيديهم أردد بلا وعى ما يقولونه ، ووجدتنى فى وقت نفسه وحدى وإن كنت فى صحبتهم . .

كنت شخصين : شخصية واعية بلا كلام ، وشخصية متكلمة لا وعى . .

كانت الشخصية المتكلمة بلا وعى تردد كلام المطوفين والمزورين ، انت الشخصية الواعية بلا كلام تناجى ربها فى صدق وصمت شوع .

وسألته : بماذا ناجيت ربك فى صمت وخشوع ؟

فقال : قلت له ، سبحانه :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض .

ولك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض .

ولك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن . .

أنت الحق ، ووعدك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والمنون حق ، اعة حق .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، ، خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، علنت ، وما أسررت .

أنت إلهى . . لا إله إلا أنت !

وقلت للدكتور طه : متى حفظت هذا الدعاء ؟

قال : إنى أحفظه منذ زمن بعيد ، وهو من أصح ما روى الحديث عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقلت : هل سبق لك أن ناجيت ربك بهذا الدعاء قبل اليوم ؟

فقال : دائمًا أناجى ربى بهذا الدعاء وبغير هذا الدعاء .

قلت : هل خاطبت ربك علنًا ؟

فقال : أنا إذا خاطبت ربى ناجيته . وقد سبق أن أذعت الدعاء . .

— متى ؟

— عام ١٩٥٢ .

— أين ؟

— فى فلورنسة . .

— باللغة العربية ؟

فقال : أذعت الدعاء باللغة الفرنسية . فى مؤتمر الحضارة المسيحية ولم أكد أنتهى من إلقاء هذا الدعاء . حتى دوّت قاعة المؤتمر بتصفيق شديد . وجاءتنى سيدة مسيحية . وطلبت منى نسخة من الدعاء . فأعطيتها نسخة . وقالت وهى تبكى : خذ دموعى وإعجابى وبلغهما للإسلام الذى أحبه كثيراً .

فقلت لها : لا داعى للدموع . . إعجابك يكفى .

١١

ويرتفع صوته فى جدة . فيهيب بالعرب أن يلعبوا اليوم الدور الذى لعبه أجدادهم فى تاريخ الحضارة الإنسانية . فيتحدث عن نشأة ومراحل تطوّرهم ، وأثرهم فى الأمم . وهو حديث صاف عذب ينبع من القلب . وقد هزته نشوة الرسالة التى قام بها النبى الكريم . فترا الحضارة العربية فى أجلى مظاهرها وأقوى إبداعاتها . . وهى ثمرة أفئد

نول أخذت نصيبها من العلم والثقافة على أوسع نطاق .
وهو يريد مخلصاً ألا يقصر الأبناء عما بلغه الآباء . .
يقول : « هؤلاء العرب الذين خرجوا من جزيرتهم هذه . وليست لهم
الحضارة سابقة . ولا حظ لهم من العلم إلا ما علمهم الله فى كتابه
يم — خرجوا فوجدوا حضارات كثيرة قوية بعيدة الأثر فى الحياة الإنسانية .
عة مختلفة الألوان والفنون والعلوم . فلم يمض عليهم إلا قرن واحد حتى
ا قد أساغوا كل هذه الثقافات . ثم لم يكتفوا بإساغتها وتمثلها . وإنما
وا يضيفون إليها ويزيدون فيها . ويضيفون إلى كنوز الإنسانية فى
والمعرفة كنوزاً . . ثم لم يكفهم هذا حتى أشركوا فيه الإنسانية كلها . لم
روا لأنفسهم منها بشىء وإنما أشركوا فيه الأمم التى كانت تستظل
م فيه ، اتخذوهم أول الأمر معلمين . ثم أصبحوا لهم أساتذة
ين . ثم أصبحوا لهم إخوة يدعونهم إلى الخير . ويستعينون بهم
الحق . ويجدّون معهم فى إغناء العلم والثقافة والأدب من جميع
ها . ثم لم يكفهم هذا حتى نشروا هذه الثقافة فى أقصى أقطار الأرض
عرفوها . وأتاحوا بعد ذلك للأجيال التى ستخلفهم على الحضارة . والتى
لها التفوق فى هذه الأيام . أن يتعلموا وأن يتثقفوا . وأن يعرفوا أنفسهم ،
عرفوا أصول ثقافتهم . وثقوا أننا لا نغلو ولا نكثر ولا نفاخر بالباطل
نا إن الغرب الأوربى والأمريكى الآن على تفوقه إنما هو مدين بتفوقه
بعلمه كله لهذه الأصول الخصبة الدائمة التى نقلها العرب إلى أوربا
رون الوسطى . ولا ينبغى مطلقاً أن نتحرج من أن نطالب الأوربيين
طالبتهم كثيراً — بأن يردوا إلى الشرق دينهم عنده . وألا يكونوا
، بما عليهم من الدين . وأن يشعروا بأن للشرق العربى عليهم جميلا
ن يقدروه وأن يشكروه . لا أن يسرفوا فى العزة والإثم ، ولا أن يبغوا على
حسنوا إليهم وعلموهم كيف يكون الإحسان » .
بعد أن أشار إلى تخلفنا عن ركب الأمم التى أخذت بنصيب وافر من

العلم والثقافة قال :

أنا أحب لكل عربى فيما بينه وبين نفسه أن يزكى نفسه بالعلم والثق
والمعرفة . وأن يأخذ من هذه الأشياء أكثر ما يستطيع . ويتعمقها أش
التعمق حتى إذا لقى الأوربى والأمريكى . لم يحس هذا الرجل أو ذاك تف
عليه . ولم يحس فى نفسه بالاستحياء . ولم يشعر بأنه من وطن قليل الحظ
العلم والثقافة .

وكما أتصوّر هذه الثقافة بالقياس إلى الأفراد أتصورها كذلك بالقيا
إلى الشعوب . فلا ينبغى أن يكون شعب عربى أقل علماً وثقافة وجداً
العلم والثقافة من أى شعب من الشعوب التى تتفوق فى هذا اليوم . وع
نحن أبناء هذا الجيل أن نعمل لذلك . وأن نستدرك ما فاتنا ، وأن ن
للأجيال العربية التى ستلينا النهوض بهذه الأعباء وتمكين البلاد العر
من أن تكون سيدة لا فى أوطانها فحسب . ولكن فى العالم الإنسانى ك

فيجب أن تفتح أبواب الأمم العربية ونوافذها على مصاريعها لكل
من ألوان العلم . ولكل فن من فنون الثقافة ، ولكل ضرب من ضر
المعرفة . وأن تكون قلوبنا جميعاً هى التى تستقبل هذا كله ، فتميز
الخبيث من الطيب ، وتستبقى منه ما يلائم طباعنا وأمزجتنا . وننتفع
ترقية الحضارة العربية بحيث لا نكون عيالا على الأوربيين والأمريكيين
فى أيسر حياتنا المادية .

يجب أن نعيش فى الأرض منتجين لا مستهلكين فقط .

يجب أن نعطى وأن نأخذ ، وأن يكون ما نعطيه من العلم والثقافة
مما نأخذه من العلم والثقافة . .

كذلك كنا من قبل . وما ينبغى أن يقصر الأبناء عما بلغه الآبا
وإنما الأصل أن يضيف الأبناء إلى ما أنشأ الآباء ، فيجب أن تذ
دائماً أن العرب القدماء فعلوا كثيراً فى سبيل العلم والثقافة والإنسا
وأننا نحن إلى الآن لم نفعل شيئاً .

عُرف الأستاذ ساطع الحصرى بنزعته العربية الصارخة . وقد أغ
المكتبة العربية برسائل وبحوث قيمة عن القومية العربية إلى سلسلة محاضر
ألقاها فى عدة معاهد . وفى معهد الدراسات العربية العالية والتى انتظ
أكثر من كتاب واحد . وهو كثير الولع بتتبع أحاديث كبار الأد
المعاصرين ، والمحررين منهم بصورة خاصة . والتعليق عليها إذا بد
أنها انحرفت عن النهج القويم لسير الوحدة العربية المؤمن بها كل الإي
حتى اعتبره البعض فيلسوف القومية العربية فى هذا العصر .

وقد رأى فى حديث طارئ للدكتور طه حسين أجاب به عن أس
بعض الشبان اللبنانيين الذين لقوه على ظهر الباخرة ، قبل ثلاثين سن
فى طريقهم إلى أوربا للدراسة — رأى فى ذلك الحديث عن الوحدة العر
التى لم يكن قد تبلور مفهومها فى أذهان الكثيرين . رأى فى ذلك الحد
الطارئ ما يمس عروبة طه حسين ، حين أشار إلى اعتزاز المصريين بمصريته
فاعتبر هذا الاعتزاز لوناً من الخروج على القومية العربية . وكثيراً ما ع
ولمزه وصوره « فرعونياً » غير مؤمن بالعروبة . حتى كاد يضعه فى ص
الشعوبيين الذين كانوا ينادون فى فترة ما بالفرعونية فى مصر ، وبالفيني
فى لبنان ، وبالآشورية فى العراق . وما كان طه حسين من هؤلا
ولا يمكن أن يكون ، ولم تخطر بباله هذه اللوثات وهو الذى أعلى من
العروبة ، وخلق مدرسة تعنى عناية علمية بالدراسات العربية . ووجه
جديداً للعناية بالتراث العربى القديم . ووقف خصماً لدوداً للشعو
الذين يحاولون مس الفصحى بالدعوة إلى العامية . وله مواقف صارمة وص
ضد كل من يتعرض للعروبة فى لغتها وأدبها وتراثها . . وهى أكثر م
تذكر . ولن أنسى موقفه فى مؤتمر المجامع العلمية بدمشق حين دعا
زملائه المجمعيين ، وهو مصرى ، إلى « العامية » فهزأ بدعوته كل اه
وناله بالتقريع واللوم مدافعاً عن العروبة دفاعاً حاراً . ومما انطلق به

ض به قلبه بهذا الصدد قوله :

« . . وأغرب ما ألاحظ أن فى مصر كتاباً وأدباء يناقضون أنفسهم
ـ المناقضة . ويناقضون حكومتهم أشد المناقضة أيضاً . بل يناقضون
نورهم مناقضة أقل ما تدل عليه هو أنهم لا يخلصون بشىء ولا يرجون لشىء
اً . فهم يدعون إلى "الوحدة العربية" . ويلحون فى الدعوة إليها ؛
كومتهم تدعو إلى هذه الوحدة . وتجدّ فى العمل لها . وفى ابتغاء الوسيلة
ا . وتبذل فى ذلك جهوداً صادقة موفقة . ودستورهم يعلن أن مصر
من الوطن العربى . وأن اللغة العربية هى لغتها الرسمية . إذا هم
ذلك . وعلى رغم ذلك . يستخفون باللغة . ويريدون أن يتخلصوا
. ولا يتردد بعضهم فى أن ينصرف عنها إلى اللغة العامية . مجاهراً
ك لا يستخفى به ويتحفظ فيه . ولا يتردد بعضهم الآخر فى أن
ب بإلغاء النحو . أو فى أن يطالب بإلغاء الإعراب وتسكين
مات مع أنه عضو فى المجمع اللغوى المصرى . ومع أن قبوله لعضوية
المجمع يلزمه العمل بقانونه . ويلزمه تبعاً لذلك أن يحافظ على سلامة
العربية الفصحى وصيانتها من العبث والفساد » .

ويقول : « إنهم وهم يدعون إلى الوحدة العربية صادقين لا ينبغى أن
وها فى نفس الوقت الذى يدعون إليها . وأى هدم للوحدة العربية
خطراً . وأعمق أثراً . وأسوأ عاقبة من إضعاف اللغة التى تجمع بين
. والاستخفاف بها أو الانصراف عنها . ومن الدعوة إلى ألا تكون
الأمة العربية لغة جامعة توحد تفكيرها . وتتيح لشعوبها المختلفة أن
بعضها عن بعض . وأن يقرأ بعضها آثار بعض قراءة مباشرة لا تحتاج
ل ولا إلى ترجمة . وأن يتحدث ساستها وأدباؤها وعلماؤها فلا
ين إلى أن يقوم بينهم المترجمون وينقلون إلى بعضهم أحاديث
. . »

الواقع ، أننى ما رأيت أديباً مجدداً حرص على اللغة العربية حرص

طه حسين عليها ، وحرصه على اللغة هو سبيله إلى الوحدة العر
فى تاريخها الطويل ، وحين يدعو بحرارة إلى صيانتها والحفاظ على أصو
ومقوماتها . والتمسك بخصائصها وتراثها ، يدعو مباشرة إلى الإيم
بالوحدة الكبرى .

وبعد فلا يمكن أن نصم هذا الأديب العبقرى بضعف إيمانه بالوح
العربية إذا تمسك بمصريته ؛ وما كان تمسك المصرى بمصريته ، والعر
بعراقيته . واللبنانى بلبنانيته لينافض أو ينفى إيمانه بالعروبة .

إن إيمان مصر بالوحدة العربية لم يكن واضحاً كل الوضوح ق
ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وكثيراً ما كان الزعماء والساسة والأدباء والشع
يتخبطون فى أحاديثهم حين يشيرون إلى جهود السوريين أو العراقيين أو
قطر عربى ضد الاستعمار فينعتونهم «بالإخوة الشرقيين» وقلما جاءت ك
العروبة على ألسنتهم .

فهذا شوقى أمير الشعراء حين واسى دمشق التى خربت بمدافع الفرنس
قال :

نصحت ، ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا فى الهم شـ
ويجمعنا ، إذا اختلفت بلاد ، بيـان غـير مختلف وا

وقال فى قصيدة ثانية يحيى فيها دمشق :

ونحن فى الشرق والفصحى بنو رحم ونحن فى الجرح والآلام إ

وهذا على الجارم يحيى « الجامعة العربية » حين أنشئت سنة ٤٠
بقوله :

سنا الشرق من أى الفراديس تنبع ومن أى آفاق النبـوة
تذوب حشاشات العواصم حسرة إذا دميت من كف بغداد أ
ولو بردى أنّت لخطب مياهه لسالت بوادى النيل للنيل أ

ولا مجال للاستشهاد بأكثر من ذلك . . فكان ذكر « الش
و « الأخوة الشرقية » فى عرف أكثر المصريين يعنى العروبة بمف

العميق . . إذ كانت النزعة المصرية التى ترمى إلى تخليص مصر من براثن الاستعمار — هى الهدف الأول ، على أن يأتى جهادهم بجهاد بقية الأقطار العربية فى سبيل الهدف الأسمى .

وجاءت الثورة المصرية — ثورة تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ — لتعلن فى دستورها صراحة أن مصر — وقد تحررت من كل سيطرة أجنبية وجلا الإنجليز عن أراضيها — هى جزء من الأمة العربية ، وأن العمل للوحدة العربية الكبرى هو هدفها الأمثل . . وهو ما يعمل فى سبيله جميع أحرار العرب . وما يعمله المصريون ساسة وأدباء ومفكرين . ولا يمكن أن يكون طه حسين . كما توهم الأستاذ الحصرى . ضد هذا الاتجاه ! ! . .

١٢

فى صدد حديثه عن الفصحى والعامية . وتنكّر البعض للفصحى ، ودعوتهم للعامية . كتب مقالا طويلا فى الأهرام [١] ندّد فيه بدعاة العامية ، وبيّن كيف كان الجيل القديم يعنى بتجويد أسلوبه وإشراق عبارته والحفاظ على قواعد لغته . وأشار إلى ملح وطرائف من عهد الدراسة الأزهرية ، وكيف كان الشيوخ يقررون أن العربية هى أفصح اللغات فقال :

كنت أضحك من الدرس الأول الذى كان طلاب الأزهر الشريف يسمعونه حين يبدءون دراسة النحو . فيقرأ عليهم الشيوخ قول المؤلف رحمه الله الذى جعل لغة العرب أفصح اللغات .

وكنت أقول إن لغة العرب فصيحة ما فى ذلك شك . ولكن فى الأرض لغات أخرى ليست أقل منها فصاحة وجزالة وامتيازاً .

وكان المحافظون يرون هذا القول منى جموحاً وإهداراً للقيم الموروثة . وثورة على السنن التى تلقاها الأبناء عن الآباء .

وكنت أتندّر بما كان بعض القدماء يختصمون فيه من أن لغة أهل

(١) ٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ .

الجنة فى الدار الآخرة هى اللغة العربية أو اللغة السريانية .

فكان غلاة المحافظين يضيقون منى بذلك أشد الضيق .

وأذكر أنى حين هممت بالسفر إلى أوربا لإتمام الدرس سألنى الشيخ بخيت ، رحمه الله ، ما الذى تريد أن تدرسه فى أوربا ؟ ! فقلت له متضاحكًا : أريد أن أدرس اللغة السريانية . فقال : ولم تدرس اللغة السريانية ؟ قلت : لأحسن الرد على الملكين حين يسألانى فى القبر ، لأنهما يسألان باللغة السريانية . ورويت له ما كنت أحفظ من قول بعض الأزهريين القدماء :

ومن غريب ما ترى العينان أن سؤال القبر بالسريانى
أفتى بهذا شيخنا البلقينى !

فغضب الشيخ وضحك الحاضرون . وكانت كثرتهم من المطربشين . .

ولقيت الشيخ بعد عودتى من أوربا فسلمت عليه ولم أقبل يده . وأراد أن يشعرنى باحتقاره لى وازدرائه لما تعلمت فى أوربا ولما اتخذت من زى جديد ، فلم يكن يدعونى إلا طه أفندى !

وحسبك بهذا اللقب احتقاراً وازدراء !

* * *

وبعد أن أشار إلى ما مرّت به الحركة الأدبية خلال ربع قرن . وحرص الأدباء على تجديد الأدب ورد الشباب إلى اللغة بعد أن أدركتها فى القرون الأخيرة أعراض تشبه أعراض الشيخوخة والهرم . إلى حرصهم على الجمال الفنى الذى يأتى من سماحة اللفظ وسجاحته . ومن يسر المعانى ووضوحها . ومن صفاء الأساليب ونقائها . تحدث عن أدباء الشباب . وسفه الدعوة إلى العامية . وتمسك بالفصحى كأداة من أدوات وحدة الفكر قال :

إنهم أشقياء بفنهم . تعوزهم وسيلة الأداء . آثارهم أشبه بالجمال البارع يعرض فى الأثواب الرثة المهلهلة التى تفسد جماله . وسبب ذلك خروجهم على ما ألف الناس من صور البيان . وإيثار الفصاحة على

الركاكة . وحين أحسوا بالعجز ثاروا على اللغة نفسها ونصبوا لها حربًا . أقل ما توصف به أنها عقيم . لا تغني شيئًا . فليس من الحق في شيء أن اللغة العربية الفصحى قد ماتت . أو أشرفت على الموت — كما يزعم بعضهم — بل ليس من الحق أن قد أدركها ضعف أو فتور أو قصور . وآية ذلك أن الناس يعربون بها عن ذات أنفسهم حين يكتبون دون حرج . ويؤلفون الكتب . ويترجمون ما يؤلف غيرهم من الأجانب . وينشرون الصحف والمجلات ، والناس يقرءون ذلك دون أن يجدوا بأسًا . وثمة أناس ينشرون الكتب القديمة التي كتبت بالفصحى . فيقرؤها أصحاب الثقافة العميقة الواسعة ، وأصحاب الثقافة المتوسطة الضيقة . . وليس هذا شأن اللغة التي ماتت وإنما شأن اللغة التي ما زالت حية قادرة على الحياة .

ثم يقول : إن أدباءنا الشباب يتورطون في خطأ حين يظنون أن العربية الفصحى لا يمكن أن تصح ولا أن تستقيم إلا إذا اتخذت ذلك الشكل القديم الذي يألفونه في شعر القدماء ونثرهم في أثناء القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى للهجرة .

فلغة القرن الأول للهجرة لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الجاهلية . ولغة أبي نواس وأصحابه ، لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الفرزدق وجرير . ولغة المتنبي لم تكن هي لغة أبي نواس ولداته . . ومعنى هذا أن حياة اللغة شيء وجمودها واستعصاءها عن التطور شيء آخر .

ثم يفند الدكتور طه الموازنة التي يعقدها هؤلاء بين اللاتينية والعربية الفصحى زاعمين أن مصير الثانية كمصير الأولى . ويقول إن اللاتينية لم تمت فجأة ، ولم تمت لأن الشباب من أبنائها قضوا عليها بالموت . . وقد تعرضت الفصحى لخطوب طوال انتصرت عليها ، وظلت حية قوية متطورة ، وظلت اللهجات العامية ضعيفة لا تصلح للأداء الأدبي قليلا أو كثيراً . . وليس يكفي أن نقرر أن لغة من اللغات ماتت لتموت . وخير من هذا العبث أن نستقبل مشكلات الفصحى . وهي :

أولا : الكتابة العربية .
ثانيًا : النحو العربى .

وقال إن إصلاح الكتابة وتيسير النحو العربى كفيلان بإراحة الجيل الناشئ من هذا العناء الثقيل الذى أدى إلى أن يجمع كتاب الشباب بين الجمال والقبح ، والجودة والرداءة فى وقت واحد . وإلى الشكوى من صعوبة الفصحى ، وإلى المطالبة بالالتجاء إلى العاميات . وليذكروا أن العالم العربى ، وكثيراً من العالم الشرقى ، يفهم الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه .

ويختم العميد مقاله : « فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية ، فيمعن كل قطر فى لهجته . وتمعن هذه اللهجات فى التباعد والتنافر . ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين . ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون . كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والإسبانيين » .

ولنسأل أخيراً : « أيهما خير : أن يكون للعالم العربى كله لغة واحدة هى الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ؟ أم أن تكون له لغات بعدد الأقطار التى يتألف منها ؟ أما أنا فأوثر وحدة الفكر . وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر . وأرى أن « وحدة اللغة » خليقة بأن يجاهد فى سبيلها المؤمنون ، وأن يضحوا بكل ما يملكونه » .

١٣

الشعر هجسات نفس ونبضات قلب ورعشة فؤاد .

وبدهى أن تهجس نفس طه حسين بالشعر وهو فى فجر الصبا ومطلع الشباب ، وقد عاش هذه الفترة من حياته ، فى بيئة أزهرية تعتبر قول الشعر ضرباً من التفوق بين الأقران ولا سيما الذين يملكون ناصية القول . .

وطه يملك ناصية القول نثراً فلمَ لا يحاوله شعراً ؟

وتمرّ بعض المناسبات فيخلو إلى نفسه ليردّد بعض المقاطع وهى أشبه بحدو الغناء . .

ويستمع إليه أصدقاؤه فإذا هم بين محبذ وناقد . .

وقد يكون نقد الضغينة أكثر من تحبيذ الصداقة . .

وكأنى بهم كانوا يقولون ما لهذا الثائر قد اقتحم ميدان الشعر ؟ . . فإذا سار فى هذا الدرب أصبحنا نكرات ! . .

والواقع أن طه ما ادّعى الشعر . بل هجسات هزت نفسه . فانطلقت سوراً موزونة لها هذا الإيقاع .

ويتناقل الزملاء هذه المقطوعات الوجدية والإخوانية . فما تكاد ترددها الألسن حتى تظهر على صفحات الصحف . .

ومن الأمانة للتاريخ أن نثبت هذا الشعر الذى يقص طرفًا من عواطف الشاب أزهرى قبل انطلاقه إلى باريس . وقبل أن يصبح أميراً من أمراء البيان وسيداً من سادة النقد والفكر الحديث .

فمن شعره هذه المقطوعة التى تفصح عن حنينه لسويعات حلوة مرت من أفق حياته :

يا رعى الله عهوداً للهوى منذ سنين
حين كنا فى أمان من عيون الرقباء
نجتنى اللذات لا نخ شى أذاة الكاشحين

* * *

إنما العذال للحب وللأحباب داء
آه ما أحلى الأمانى ليت أيامى تعود

* * *

أنا من أمضيت من عمرىَ عشرين ربيعا
غير أنى قد بلوت العيش والجهد الجهيد

بين بؤس ونعيم يذهب العمر سريعا[١]

وكانت جريدة «مصر الفتاة» قد نشرت له قبل هذه القصيدة مقطوعة نظمها على نحو « الشعر المسمط » ، وقد قدمتها بهذه الكلمة[٢] :

يرى القارئ فى القصيدة البليغة الآتية ، أن صاحبها الأديب الفاضل انتهج فيها أسلوباً يظنه بعض الأدباء من الأساليب الإفرنجية لاتفاقها مع الشعر الإفرنجى فى التقاطع والروى . ولكن هذا النوع لم يفت العرب فى جاهليتهم ، فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر المسمط .

وقد جعلها تسعة أسماط ، وكل سمط أربعة أبيات . يتفق البيت الأول مع البيت الثالث فى الروى ، والبيت الثانى مع الرابع كذلك . قال طه حسين :

شادن عطف عطفة الحبيب
بعد ما صدف صدفة الملول
كم سبى العقول قوله الحاوب
يملك القلوب ثم لا ينيل

* * *

كل ذى بهاء . . يمقت الوصال
يظهر الحياء . . وهو فى صدود
من لذى السهود . . منه بالنوال
إن فى الجمال . . عثرة الجدود

* * *

وكانت جريدة « مصر الفتاة» هى الجريدة التى تفتح صدرها للشباب المجددين من الأدباء والشعراء . وهى مرجع وثيق لشعر ونثر الأعلام فى بداية عهدهم الأدبى .

---

(١) جريدة مصر الفتاة ، ٧ يناير عام ١٩١٠ .
(٢) المصدر نفسه ٣١/١٢/١٩٠٩ .

ومما نشرته لطه الشاب الأزهرى المقطوعة التالية :

يحسب العذّال أنى همت بالحب جنونا
لو رأى العذال رأيى فى الهوى ما عذلونى
ولما قالوا فـلان أحـد المستهترينـا
أنا لا أعطى غرامى أبداً كل شـئونى

* * *

ساعة عنـدى للجد وأخـرى للهـزل
فإذا ملت إلى الجد فمقـدام أريـب
وإذا ملت إلى الحب فـآب للعـذل
هذه جمـلة أحوالى فهل فيها ذنوب ؟ (١)

* * *

هذا ، وقد تمكنت بين طه حسين وأحمد حسن الزيات . أواصر صداقة متينة ، ووشائج محبة قديمة منذ أوائل هذا القرن . وكان طه حسين يجتمع بالزيات فى الأزهر حينًا ، وفى المنتديات والمقاهى المنتشرة حول الأزهر تارة أخرى . كما كان يجتمع به أيضًا فى بيت آل عبد الرازق فى بعض المرات ، حيث كان آل عبد الرازق يعقدون جلسات أدبية شهية تحضرها أعلام الفكر والأدب فى هذا العصر ومنهم : الشيخ عبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم ، وكان الزيات وطه حسين ، لا يفترقان إلا لتلتقيا مرة أخرى فى أحد هذه الأماكن .

وتمكنت أواصر المودة بينهما كل التمكن حتى وشى بينهما رجال السوء ، فبت القطيعة بينهما ، ويبس الثرى ، وامتدت الجفوة إلى أن شاء أحمد حسن الزيات أن يستكمل دينه بالزواج ، وهنا تحركت مشاعر الحب القديم فى قلب طه حسين ، وجذبته روابط الإخاء والمودة جذبًا ، فنظم

(١) جريدة مصر الفتاة .

قصيدة يهنئ بها صديقه الزيات . الذى كان قد دعاه إلى حضور حفل قرانه فأجاب طه حسين دعوته . ونشر على أثر ذلك قصيدة بهذه المناسبة في صحيفة «مصر الفتاة» بتاريخ ١٥ /١٠ /١٩١٠ قال فيها :

يا خليلى سلامى	حبذا يوم القران
حبذا أمس فقد أد	ى نوالاً غير دانى
حبذا ليلة أمس	راق لى فيها زمانى
ليلة قد نلت فيها	من حظوظى ما شفانى
أنا لا أحمد منها	حسن توقيع الأغانى
إنما أحمد منها	حسن أنسى بفلان
لم أزل أقصف حتى	خلت أنى فى الجنان
بينما نحن على ذ	لك ... زف القمران
آه يا زيات ما أج	مل ساعات الأمانى
هن قد هجن لنفسى	ذكر سحر وعنان
أنا لولا سوء حظى	لم أكن إلا ابن هانى

يا شقيق النفس ضاق الشعر عن نظم التهانى
لا تلمنى أن دعوت الشعر ، والشعر عصانى
جل حبى لك يا زيات عن وصف البيان

وما ضاع من شعره أكثر مما حفظته بعض الصحف . يؤكد ذلك الكلمة التى ألقاها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات فى حفلة تكريمه حين حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب من الجامعة المصرية بمناسبة رسالته « تجديد ذكرى أبى العلاء » . .

ومما قاله صديقه الزيات[1] :

« فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى — يعنى طه حسين — لن يبزنا

---

(١) الجريدة ٢٦ /٥ /١٩١٤ .

نثر الكلام ونظمه . وإن بزنا فى حفظه وفهمه . ولكن ماذا تقولون وقد غدا على الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع ، جاهلية الأسلوب . تمثل ما انطبع فى خاطره من صور الشعر القديم . . سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا . وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة . فأحللناه منا محل الإنسان من العين . والسواد من القلب . ومضينا على إثره نخوض بحور الشعر . فتارة نطفو . وتارة نرسب . وهو فى السباحة ماهر . وبالطريق خبير . . »

وكلما مرّ يوم وأعقبه آخر انبثقت عن ذاكرة زملائه وأصدقائه ذكريات عزيزة محبوءة ذات اتصال وثيق بنشأته الأدبية . ولا سيما بنظمه الشعر . ولو جمع هذا الشعر الذى تطويه صحف تلك الأيام لألف ديوانًا قد يرضى أو لا يرضى عنه الدكتور طه ، على أن الشيء المؤكد أن ابتسامة من بسمات الحنين إلى أيام تلمذته وشبابه ستغمر وجهه حين يقرأ الشعر الذى قد يعتبره اليوم هذراً .

كان يتسابق . فى تلك الفترة . مع زميليه الزيات والزناتى وهم يأخذون اللغة عن أستاذها الشيخ محمود الشنقيطى . ويدرسون الأدب على أستاذ الجيل سيد بن على المرصفى .

ويروى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عن الزيات القصة التالية :

لما وضع أستاذنا الشنقيطى كتابه « الرحلة » طلب منا نحن الثلاثة أن نتسابق فى مدحه شعراً على أن تكون للسابق نسخة من الكتاب جائزة . فنظم كل منا قصيدة . وكان طه أطولنا نفسًا . وأقوانا نظمًا . ولكنى كسبت الجائزة لأنى ضمنت قصيدتى كلمة « الدرفس » وهى كلمة من غريب اللغة معناها « العلم » فطرب لها الشنقيطى كل الطرب .

وقال الزناتى : كنا نتسابق فى ميدان الشعر أنا وطه والزيات . وكنا نتبادل عرض ما ننظم من قصائد ومقطوعات . . فى يوم وضعت أبياتًا

ونسبتها إلى أبي نواس ثم أنشدتها طه بهذه النسبة ، فلما سمعها تروّى قليلا كأنه يعرضها على ذوقه ثم ضحك وقال : هذه الأبيات لأبي نواس المصرى العصرى ، لأن النواسى القديم لا يقول « دع ذا » كما تقول . .

* * *

ونختم هذا الفصل ونحن نتحدث عن شعره أيام الشباب . بالإشارة إلى إحدى قصائده الكبرى التى ألقاها فى ذكرى الهجرة .

منذ أكثر من نصف قرن لم تكن مصر تحتفل بالعام الهجرى ، ولا تحس له ذكرى ، وكانت أعمال الحكومة تتعطل رسميًا فى مطلع العام الميلادى ، ولكنها لا تتعطل فى مصر لمطلع العام الهجرى . فقام طلاب المدارس العالية وقرروا الاحتفال فى ناديهم بذكرى الهجرة . وجرى هذا التقليد يومذاك ، وكان الحزب الوطنى هو المسيطر على الحياة السياسية فى ذلك الوقت ، فكان يرعى هذه الاحتفالات ويجعل منها احتفالات دينية ووطنية قومية ، يجرى فيها حديث السياسة مع حديث الدين ، وكان شعراء مصر الكبار ، وفى مقدمتهم حافظ إبراهيم ، يعدون القصائد الوطنية لتلك الاحتفالات العظيمة .

ويقول الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف : فلما كان العام الثالث لهذه الاحتفالات كان حافظ إبراهيم قد وظف فى دار الكتب ، وحجبته الوظيفة عن أن يتقدم إلى هذا الميدان كعادته ، فتقدم الشيخ طه حسين ليملأ مكانه فى ذلك الميدان ، وكان أن أنشد هذه القصيدة ، وأنشد بعده الشاعران الكبيران أحمد نسيم وخليل مطران . وإنها لمفارقة لطيفة أن نرى « مطران » يحيى عام الهلال .

ويذكر الذين عاصروا ذلك العهد أن المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش حين وقف يقدم شعراء الحفل قال :

لقد غاب حافظ عن احتفالنا هذا العام، ولكن إذا كان حافظ قد غاب فإن شاعراً كبيراً يتقدم إليكم اليوم. وهو الشيخ طه حسين الكاتب القدير الذى تعرفونه بكثرة كتاباته ومقالاته .

والقصيدة صورة من الشباب المتحمس الممتلئ بالقوة والفتوة ، فقد جرى فى نظمه على الأسلوب المعهود آنذاك ، فراح يخاطب الكواكب والأفلاك ، ويتحدث إليها عما فى نفسه من الآمال والآلام . ولكنه بعد أن قطع شوطاً فى ذلك عاد بعقله الواعى البصير الذى نعرفه عنه فى العهد الأخير يقول لنفسه :

« ما لى وللأفلاك أطلب ودها ؟!»

وقد تحدث فى هذه القصيدة ، فى تلك الفترة البعيدة من الزمن ، عن الجلاء والاستقلال ، وعن التعليم وخطر الجهل ، وعن المرأة وقضيتها ، وعن الأغنياء ومباذلهم ، وعن الفقر ومشكلته . وعن الصحافة وقيودها . . عبّر عن نزعته التجديدية وروحه الثائرة أصدق تعبير ، كما صور وضع مصر فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها — فى عهد الاحتلال البريطانى — أصدق تصوير :

والقصيدة طويلة جاوزوت أبياتها الستين بيتاً نثبتها بنصها الكامل كوثيقة من وثائق الأدب القومى نظمها طالب أزهرى متحمس أصبح له فى زمننا هذا أضخم شأن فى تاريخنا المعاصر . .

وفيما يلى القصيدة :

ئن أنت بعد أخيك خير هلال	وأضئ لمصر سبيل الاستقلال
بسم بها بعد العبوس فربما	صنع ابتسامك بالرجاء البالى
ئن أنت ميمون المطالع مرسلا	للنيل بالإسعاد والإقبال
رق وحدث مصر عن آمالها	ماذا صنعت بهذه الآمال

أمصدق فيك الظنون وناظر ... للنيل نظرة مانح وصّالى
ومبدد عن مصر بعض همومها ... فلقد أضرّ بها أخوك الخالى
أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها ... من ريبهن بوابل هطّال
ما بين آونة تمرّ وأختها ... هول يحيق بهم من الأهوال
عسف تنوء به النفوس وشدة ... سوأى العواقب . جمة الإملال
ماذا أقص عليك من آلامنا ... هيهات هل يسع الشكاة مقالى
إن الشكاة بمصر جرم مهلك ... والنقد مصدر محنة ونكال
من يشك أو يرفع بذلك صوته ... فهو المهيّج والسفيه الغالى
أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا ... كتابها بالضيم والإذلال
وعدا على التمثيل من غلوائهم ... عاد فآذن ظلمه بزوال
نقموا من التمثيل نطق ممثل ... فيه للفظة « كامل » وكمال
فاهتاج هائجهم عليه وأغلقوا ... أبوابه من غير ما إمهال
سل إن أردت النيل عن آلامنا ... تسمع لديه جواب كل سؤال
وانظر فحولى لو بدا لك معشر ... ترمى إلىّ لحاظهم بنبال
يتلمسون بكل بيت هفوة ... ويؤولون برأيهم أقوالى
إنى لأكتمك الحديث تحفظًا ... وأرى السكوت على الأذى أولى بى
فلقد تكون « قصيدتى » كوسيلة ... بينى وبين السجن والأغلال
هلا سألت أخاك فيم نفوره ... منا وفيم جفاؤه المتوالى
وعلام خصّ الشرق من أرزائه ... بالجائحات وفادح الأثقال
فى البرتغال له يد مذكورة ... وله بأرض الفرس أسوأ فال
أشلى كلاب الظالمين عليهمو ... فغدوا نهاب خديعة وضلال
ما زال بالإسلام يعرك أهله ... وبلاده عرك الرحى بثفال
حتى لقد أمسى بسوء مصيره ... لهو الحديث ومضرب الأمثال
مالى . وما للبدر أطلب وده ... بل ما لأفلاك السماء وما .
منا بليتنا وفينا برؤها ... لولا اختلاف الرأى والأميا

إن السعادة بالوفاق رهينة ... لا يخدعنكم بريق الآل
نرجو الرقى وكيف ترقى أمة ... سلكت سبيل التيه والإضلال
عبثت بحق الأمهات وأغفلت ... أمر الأمومة أيما إغفال
لم تربهن فكن مصدر شقوة ... فيها وداء للبنين عضال
ساد الذين عنوا بأمر نسائهم ... وسموا بهن إلى مكان عال
أنّى تكون الصالحات لأمة ... رغب الغنيّ بها عن الأفضال
يحنى بيمناه النضار ولم يكد ... حتى يجود على الحنى بشمال
يمسى ويصبح فى النعيم وقومه ... لم يظفروا من بحره ببلال
فالجهل منتشر تعيث شروره ... فينا وتمتلك فتكة الأغوال
فى كل آونة تمد حباله ... فصيد صرعى الفقر والإمحال
ما بين بائسة تقسم ضعفها ... نفس مفرقة وجيب خال
فاسترسلت فى المنكرات وحللت ... من نفسها ما لم يكن بحلال
وذوى عيال مرملين غلا بهم ... جهل وأعياهم طلاب المال
فاستفتحوا باب الشرور وأرقلوا ... نحو المآثم أيما إرقال
لا درّ درّ المال إن لم يدخر ... لبناء مكرمة وحسن فعال
لا درّ درّ المال إن لم يدخر ... إلا لذات الطوق والخلخال
لا درّ درّ المال إن لم يدخر ... إلا لنيل مراتب الإجلال
ماذا يفيد وسام صاحبنا إذا ... سبقت إلى الحسنى يد الحمال
أيجود تلميذ بدرهم يومه ... عن طيب نفس غير ذات ملال
ويجود مضطر بقوت عياله ... جذلان لا يصغى إلى العذال
والأغنياء على الملاهى عكّف ... صرعى الملاحظ والهوى الختال
إنى لأخشى أن تصير أمورنا ... إن دام نجلهم لأسوأ حال
شبان مصر لكم أزفّ تحيتى ... وإلى حميتكم أسوق مقالى
يا ويح مصر من الزمان وصرفه ... إن لم تهموا همة الأبطال
أحيوا العلوم فلا حياة لأمة ... أمر النساء بها إلى الإهمال

كونوا لمصر كما نؤمل فيكم ... ذخر الزمان وبهجة الآمال
أزهار نهضتها وأنجم سعدها ... وجمالها المزرى بكل جمال
الرافعين منار مصر ومجدها ... والحافضين عدوها المتعالى
والقائمين لها على رغم العدى ... بالمكرمات وصالح الأعمال
والفازعين لمصر إذ تدعوهم ... فى غير ما وزر ولا إجفال
لا زال جيلكم لمصر بهاءها ... وعلاءها الباقى على الأجيال

١٤

ومن المفارقات الغريبة أن يكتشف الموسيقيون أن الشيخ طه حسين قد ألف عدة أغان ، وأن غوصه فى بحار الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف فى الأزهر الشريف لم يمنعه أن يمدّ عالم الطرب والأغانى كما مد عالم الأدب بالشعر .. هى علامات النبوغ المبكر تبدو ملامحه فى كل ظاهرة من ظواهر الحياة .

فبينا كانت لجنة الموسيقى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية تبحث فى موضوع إحياء ذكرى كامل الخلعى وسيد درويش وداود حسنى ونشر تراثهم ، إذا الأستاذ أحمد بسيونى زوج كريمة كامل الخلعى يقدم مجموعة الأغانى التى يحتفظ بها عمه ، وهى عبارة عن ٤٠ رواية بين أوبرا وأوبريت قدمتها فرقة منيرة المهدية وزكى عكاشة وغيرها ، و ٥٠٠ قطعة غنائية ونشيد لحنها الفقيد . وكانت مفاجأة مذهلة أن رأوا ، وهم يفحصون الأغانى ، اسم طه حسين على إحدى الأغنيات . ويتركون المجموعة ليقرءوا هذه الأغنية المكتوبة بخط الموسيقار الخلعى ، وقد كتب عليها من تأليف « الشيخ طه حسين » وهذه هى :

أنا لولاك كنت ملاك
غير مسموح أهوى سواك
سامحنى

فى العشاق أنا مشتاق
أبكى وأنوح بالأشواق

صدقنى

عهدك فين نور العين
بالمفتوح تهوى اتنين

جاوبنى

واحد بس يهوى القلب
قلبى يبوح له بالحب

طاوعنى

أنا أهواك مين قساك
أنا مجروح غايتى رضاك

واصلنى

ما أحلاك وقت رضاك
لما تلوح ما أبهاك

وقد أجمع أعضاء اللجنة ، وبينهم مأمون الشناوى مؤلف الأغانى المعروف وكلهم من كبار الموسيقيين على أنها من أرق الأغانى التى ظهرت فى الخمسين سنة الأخيرة ، وقد سجلتها شركة « الفونوغراف » بعد أن لحنها كامل الخلعى .

١٥

ويجرنا الحديث عن شعر الصبا ، إلى الحديث عن نشأته الأدبية التى مهدت لذيوع اسمه ، مع أنه ما زال طالبًا فى الأزهر .

فقد نشأ ونفسه تضطرم بالثورة على كل ما لا يلائم مزاجه وذوقه الأدبى .

وإذا كان للشباب نزواتهم ، وكانت نفسه قد امتلأت بالنزعة الأدبية الصافية بعد أن قرأ دواوين القدماء وأمهات كتب الأدب ، فوعاها واستظهر

منها الكثير الكثير . وأصبح يملك ناصية القول وسحر البيان . رأى أن يتطاول على أديب عملاق سلب عقول القراء وهزّ مشاعرهم بنصوع بيانه وجمال أسلوبه .

كان هذا العملاق هو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب « النظرات » و « العبرات » ومترجم « ماجدولين » و « فى سبيل التاج » و « الفضيلة » أو « بول وفرجينى » . و « الشاعر » أو « سيرانو دى برجراك » .

وتصدى له ينقده نقداً مرًّا جارحًا . فكتب فى جريدة « العلم » التى كان يحررها الشيخ عبد العزيز جاويش عدة مقالات بإمضاء « أزهرى ناشئ » . وكان لهذه المقالات صداها العميق فى المجتمعات والأندية وبخاصة فى البيئة الأزهرية . .

وبدأ الأدباء يتساءلون : مَنْ هذا الناشئ الأزهرى الذى تجرأ أن ينقد زعيم أدباء تلك الأيام ؟

يهزأ بأسلوبه ويتعقب سقطاته اللغوية . .

وحين يسخر منه ينقده بنفس أسلوبه . .

كان يصابحهم كل يوم بمقالة حتى بلغت تلك المقالات العشرين . فكانت من الأسباب التى رفعت انتشار الجريدة وازدياد توزيعها : فمن وخزاته تلك قوله :

لو استطعت أن أظهر ضاحكًا فيما أكتب لرآنى القراء مستغرقًا فى ضحك شديد من صاحب النظرات وما يكتبه من ألاعيب الصبية وأفانين المجون . . ولكنها الألفاظ لا تجيد وصف الصور ولا تحسن الإفصاح عن ذات الصدور . .

ويخاطب المنفلوطى قائلا :

أيها الكاتب المجيد . . أسعد الله صباحك . وأحسن مغداك ومراحك . . وقوّم المزورّ من شأنك والمعوج من لسانك . . وألهمك الصواب فى الإعراب . . والإحسان فى البيان . . فما أعلمك فى كل ذلك إلا دعيًّا .

« بحثت عن معناك فلم أجده إلا غثًّا . . وعن لفظك فلم أجده إلا رثًّا . . وعن أسلوبك فلم ألفه إلا مبتذلا . . وعن صيتك فلم أجده إلا منتحلا . . وعن مقرظيك فإذا هم بين ظالم ومظلوم ، ولائم وملوم . فسألت الله أن يثأر منك للعرب » .

نعم . ظل القراء ورجال الأدب بصورة خاصة ، والأزهريون بصورة أخص — يتساءلون من هذا الناشئ الأزهرى الذى تطاول على عملاق من عمالقة الأدب ؟

ولم يكتم السر . فعرف فيما بعد أنه شاب اسمه الشيخ طه حسين . وأخذوا يكبرونه . وبدأ هو يأخذ مكانه المرموق فى صفوف الأدباء . وأصبح يحسب لنقده أكبر حساب . .

وقد سأله صحفى . بعد أربعين سنة من تلك الحملة . عن سر الحملة على المنفلوطى فأجابه وهو يبتسم :

« كنت شابًّا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف » .

قال له :

لقد أفرطت وتطرفت فى النقد . .

فقال له مقاطعًا :

تعنى طول اللسان . . إن سببه فى رأيى هو عنف مزاجى ، ولعل هذا هو السبب ولا سبب غيره . .

وكما نقد المنفلوطى تطاول على الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » وتلميذ الشيخ محمد عبده . ولا سيما حين تقرب إلى الخديو وادعى أن أسلوبه قريب من أسلوب القرآن ، فتصدى له طه حسين وكتب :

« لسنا نريد أن نناقش رشيداً فيما كتب . . ولن نناقشه فيما سيكتب من الأباطيل والأضاليل ، وإنما نريد أن نكشف للناس عن دخيلة أمره ببيئة نفسه ، ليعلموا أنه ليس بذلك الذى يدعو إلى الله ، وينشر دينه بين الناس .

نريد أن نبين للناس أن رشيداً إنما يتخذ الدعوة إلى دين الله سبيلا إلى الشهرة ، وسلماً إلى الصيت .

يقول رشيد : إن كل من قرأ النبذ التى كتبناها — أى التى كتبها رشيد — كاد لا يميز بينها وما فيها . . من آيات القرآن . . لولا الحفظ (أى أنه لا فرق بين ما يكتب وبين ما جاء فى القرآن ، إلا أن الناس يحفظون القرآن !) .

الآن وقد زعم رشيد أنه سامى ربه ، وأتى بمثل كتابه ، يظهر للناس أنه راغب فى الدعوة إلى دين الله .

أترى فى القرآن مثل هذا السجع البارد . . والانعكاس الفاتر . . والإضافات المتتابعة ؟ . . ثم ألا تشعر بعد ذلك بالسرقة والاختلاس من ذلك الكتاب الذى تجاريه ؟ » .

منذ تلك الفترة والخصومة على أشدها بين صاحب المنار وطه حسين .

وحين صدر كتابه : « فى الشعر الجاهلى » وأثيرت تلك الحملة الهوجاء ضده ، رأى الشيخ رشيد رضا أن الفرصة مواتية للانتقام منه ، فكتب عدة مقالات اتهمه كغيره من الأزهريين والشبان المسلمين فى دينه وجردوه من إيمانه ويقينه . وحين استؤنفت الحملة مجددة فى البرلمان التى أثارها المرحوم الأستاذ عبد الحميد سعيد رئيس الشبان المسلمين ، والتى كان مصدرها عوامل حزبية سياسية أكثر منها دينية — تلك الحملة التى استنكرها الكثيرون آنئذ ، بعث الشاعر الكبير حافظ إبراهيم إلى الدكتور طه البيتين التاليين اللذين لم ينشرا فى ديوانه ، ويرددهما طه حسين كلما ذكرت تلك المناسبة :

إن صح ما قالوا وما أرجفوا ... وشنعوا زوراً بدين العميد
فكفر طه عند دينانه ... أحب من إيمان عبد الحميد[1]

---

(١) عبدالحميد سعيد رئيس الشبان المسلمين .

١٦

عاش الدكتور طه حياته فى صراع دائم . .
صراع فى سبيل حرية الفكر . .
صراع فى سبيل الكرامة الإنسانية . .
صراع فى سبيل المثالية التى آمن بها . .
ما عرف قط الخوف والتردد والخنوع . .
يجهر برأيه فى أدق الظروف العصيبة .
رفيق عنيف فى آن واحد . رقته تبدو دائمًا مسربلة باللباقة والكياسة .
وعنفه — حين يلمس الاعوجاج — ثورة عاصفة مزمجرة لا تبقى ولا تذر .
وهو يعرف كيف يفرق بينهما فى اتزان محمود .
ما هان على نفسه قط .

فلكرامته دائمًا مقامها المرموق — كرامته كإنسان مفكر ، وكرامة المركز الذى يشغله سواء كان هذا المركز فى الأوساط الرسمية أو فى البيئات العلمية ، والجامعية منها بصورة خاصة . .

فقد حدث ، وهو عميد كلية الآداب عام ١٩٣٢ ، أن طلب إليه إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء ، وهو حاكم شديد البطش والجبروت ، أن يمنح درجة الدكتوراه الفخرية إلى غير واحد من السياسيين الممالئين له وللملك بصورة خاصة . .

ويدرس طه حسين تاريخ هؤلاء الناس . فلا يجد واحداً منهم يستحق هذه الرتبة العلمية . . فيقف من هذا المطلب موقفًا صلبًا ، أى لا يجمجم ، لا يخنع ، فيرفضه بإباء ، ثم يذهب إلى وزير المعارف حلمى عيسى باشا ويقول له بالحرف الواحد : « إن الجامعة تعطى درجة الدكتوراه الفخرية من نفسها لا بوحى من الحكومة . وإنها لا تستطيع أن تمنح هذه الدرجة لأفراد حزبيين » .

وتثور الحكومة إزاء هذا الرفض .

وتتناقل الخبر أروقة القصر .

ويصل إلى سمع الملك فؤاد . فيأمر حالا بعزل الدكتور طه من عمادة الكلية . فلا يكاد يسمع بالنبأ حتى يبتسم هازئًا . ويردد وهو يترك حرم الجامعة :

رب من أنضجت غيظًا قلبه قد تمنى لى موتًا لم يقع

ولكى تنقذ الحكومة نفسها من هذه الورطة ، طلبت إلى عمادة كلية الحقوق أن تتولى هى منح الدكتوراه الفخرية . ولم تتلكأ . فخضعت للأوامر صاغرة . فى الوقت الذى أبى عميد كلية الآداب أن يسخر كرامة العلم لأهواء السياسة . بل لأهواء الحزبية الرعناء .

وظل هكذا طوال حياته حريصًا كل الحرص على كرامته وكرامة العلم وكرامة المقام الذى يشغله .

١٧

وحين خاض غمار الصحافة كان جريئًا إلى أبعد حدود الجراءة .

كان يهاجم بعنف ، وبأسلوب أدبى لاذع دونه سخرية الجاحظ وهزل فولتير . ولا سيما حين يشعر أن الحق بجانبه . وأن من يهاجمهم مر خصومه قد التووا عن نهج الصواب وسلكوا طريقًا معوجة .

ويكفى أن تعلن الجريدة أنها تنطوى على مقال لطه حسين . ولا سيما فى الأزمات الحزبية العاصفة . حتى يرتفع توزيعها ارتفاعًا مذهلا . .

وكثيراً ما كانت النيابة تستدعيه لاستجوابه وإدانته ، فكان يذهب غير هياب ولا وجل . .

وما تنكر قط لما كتبه أو أذاعه .

كانت جرأته مضرب المثل — جرأة المؤمن بقداسة الحق وبالقضية التى يدافع عنها .

فقد حدث مرة أن هاجم القيسى باشا المسئول الأول فى وزارة الداخلية متهمًا إياه بتضليل مجلس النواب وتزوير محضر جلسة الأبلس .

وتستدعى النيابة الأستاذ عبده حسن الزيات رئيس تحرير الجريدة لتسأله عن كاتب المقال ، فيعترف بأنه هو — أى الزيات — كاتب المقال ، وتسأل النيابة طه حسين فيقول : أنا كاتب المقال . والزيات تلميذى ويريد أن يضع أستاذه بمعزل عن المحاكمة .

ويُسأل الزيات من جديد ، فيؤكد أنه الكاتب . وأن طه حسين يريد أن يفتديه . . وتعود النيابة مرة ثانية لتسأل طه حسين الذى يأتى بالدليل على أنه وحده المسئول .

قال طه حسين :

أرجو أن تسأل النيابة سكرتيرى الأستاذ فريد شحاته فقد أمليته المقال .

وتقدم النيابة محمد حسين هيكل وحفنى محمود وعبده حسن الزيات وطه حسين إلى محكمة الجنايات التى تصدر حكمها بتغريم كل منهم خمسين جنيهًا .

يدفع المبلغ مبتسمًا هازئًا . وقد أبت عليه نفسه وكرامته أن يلجأ إلى المداورة والكذب .

١٨

ومن المفارقات المحمودة فى حياة طه حسين أن قلبه ما حمل الضغينة ولا الحقد على أحد . . حتى مع خصومه الذين انحدر بعضهم إلى الشتائم المقذعة ، وقد قال بهذا الصدد : لقد تعودت الشتائم فى كل مكان وزمان . وأصبحت لا أدهش من أن يشتمنى أى إنسان .

وقال : إن خصومه كانوا يهاجمونه ، ويكافئهم الحكام على مهاجمتهم له ، وروى كيف هاجمه المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، واتهمه بشر التهم ، وقد أبدى الملك فؤاد اغتباطه بهذا الهجوم ، وأمر بإيفاد أحد

أبناء الرافعى فى بعثة علمية إلى أوربا على نفقة « الخاصة الملكية » . ودارت الأيام وانتقل الرافعى إلى جوار الله ، وكان الدكتور طه عميداً لكلية الآداب ، وعرف أن بنت الرافعى لم تستطع دفع المصروفات . فطلب من اللجنة المختصة أن تمنحها المجانية ، وقال : إذا كانت هناك عقبات قانونية فى منح المجانية لبنت الرافعى فأنا على استعداد لدفع مصروفاتها من جيبى .

١٩

سئل الدكتور طه عن رأيه فى الصحافة قبل ربع قرن وصحافة اليوم فقال : إنه بالرغم من التطور المذهل الذى دخل على صحافة اليوم فهى تخضع لعدة مآخذ منها : أنه كانت لدينا صحافة رأى تهتم بتثقيف عقول القراء . . أما اليوم فإن الصحف تهتم بالأخبار الداخلية والخارجية . وتفسح مكاناً بارزاً لأخبار الجرائم . . إن الصحف لا تكتب إلا للعامة . . إن الصحف اليوم نكبة على الأدب . . إنها تشغل الناس عن قراءة الكتب وتدعوهم إلى الاهتمام بسفاسف الأمور . . إن الصحف تكتب بالألفاظ العامية . . أين هذا من صحافة الأمس ؟ !

وأبدى سخطه فقال : إنها تحللت من الوقار والجدية ، وجنحت إلى الخفة والتفاهة ، واهتمت بنشر أنباء لا تهم أحداً . . فماذا يهم الناس من أن ممثلا ترك عشيقته ، ومطربة طلبت الطلاق من زوجها ؟ ! وإذا كان هذا جائزاً بالنسبة إلى صحافة الإثارة والخفة ، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى صحافة الرأى والوقار .

وحين قال له أحد الصحفيين إن الاهتمام بالأخبار الشخصية يكاد يكون غريزة قال : إن وظيفة الصحافة ليست أن تتملق الغرائز ، ولكن وظيفتها تهذيب الغرائز .

وقد عاش الدكتور طه حسين حياته غير بعيد عن جو الصحافة ،

منذ كان طالبًا فى الأزهر إلى يومنا هذا . .

كتب فى « السفور » ، وفى « الأهرام » ، وفى « الجريدة » ، وفى « السياسة » ، وفى « كوكب الشرق » ، و « الوادى » ، و « الجمهورية » ، وفى غيرها من الصحف الكبرى ، فمارس اللون الحزبى والتوجيهى معاً ، وكان عنيفًا كل العنف فى جميع مقالاته التى كان يكتبها على هامش عمله الجامعى ، وكانت تحدث هزات عنيفة فى الأوساط السياسية والبيئات الأدبية ، وبالرغم من خوضه المعارك القلمية مع الحكام الطغاة والهيئات المؤتمرة بأمرهم ، كان هجومه يتسم بالأدب العف واللفظ المهذب والتوجيه السليم . . أى أنه كان ينقد نقداً قاسيًا بروح من الهزء والسخرية ، فيقرأ خصومه مقالاته غاضبين ثائرين . ثم لا يلبث هذا الغضب أن يزول تحت سحر جمال الأسلوب من جهة ، وترفعه عن الصغار من جهة أخرى . . وهذا الذى يريده من الصحفيين الشباب أن ينهجوه لا أن ينحدروا بالصحافة إلى أن تصبح مرآة للفضائح ولتملق الغرائز .

٢٠

وإذا ثار بعض الشعراء الشباب على عمود الشعر العربى ، وأخذوا يعبرون عن هواجسهم وإرهاصاتهم بكلام مفكك ، مهلهل ، مضطرب قد خلا من الوزن والقافية والإيقاع الموسيقى . كان لا بد لعميد الأدب من أن يقول كلمته الواضحة الصريحة فى هذه الفوضى التى غمرت الحياة الأدبية فى الستينيات من هذا العصر — هذا الشعر الذى تحيروا فى تسميته . فطوراً يسمونه شعراً منثوراً . وطوراً شعراً حرًّا أو مرسلا ، فلا إيقاعات مسايرة للانفعالات تشتد بشدتها وتخفت بخفوتها ، ولا قوالب ولا قافية ، فكانت فوضى دخل ميدانها الفصيح متشاعرون وشعراء أساءوا إلى الأدب ، وإلى قدسية الشعر وملكوته ، فأصبح الكلام المفكك ، والجمل المتقطعة ، الكلمات الغامضة المنتهية بالنقط والأصفار وإشارات التعجب والاستفهام

— أصبح شعراً حرًّا أو مرسلا أو منثوراً . تقرؤه مرات ومرات فلا تفهم مضامينه ولا رموزه وإشاراته . قد خلت كلماته وجمله من نبض الشاعرية ومن الإيقاع الموسيقى الذى يهز الأفئدة والمشاعر . ويدغدغ الوجدانات والعواطف . ولئن استطاع بعضهم أن يلزموا شعرهم الحر بتفعيلات ذات إيقاع موسيقى . وهم قليلون — وقد رجع بعضهم عن هذا الهذر — إن أكثرهم قد دخلوا الساحة وهم أبعد ما يكونون عن حياة الأدب والشعر .

وبما أن للشعر المرسل أو الحر قواعد فى الآداب العالمية . كان لا بد لعميد الأدب . إزاء هذه الفوضى الصارخة التى جرأت الكثيرين على تلطيخ وجه الشعر الناصع بهذا الهذر المزرى . أن يقول كلمة صريحة واضحة لا جمجمة فيها ولا التواء . قال :

« . . من الشباب طائفة يرون لأنفسهم الحق فى أن ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم . وعن أوزانه وقوافيه خاصة . ولست أجادلهم فى هذا الحق بل ليس لى أن أجادلهم فيه . فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تتنزل من السماء . وليس ما يمنع الناس أن ينحرفوا عنها انحرافاً قليلا أو كثيراً أو كاملا . . ولكن للشعر قديماً كان أو حديثاً أسساً يجب أن ترعى ، وخصائص يجب أن تتحقق . فليس يكفى أن ينشئ الإنسان كلاماً على أى نحو من أنحاء القول . ثم يزعم لنا أنه قد أنشأ شعراً حديثاً . وإنما يجب أن يحقق فى هذا الكلام الذى ينشئه أشياء ليس إلى التجاوز عنها سبيل . فالشعر يجب أن يبهر النفوس والأذواق بما ينشئ فيه الخيال من الصور . ويجب أن يسحر الآذان والنفوس معاً بالألفاظ الجميلة التى تمتاز أحياناً بالرصانة والجزالة ، وتمتاز أحياناً أخرى بالرقة واللين ، وتمتاز فى كل حال بالامتزاج مع ما تؤديه من الصور لتنشئ هذه الموسيقى الساحرة التى لا تنشأ من انسجام الألفاظ فحسب . ولا من من التئام الصور فحسب ، وإنما تنشأ من هذا الائتلاف العجيب بين الصور فى أنفسها وبينها وبين الألفاظ التى تجلوها بحيث لا يستطيع السمع أن ينبو منها . ولا تستطيع

النفس أن تمتنع عليها . ولا يستطيع الذوق إلا أن يذعن لها ويطمئن إليها ويجد فيها من الراحة والبهجة ما يرضيه . فإذا استطاع الذين يحبون هذا الشعر الحديث أن يقدموا إلينا منه ما يمتعنا حقًا فمن الحمق أن ننكره أو نلتوى عنه لا لشيء إلا لأنه لم يلتزم ما كان القدماء يلتزمون من الأوزان والقوافى .

وابتكار الشعر الحديث والافتنان فى هذا الابتكار ليس شيئًا يمتاز به شعراء العرب المعاصرون عن الأمم الأخرى . وإنما هو شيء قد سبق إليه شعراء الغرب منذ وقت طويل ، فشعراؤنا حين يجددون لا يبتكرون ، وإنما يقلدون قومًا سبقوهم . وليس عليهم من ذلك بأس إذا أجادوا وأحسنوا ، وعرفوا كيف يبلغون من نفوس معاصريهم ما بلغ شعراء الغرب من نفوس الغربيين على ما يكون بين الغربيين من اختلاف اللغات وتباعد الأذواق ، بل ليس شبابنا من العرب المعاصرين حين ينشئون شعرهم الحديث مبتكرين بالقياس إلى الشعراء القدماء من العرب . فما أكثر ما تطورت أوزان الشعر العربى القديم وقوافيه ! والدارسون للأدب العربى يعلمون حق العلم أن الشعر العربى لم يكد يعيش نصف قرن بعد ظهور الإسلام حتى أخذت أوزانه تخضع لألوان من التطور . دخلت عليه الموسيقى التى جاءت بها الشعوب المغلوبة ، ودخلت عليه حضارة جديدة لم يألفها الشعراء العرب الجاهليون ، فنيرت النفوس وتطورت الطباع ، ورقت الأذواق وصفت . ولم يكن للشعر بد من أن يتأثر بهذا كله ، ويصبح ملائمًا للحضارة الجديدة وما أنشأت من طباع جديدة وأذواق جديدة أيضًا . وقصرت أوزان الشعر وخفت ، لتكون ملائمة للتوقيع الموسيقى الحديث . وظهر ذلك التطور أول ما ظهر فى الحجاز ، وفى المدينتين المقدستين بنوع خاص ، وكان الحجاز جديراً بأن يكون قلعة المحافظة فى الأدب العربى ، ولكنه كان السابق إلى تطوير الشعر ، لأنه كان السابق إلى الترف ، والسابق إلى الموسيقى ، والسابق إلى الغناء ، والسابق بحكم هذا كله إلى تطوير الشعر بترقيق ألفاظه وتقصير أوزانه وتحضير صوره .. ولا أذكر ما طرأ فى العراق من ألوان التطور الذى

عرض للأدب كله شعره ونثره ، منذ انتصف القرن الثانى للهجرة ، فأما ما طرأ على الشعر فى الأندلس فهو أظهر وأشهر وأقرب إلى أوساط المثقفين من أن أحتاج إلى الوقوف عنده .

فليتوكل شبابنا من الشعراء على الله ، ولينشئوا لنا شعراً حرًّا أو مقيداً ، جديداً أو حديثًا ، ولكن ليكن هذا الشعر شائقًا رائعًا . ويومئذ لن يروا منا إلا تشجيعًا أى تشجيع ، وترحيبًا أى ترحيب ، ودفاعًا عنهم إن احتاجوا إلى الدفاع » .

٢١

درجت « هيئة الدراسات العربية » فى الجامعة الأمريكية فى بيروت على عقد مؤتمر كل عام تدعو فيه أكابر رجالات الفكر لبحث ناحية من نواحى الحياة العربية المعاصرة . فكان موضوع البحث فى المؤتمر الأول : « العرب والحضارة الحديثة » ، وموضوع البحث فى المؤتمر الثانى : « مستقبل العالم العربى » ، وموضوع البحث فى المؤتمر الثالث : « المجتمع العربى » ، وموضوع البحث فى المؤتمر الرابع : « فى الأدب العربى الحديث » . ورأت الهيئة أن يكون موضوع مؤتمرها الخامس : « مهمة الجامعة فى العالم العربى » فدعت الدكتور طه حسين وبعض الأساتذة الجامعيين لدراسة هذا الموضوع .

وقبل الدكتور طه الدعوة ، وهو جامعى عريق : طالبًا وأستاذاً وعميداً ومديراً ؛ فقد نشأ ، كما يعلم الكثيرون ، مع نشأة الجامعة المصرية ، ومر بظروف قاسية إلى أن بلغ مكانه السامق ، كما عاش فترات عصيبة فى بدء شبابه وهو يدرس فى الجامعة الأزهرية ، ثم من مصر إلى السربون والكوليج دو فرانس فى باريس ، لذلك كان لرأيه الحكيم أثره البليغ فى تصوير العلل والأمراض ووصف الدواء الناجع . .

وما كاد يصل إلى بيروت فى الأسبوع الأخير من شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٥٥ حتى استقبلته الهيئات الفكرية من جامعيين وأدباء وشعراء وصحفيين ، ومن ممثلين رسميين عن الدولة استقبلوه أروع استقبال .

وحضر المؤتمر واستمع إلى المحاضرين واشترك فى المناقشات ، واستمر المؤتمر قرابة أسبوع كان الأساتذة والطلاب يحيطون بالدكتور إحاطة السوار بالمعصم ، كما يقول المثل العربى . وكان يجيب عن الأسئلة بروحه السمحة وبيانه العذب ، وكانت أقواله وأحاديثه سرعان ما تنقل إلى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية فيقرؤها الجمهور بلذة وشوق . وقد أشار إلى ذلك أديب لبنانى بقوله :

« جاء أسبوعاً إلى لبنان ، فتجددت بوجوده (موضة) الأدب ، وعاد بفضله إلى المجالس حديث الأدب والأدباء ، وبحث النظريات الأدبية ، وانشغل الناس بأخبار مناظراته ومحاضراته وأحاديثه وزياراته ، إلى جانب انشغالهم بالشئون السياسية ، بعد أن كانت السياسة تستأثر بأوقاتهم وأفكارهم ، وعادت الصحف تجد مجالا لنشر أخبار المناظرات ، ولذكر الجامعات والكليات والمؤسسات ، ونشر صور عن أشخاص يجتمعون بسبب غير سياسى » .

لقد كان فى ظن الدكتور طه أن هذا الأسبوع الذى يقضيه فى لبنان سيتيح له الراحة ، بعد أعماله الجسام فى القاهرة ، وأن ساعة وبعض ساعة يلقى فيها محاضرته ثم يفر إلى الجبل فيرتاح ويستمتع بنسيمه العليل ، وظله خاب ، فما يكاد يفرغ من مهمة حتى تلقاه مهمة أخرى . وجاءه يوم طلاب دائرتى الأدب والتاريخ فى الجامعة يطلبون عقد جلسات ، فلم يرفض طلبهم ، وجلسوا إليه يمطرونه بأسئلتهم فكان يجيب ، كما يقول الدكتور نجم ، بألفة وود وإخلاص ، ناضياً عن نفسه الرسميات مرتداً إلى فطرته الأصيلة ، ورسالته الكريمة التى اضطلع

بحملها ثلث قرن من الزمان ، وهى رسالة الأستاذ الجامعى الذى عرف دائمًا بإخلاصه فى العمل ، وتجديه على تلاميذه ، ومريديه ، وإيثاره إياهم ، وحرصه على مصلحتهم .

وهكذا كانت الجلسة القصيرة تجسيمًا عمليًّا لأفكاره التى أذاعها على الناس فى محاضرته عن مستقبل الجامعة فى العالم العربى .

ولا مجال هنا لتلخيص هذه المحاضرة ، وقد ظل أكثر من ساعة يتحدث ولكن حسبنا الإشارة إلى بعض فقراتها . .

فقد تساءل : ما عسى أن تكون جامعاتنا غداً ؟ وقبل أن يجيب عن هذا السؤال ، قال : يجب أن نلقى سؤالا آخر وأن نجيب عنه : ماذا نريد أن نكون نحن غداً ؟ ماذا نريد أن تكون عليه حياتنا غداً ؟

أنريد أن نظل بعد سنين قليلة أو كثيرة ، كما نحن الآن ، غير مستكملين لشخصيتنا ، غير محققين لآمالنا وأمانينا ، غير محققين لكرامتنا واستقلالنا ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن ؟ نلمّ بأطراف من المعرفة دون أن نتفهمها كما ينبغى للإنسان الكريم الحر أن يتعمق المعرفة ، فى كل ما يحاول من الأمر ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن خاطفين : نخطف العلم من هنا وهناك دون أن يكون العلم مستقرًّا بيننا ، متأصلا فى نفوسنا ، ودون أن نجول ونصول فى العلم ، كأننا هو ، وكأنه نحن ؛ كأن ليس بيننا وبينه فرق ، ودون أن نبرأ من هذه الغربة الغريبة المنكرة ، التى يجدها كل واحد منا حين يريد أن يتعمق علمًا من العلوم ، وحين يريد أن يتقن فنًّا من فنون المعرفة مهما يكن ؟

أنريد أن نظل كما نحن الآن ؟ ننتظر الخير الثقافى والعقلى والفنى من الترجمة ، ننقلها عن هذه اللغة أو تلك ، ونسعى إليها فى هذا الوطن الأجنبى أو ذاك . . أم نريد أن نكون أصلاء فى هذا كله ، وأن نترجم لا عن حاجة

بل عن ميل إلى الاستطلاع ، وأن نترجم لا لنأخذ فحسب ، بل نترجم ليترجم غيرنا عنا ، أن نترجم من الفرنسية إلى العربية ، لا لأننا محتاجون إلى هذه الترجمة ، بل لأننا نحب أن نعرف ماذا يقول زملاؤنا الفرنسيون ، ولأننا نحب أن يترجم الفرنسيون عنا ، وأن يعرفوا ماذا يقول زملاؤهم العرب ؟ وقولوا مثل هذا بالقياس إلى الإنجليز والألمان والأمريكيين والإيطاليين ، وما شئتم من الأمم الحية الكبرى .

أما إن كنا نريد أن نظل كما نحن ، فمستقبل الجامعة بسيط ، وهو أن تظل حيث هي ، كما نظل نحن كما نحن ، أشبه شيء بالضفادع في قاع فيه قليل من ماء ضئيل ، نتصايح ، ويصح فينا قول الأخطل :

تنق بلا شيء شيوخ محارب ... وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها حية البحر

وأؤكد لكم أن حيات البحر كثيرة ، وأنها ترقبنا ، ولا تنتظر أن ندعوها وإنما تنتظر أن نذودها عنا ، وأن نردها أعنف الرد حيناً ، وألطف الرد حيناً آخر .

لا نريد إذن ، فيما أعتقد ، أن نظل ضفادع تتجاوب في ظلمات الليل ، وندل على أنفسنا المستعمرين من هنا أو هناك ، وإنما نريد أن نكون رجالا ، وأن نترك حوار الضفادع إلى طور الرجال ، وأن نبرأ من قول مسيلمة فيما يروى عنه من قرآنه ذاك : « يا ضفدع بنت ضفدع ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » !

وقد أهاب بالجامعيين ألا يكونوا كهذه الضفادع ، لا تمنع شاربا ولا تكدر ماء ، ولكن أرادهم أن يمنعوا الشاربين حين تقتضي مصلحة الأمة منعهم من الشرب ، وأن يكدروا عليهم ماءنا إذا أردنا ألا يشربوه . ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تتطور حياتنا إلى حيث نبلغ ما نريد . وسبيلنا

إلى التطور إنما هو الجامعات أولا ، والجامعات آخراً ، والجامعات قبل كل شيء وبعد كل شيء .

وقال : إن التطور لا يأتينا من خارج ، وإنما يأتينا من ذات نفوسنا . يأتينا من ذات نفوسنا عند ما نهذب هذه النفوس ، وعند ما نصفي أذواقها ، ونذكي قلوبها وعقولها . وعندما نتيح لها أن تقوى فيها الملكات المدركة القاهرة الواعية ، التي تتسلط على الحس والشعور . والتي تتسلط على قوى الإنسان كله ، فتدفعه إلى الأمل ثم تدفعه إلى العمل ، ثم تدفعه إلى الإنتاج ، ثم تجعله وكأنه شجى في حلق الذين يريدون به المكروه .

٢٢

لم تقف شهرة طه حسين عند حدود مصر والبلاد العربية بل تخطتها إلى شتى أقطار الشرق والغرب ، وقدرت الجامعات الكبرى مواهبه العلمية فمنحته الدكتوراه الفخرية ، أذكر منها جامعة ليون ومدريد وكمبردج وغيرها . وترجمت بعض كتبه إلى عدة لغات أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ — الأيام : الجزء الأول — وقد ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والعبرية والصينية والروسية والفارسية .
٢ — الأيام : الجزء الثاني — إلى الفرنسية والروسية .
٣ — دعاء الكروان : إلى الفرنسية .
٤ — شجرة البؤس : إلى الفرنسية .
٥ — أديب : إلى الفرنسية .
٦ — مستقبل الثقافة في مصر : ترجمة ملخصة إلى الفرنسية .
٧ — الوعد الحق : إلى الفارسية .
٨ — على وبنوه : إلى الفارسية وإلى الأوردية .

وما تزال دوائر الفكه العالمية معنية بحياته وأدبه . وآخر ما صدر عنه

سام خبز

كتاب بالإيطالية أسمه علماء إيطاليون كتب فيه كل واحد منهم بحثاً أو مقالا (١) .

وقد سئل عن هؤلاء المؤلفين فقال إنه لا يعرف من هؤلاء العلماء إلا عدداً قليلا منهم : كابريلي الأستاذ في جامعة روما . وآنستان أديبتان في جامعة نابولي . وثالثة هي ابنة المستشرق الإيطالي نالينو .

وصدرت عدة كتب في عدة لغات تؤرخ حياته وتعرض إلى كتبه وآرائه .

وفي إلماعنا إلى هذه الناحية أردنا أن نشير إلى أن الغرب كان في شوق إلى أن يعرف شيئاً عن تطور الفكر العربي . وعن الأدب العربي الحديث خلال هذه الفترة منذ بداية القرن العشرين . فالتفت إلى أدب طه حسين . وإلى الدور الذي لعبه في تاريخ الأدب المعاصر . فترجمت بعض آثاره . وكانت بدء انطلاقة لترجمة آثار غيره من الأدباء وفي طليعتهم الروائي الكبير محمود تيمور والقصصي الفذ توفيق الحكيم .

٢٣

ويمضي الدكتور طه في سيره مع الأحداث الفكرية ، في مصر وفي عواصم الشرق والغرب ، وبرغم حضوره الكثير من المؤتمرات والندوات متحدثاً ومحاضراً . تظل أمتع الساعات عنده هي التي يخلو فيها إلى نفسه . مع الكتب والمراجع . يقرأ له . حتى إذا استوى الموضوع في ذهنه . أخذ يملي أروع الصفحات وأبلغها في الأدب والتاريخ . . .

إنسان لا يعرف الراحة . عاش مع تاريخ الفكر الإنساني في شتى عصوره . وهو أبرع من يستخلص العبر . مما يكاد يعرض إلى حادث من الأحداث مهما كان شائكاً . ومهما كان عويصاً حتى يجلوه جلاء واضحاً

---

(١) كان هذا حتى عام ١٩٦٨ . وقد صدرت بعد ذلك عدة كتب عن الفقيد العظيم بالعربية والفرنسية .

فيقرؤه القارئ بكثير من اللذة والفهم . ويشعر كأنه يعيش فتراته وملابساته . بل كأنه يستمع إلى أنشودة أو يقرأ قصة ممتعة . .

تلمس ذلك فى جميع كتبه : فى القصص والترجمات والتلخيصات وكتب الأدب والتاريخ .

فى إحدى رحلاته إلى أوربا حمل معه ، كما قلت ، صفوة من المصادر لكتابه الجزء الثانى من « الفتنة الكبرى » — تلك الفتنة التى سفكت فيها الدماء وأزهقت النفوس ، وانتهكت الحرمات . وقضى فيها على سنة الخلافة الراشدة . فما كاد يفرغ من كتابة أكثر فصوله فى مصيفه الإيطالى سنة ١٩٥٢ حتى عاد إلى القاهرة ليتمه . فصدر عام ١٩٥٣ (١) .

ويعلم القراء أن أعوص فترة من فترات التاريخ الإسلامى هى التى واجهها المسلمون بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان . .

للمؤرخين القدامى والمعاصرين آراء متباينة فى هذه الفتنة الكبرى ، منهم من يستبد به الهوى لآل البيت وللإمام علىّ ، ومنهم من ينحاز إلى معاوية فينحى باللائمة على الإمام علىّ لتخليه عن سياسة الفتح وانشغاله بحروب داخلية فتّت فى عضد المسلمين . وأثارت بينهم الضغائن والأحقاد والثورات .

وولج الدكتور طه هذا الميدان فكان المؤرخ المنصف الذى يعرض الأحداث مجردة عن كل عصبية أو هوى . فقدم للقارئ زبدة وافية من تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها .

وبعد كتابه قصة « الفتنة الكبرى » . وبعد أن عاش مع خضم هذه الأحداث يقرأ المطولات من الكتب — رأى أن يكتب سيرة الخليفتين اللذين كان لهما شأن وأى شأن فى توطيد دعائم الإسلام ونشر رسالته كما

---

(١) كتابه « على وبنوه » .

وضع أسسها وقواعدها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فكتب قصة الشيخين : أبي بكر وعمر . وعوداً إلى المنابع الأولى لرسالة الإسلام كتب « مرآة الإسلام »، وقد اعتمد أكثر ما اعتمد على القرآن الكريم . فكانت آياته البينات هي الركيزة التي اعتمد عليها في كتابة الدعوة الإسلامية ورسالة الإسلام في أوضح صورها وأبهى مقاصدها .

وفصول الكتاب متتابعة متماسكة تصور للقارئ حقيقة الإسلام وروحه وأهدافه ونزعاته وأثره في الرقي العقلي وفي الحضارة الإنسانية .

فمن فصوله فصل عن معجزة القرآن . وعلى كثرة ما قرأت عن هذه الناحية مما كتبه المفسرون وبلغاء الكتاب لم أجد كاتباً أو مفسراً وفق في تصوير معجزة القرآن كما صورها طه حسين بإيجاز وبلاغة مستمدة من بلاغة وإعجاز القرآن .

وكأني به ، بإصداره هذه الكتب عن نشأة الإسلام ورجالاته ، أراد أن يرد ، بصورة غير مباشرة ، على أولئك الذين اتهموه في دينه ويقينه .

فحين لمع اسمه حاملا رسالة التجديد . هو وصفوة من إخوانه . أخذت الاتهامات الباطلة تنهال عليهم ، فاعتبروا رسالة تجديد التفكير ، والسير مع مقتضيات الحضارة ، والاستجابة لنزعات التطور ، وهز النائمين الذين يعيشون في الظلمات — اعتبر الجامدون هذه الرسالة من صميم الإلحاد والهرطقة . فاتهم هو ، كما اتهم الدكتور هيكل وكل من دعا إلى التجدد — اتهموا اتهامات باطلة . وما كانت رسالتهم إلا تجديد الفكر العربي ليلعب دوره في تاريخ الحضارة الإنسانية على أن يستمد جذورها من ينابيع الإسلام .

وإني لأذكر أن صحفياً كبيراً من إخواننا المتمصرين ، قد حمل لواء المعارضة والتهديم بطه حسين وصحبه ، قال لي مرة : إن هذا النفر من الكتاب أداة من أدوات التبشير والاستعمار ، وإنهم سيهدمون الإسلام باسم التجديد !

ولما قلت له : إنني أقرأ ما يكتبون، وأعي ما أقرأ، فلم أر في كل ما قرأته مما خطته يراعتهم كلمة تمس جوهر الدين ، بل العكس هو الصحيح . فهم يناضلون بحرارة عن تراثنا الفكرى ، ويهاجمون الاستعمار وأذنابه بضراوة — لما قلت له ذلك ، هز رأسه مغتاظاً وقال إنك واهم ، وهأنذا أعطيك المفتاح لتنفذ إلى طواياهم وخبيئة نفوسهم !

* * *

ومرت الأيام . .

وصدر لهيكل ولطه كتبهما الإسلامية ، فكانت الحجة الكبرى لدحض ترهات أولئك الأغبياء الذين يعرقلون سير الفكر العربى بإثارة هذه الاتهامات . .

ولم يتح لى أن أرى صاحب المفتاح لأقول له يا صديقى : لقد فتحت باب كتبهم على مصراعيه ، ونفذت إلى كل جملة وكل كلمة . ما ظهر منها وما استتر . فلم أجد إلا الإيمان المجسد والدعوة الصارخة إلى دين الإسلام الذى بشر بأعظم رسالة إنسانية فى تاريخ البشرية .

واتهام كل مفكر حر بعقيدته ، ورميه بالزندقة والإلحاد لوثة قديمة عرفتها كل العصور وكل الأمم ، ولا مجال للتبسط فى عوامل هذه اللوثة التى يثيرها الجامدون الذين تضيق أفهامهم لما تتسع له أفهام غيرهم الذين كلما ازدادوا اطلاعاً عظم إيمانهم وازداد يقينهم .

وقبل طه حسين اتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، بالكفر والزندقة ، ويروى الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو من أعلام المفكرين ومدرس الفلسفة الإسلامية فى جامعة مصر الحادث الآتى :

قال رحمه الله : « كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا عفا الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ، ويمثلونه خطراً على الدين داهماً ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ،

وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو أستمع إلى دروسه مع أنه كان صديق والدى ! وحضرت دروسه مرة لأشهد كيف تشوه وجوه الملحدين وتتشوه معها عقولهم وقلوبهم ، فلما رأيت الرجل بالرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك الوقت : اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين :

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

٢٤

ما تكاد تصل إلى مصر شخصية عالمية من المرموقين بدون أن تفكر فى زيارته قبل زيارة المعالم المصرية من آثار ومتاحف ومؤسسات حديثة وشخصيات .

فحين زارها الخبير العالمى فى شئون المكفوفين السير كلوتا ماكنزى كانت زيارة الدكتور طه فى طليعة برنامجه . . فلم يكد يضع قدمه على أرض مطار القاهرة حتى قال لمستقبليه : أريد أن ألتقى به . ذلك الرجل العظيم . ولما سئل من هو العظيم الذى يريد لقاءه قال : إنه الدكتور طه حسين .

وفى الفيلا الأنيقة التى يسكنها الدكتور طه حسين بالزمالك . وقف عميد الأدب العربى يستقبل الرجل الذى جاء يسأل عنه . ويقوده إلى غرفة الاستقبال الجميلة فى بيته .

ودار الحديث بين الضيف الكبير الذى فقد بصره فى الحرب الأولى . فاهتم بشئون العميان . وأخذ على عاتقه أن ينير الطريق أمامهم . ويدافع عن مصالحهم ، وأبدى عدة اقتراحات يراها كفيلة برعاية المكفوفين فى مصر . فناقشه الدكتور طه حسين بدقة . ودام اجتماعهما أكثر من ساعة .

وعندما انصرف السير ماكنزى من بيت عميد الأدب العربى سألناه رأيه فيه ، وكان قد بلغ سيارته . فتوقف عن السير واستدار نحونا . ثم قال : « أعتقد أن مصر يجب أن تفخر بالدكتور طه حسين . فهو

عبقرية فذة قل أن يجود الزمان بمثلها . . إنني أغبطكم يا سيدى لأنكم تعيشون على الأرض التى أنجبت طه حسين . كما أغبط نفسى لأننى تعرفت إليه » .

وفى اليوم التالى سافر الدكتور ماكنزى بالطائرة ليستكمل جولته بين المكفوفين حول العالم . وقبل أن تحلق به الطائرة ، قال : لقد اتفقت مع الدكتور طه حسين على أن أكتب له بمقترحاتى للنهوض بأبناء النور فى مصر ، وقد وعدنى بتقديمها إلى المسئولين . وكل أملى فى الدنيا أن يتمتع المكفوفون فى العالم بحقوقهم كآدميين . فيجب أن يكون حب المجتمع لهم وعطفه عليهم هو النور الذى يهديهم سواء السبيل . . ومن يدرى فقد يكون بين هؤلاء هيلين كيلر أخرى أو طه حسين آخر »[١] .

٢٥

وما أكثر تلاميذه فى مصر وفى الشرق العربى . وفى عواصم الغرب والشرق . سواء الذين تتلمذوا عليه مباشرة أو الذين أخذوا عنه وهم خارج الجامعة !

إنهم كثر يعدون بالمئات والآلاف . ولا أتزيد حين أقول بعشرات الآلاف ، فكل من اجتذبه الأدب وقرأ كتبه سار على نهجه . .

والدراسات المنهجية التى تغمر حياة الفكر ، سواء منها التى صدرت عن الجامعيين أو غير الجامعيين ، مدينة له ، أريد إلى مدرسته الأدبية التى فتحت آفاق البحث المنهجى الحر أمام الكتاب والباحثين .

ويتبوأ تلامذته اليوم المقام الأسمى فى بلادهم ، فما من بقعة من بقاع العربية من المحيط إلى الخليج ، إلا وفيها صفوة من تلاميذه يشغلون أرفع

(١) مجلة المصور ، أكتوبر عام ١٩٥٤ العدد ١٥٦٨ .

المراكز الثقافية ، ويحملون عبء تطور الأدب على النهج الذى رسم خطوطه . .

وفى صدد الحديث عن الأثر الذى تركه فى نفوس تلاميذه يقول الأستاذ رشدى صالح وهو أحدهم :

إن تلاميذ أديبك ، هم أحرص الناس على رواء اللغة الشريفة ، واستمرار مجدها ، وأكثرهم إنتاجاً فى أدبها ، وعلومها ، وأوفرهم درساً لها ، وبحثاً فى أسرارها . . فمنذ أن فتحت الجامعة أبوابها تخرج فيها أكثر الذين ينظمون الشعر ، ويؤلفون القصص والمسرحيات ، ويحملون أعباء النقد الأدبى ، ويسهرون الليل والنهار يدرسون بلاغتها وطرائق نطقها وتاريخها ، وميراثها العظيم .

وأكثر ما أخرجت المطابع من كتب ، ورسائل علمية . ومقالات سيارة ، كتبه هؤلاء الذين تعلموا على أيدى أساتذة الأدب السابقين على جيلنا .

وكم قلنا — فيما بيننا وبين أنفسنا — إن طه حسين ، فى جوهره ، يحمل صفات الفلاح الأصيل . . صلابة فى العزيمة ، ونفاذاً فى البصيرة ، ورغبة فى الخلق واستمرار الحياة .

وكذلك كان هؤلاء الأساتذة الأعلام الذين ملأوا الجامعة « حيوية وإنتاجاً وأقاموا تقاليد الدراسة والحياة ، فى هذه المنارات العالمية .

وتقول الدكتورة سهير القلماوى :

« . . ولقد علمنا طه حسين كثيراً غير العلم المدون فى الكتب علمنا كيف نعشق الآفاق الرحبة ، وكيف نفتح أذهاننا لكل جديد ولا نحكم على شىء إلا بعد أن نعرفه .

إن منهجه الذى يوصف بأنه منهج ديكارتى (نسبة إلى ديكارت الذى شغف طه حسين بفلسفته وتأثر بها دون شك) هو المنهج الذى صبغ طريقة

تفكيرنا نحن أيضاً زمناً طويلا تأثراً به . .

وعلمناطه حسين كذلك وبنفس القدر أن نحب الحياة فى تجددها ، وأن ننتصر لكل مظاهر الحياة على أى مظهر من مظاهر الجمود أو الشلل أو الموت .

إنه مشغوف بالتجديد ، محب للشباب ، مناصر للحياة المتجددة ، يكره الركود والجمود وتحجر الفكر . .

أما خلقيات الأستاذ فلقد صبغنا بصبغتها ، وما زلنا إلى اليوم نتوق إلى أن نكون مثله أو قريبين منه .

ما اعتذر عن درسه يوماً إلا مضطراً أشد الاضطرار ، وما دخل درسه إلا فى الميعاد وبالضبط دون إبطاء ، وما شرب سيجارة فى درس . ولا تحدث إلينا إلا فى الدرس وما يمكن أن يتعلق بالدرس من شئون حياتنا نحن لا حياته هو . . »

ويقول الدكتور شوقى ضيف :

« . . أما تلاميذه الذين كانوا يتلقون عنه محاضراته فقد ملأ قلوبهم فتنة بالبحث فيه بحثاً علمياً فنياً دقيقاً . وسرعان ما أخذوا يدرسون أنحاء حياتنا الأدبية القديمة والحديثة درساً قوياً خصباً ، ولم تمض سنوات طويلة حتى وضعت مذاهب أسلافنا الفنية فى الشعر والنثر ، موضع البحث وتوالت الدراسات فى أدبنا العربى القديم والمعاصر وفنونه المختلفة ، ودرست بعض الشخصيات الأدبية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية قيمة ، وأرخت بعض عصورنا الأدبية تأريخاً علمياً فنياً دقيقاً .

ونشرت بجانب ذلك نصوص أدبية كثيرة نشراً علمياً بديعاً ، وأخذت دراسات فقه اللغة العربية تنمو نمواً واسعاً .

ولعلى لا أبالغ إذا قلت إن كل الجهود الأدبية والعلمية التى نهضت وتنهض بها جامعاتنا إنما هى ثمرة طبيعية لأصول البحث الأدبى التى وطدها طه حسين بمحاضراته ومصنفاته ومقالاته التى بثها فى تلاميذه . ومضوا

يبثونها فى تلاميذهم ، مما يجعله بحق الرائد الموجه لنهضتنا العلمية فى الدراسات الأدبية » .

ونختتم هذا الفصل بكلمة للقصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور الذى إن لم يتتلمذ عليه فى الجامعة فقد تتلمذ ، كالكثيرين ، على كتبه ودراساته قال :

« . . أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة ، من دعوات وهتفات فى الوطنية والسياسة . وفى العلم والدين ، وفى الثقافة والأدب . فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة : مصطفى كامل . ومحمد عبده . وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد ، وأشباههم القليلين . أولئك الذين أوقدوا نار الثورة . وأضاءوا منار الحرية ، وحملوا لواء التقدم والتطور . وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة فى عصرنا الحاضر . .

فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصبغة فنان .

وقد التأمت هذه العناصر فى شخصية كمنت فيها بذرة النبوغ منذ البداءة وظلت تؤتى ثمرها على الأيام ولا تزال . .

بالفكر المستقل استطاع " طه حسين " أن يبث فى حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه . ويبعث فينا نزعة التجديد بأكرم ما تشير إليه .

وبالروح الخيرة مضى "طه حسين" يرسم لنفسه سلوكًا إنسانيًا رفيقًا . لم يحد عنه حين جرى قلمه بتصوير الحياة والأحياء ، وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعى فى أصالة وصدق . .

وأما صبغة الفنان فى شخصية "طه حسين" فهى ميسم يطبع أعماله الأدبية جميعًا ، حتى ما كان منها خالصًا للبحث والدرس . . مما يفتقر إلى التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج .

وأغنى بتلك الصبغة فيه ألا يتناول موضوعاً ، ولا يرسم صورة ، إلا كان فيما يتناول وما يرسم فناناً أصيلا يواتيه الخلق والابتكار ولا يكاد يخطئه أو يخلفه . .

وبهذه الصبغة التى استيسرت له أصبح "طه حسين" أغنى كتّاب عصره عن أن يعلن اسمه بين ما ينشر له . . ذلك بأن أسلوبه طعماً ومذاقاً ، بل اللفظ والعبارة . إنما هو أسلوب أديب فذ . ينفرد بخصائصه . ولا تخفى ملامحه . هو أسلوب نابغة أدبنا العربى طه حسين » .

٢٦

ميزة الوفاء لأصدقائه وزملائه وتلامذته هى بعض خصائصه النبيلة ، وقد عاش والمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد أعنف الأزمات التى مرت بتاريخ مصر السياسى والفكرى فى منتصف القرن العشرين . وكان لكل واحد منهما وجهة نظره ، ومع تباين وجهات النظر التى كادت تصل إلى حد الخصومة كانا يلتقيان عند هدف واحد وهو الحرص على إعزاز دولة الأدب ورفع رايته العالمية .

وكان لكل جهبذ من هذين الجهبذين روّادهما المخلصون . وكثيراً ما كانت تثور بينهم المناقشات ويثور الجدل . فما تكاد تفرغ جعبتهم من هذر الكلام وثرثرته حتى يضحك الجهبذان من حماسة الرواد ، ويلتقيان كأصفى ما يكون الصديقان الحميمان . .

وقد شهد تاريخ الأدب المعاصر عنف هذه الخصومات الأدبية ، فكانت شخصية كل واحد منهما هى هى فى تألقها وسطوع نجمها .

وكان القراء هم الذين يكسبون من وراء هذه الخصومة التى كلما نفخ فى نارها ازدادت نوراً وبهراً .

لقد عاشا منفردين ومتصلين معاً .

إذ لكل واحد نهجه وأسلوبه ومزاجه .

فثقافة العقاد سكسونية ، وطه حسين لاتينية ، وإن كانت العربية هى الجذور العميقة لثقافتهما التى حددا بها أسلوب الكتابة ونمط التفكير .

وكثيراً ما ثار الجدل بينهما فى جلسات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فكان العقاد ، رحمه الله ، يندفع كالبركان الثائر فى شرح رأى من آرائه ، وكان يتمسك به كأنه آية منزلة ، وهو شديد الاعتزاز بنفسه لا يلين ولا يتراجع ، ويستمع الأعضاء ، ويدلى كل واحد برأيه ، حتى إذا اشتد الجدل انبرى الدكتور طه يتحدث بهدوئه المتميز وبيانه الساحر ، ونبرته العذبة ، واستطراداته التى تستمد وقائعها وقوتها من آدابنا الأصيلة ومناهج الآداب العالمية ، ويستمع العقاد فتهدأ ثائرته . ويعود الجدل ، وما هى إلا لحظات تطول أو تقصر حتى تتلاقى وجهات النظر ، وإن اختلفت الطرق التى سلكت إليها .

شأن العقاد فى المجلس الأعلى كشأنه فى المجمع اللغوى لا يكادان يختلفان حتى يتلاقيا كأصفى ما يكون اللقاء .

وهذه بعض صفات الموهوبين الذين تمتلئ نفوسهم بالحب والصفاء ، وتخلو من الحقد والبغض والضغينة .

* * *

مرت بى هذه الخواطر وأنا أقرأ الكلمة البليغة التى رثى فيها طه حسين زميله العقاد .

كان العقاد قد انقطع عن جلسات المجلس لمرض ألم به ، وقد قلق طه حسين بصفته رئيس المجلس لمرض هذا الزميل ، فلم يكد ينعاه الناعى حتى ذهل وحزن ، وعبر فى كلمة بليغة عما كان يكنه لهذا العملاق من صادق الحب وبالغ التقدير ، فى الوقت الذى كان البعض يظنون الظنون

فى صداقتهما وسماحة خلقهما .

وأثبت نص هذه الكلمة الصادقة التى فاض بها قلب الدكتور طه ؛ فهى نثر دموع أكثر منها كلمة رثاء ؛ لأنها تصور بعض ما يكنه عميد الأدب لعملاق الأدب ! !

قال :

وكذلك فارقتنا أيها الأخ الكريم . والصديق الحميم والزميل العزيز . . فارقتنا فجأة على غير أذان لنا بهذا الفراق ، وعلى غير انتظار من عوادك وأطبائك ، ومن أهلك الذين كانوا يحوطونك بعنايتهم ورعايتهم . . والذين كنا نسألهم عنك فلا نسمع منهم إلا خيراً أى خير . .

كانوا ينبئوننا بأن صحتك تتقدم فى اطراد ، وأنك توشك أن تسترد العافية كاملة والنشاط موفوراً . ولقد سألتهم حين تقدم الليل فأنبأونى بأنك على خير حال وبأنك تستريح من مرضك بعد أن انجلى هذا المرض . . ولقد سعدت بذلك السعادة كلها . واستبشرت به كل الاستبشار ، وعرفت أن الملتقى فى « مجمع اللغة العربية » قريب ، وأن زملاءك جميعاً سينعمون بهذا اللقاء وسيسعدون بمشاركتك لهم فيما ينهضون به من الأعباء . .

ولكنى أصبح فإذا النبأ يفجؤنى فيقع على موقع الصاعقة . وأقسم لقد ذهلت له ذهولا أفقدنى الشعور بمن حولى ، أو كاد يفقدنى هذا الشعور . . وقد احتجت إلى وقت غير قصير وعناية متصلة لأثوب إلى نفسى أو لتثوب نفسى إلى . ولقد لبثت ساعات لا أصدق هذا النبأ ولا أطمئن إليه حتى بعد أن رأيته فى كل صحف الصباح .

وأنا مع ذلك أعلم أن الموت حق وأن كل نفس ذائقة الموت كما يقول الله عز وجل . .

ولكنى لم أكن أنتظر أن تسرع إليه أو أن يسرع إليك على هذا النحو ، وقد كنت أقوى الناس قوة وأعظمهم نشاطاً وأخصبهم حياة

وأبعدهم عن مظاهر الضعف والفتور . ولكن الشاعر قد صدق كل الصدق حين قال :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

أجل أيها الأخ الكريم : لقد عرف الموت كيف يختار حين صوب سهمه إليك ، وسهام الموت لا تخطئ الغرض :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

إيه أيها الأخ الكريم ؛ إن موتك لم يفجع أسرتك وحدها ، ولا وطنك وحده . وإنما فجع العالم العربى كله . فقد كنت علماً من أعلام العروبة الشاهقة ، ونجماً من نجومها المشرقة ، ملأت الدنيا أدباً وحكمة وفلسفة وعلماً .

تألق نورك بين مواطنيك منذ شبابك الأول ، وما لبث أن تجاوز وطنك وأشرق على العالم العربى كله ، ثم لم يلبث أن تجاوزه إلى المعنيين بشؤون الأدب العربى فى جميع أقطار الأرض حتى كأن الشاعر العربى القديم إنما رثاك بقوله :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وما أدرى عن أى جانب من جوانبك يمكن أن يتحدث عنك الذين يأخذون فى رثائك أو فى الترجمة لك . أعن نضالك السياسى الذى لم يعرف هوادة ولا لينا ، ولم تصرفك عنه الأحداث ولا الخطوب ، ولم يثنك عن المضى فيه رغب ولا رهب ؟ أم عن تجديدك فى الأدب شعراً ونثراً ونقداً ؟ أم عن تعمقك للتاريخ الإسلامى ، وإتقانك تصوير أعلام الإسلام ؟ أم عن اقتحامك لمشكلات الفلسفة ونفوذك إلى لبها ؟ أم عن تزودك من العلم على اختلاف ألوانه حتى ناظرت العلماء المتخصصين والمتفوقين ؟ أم عن نفسك السمحة وروحك العذب وذوقك الصفو ؟ أم عن خلقك الكريم وسيرتك النقية ؟ أم عن وفائك للصديق وإنصافك للخصوم ؟ أم عن إيثارك للكرامة وحرصك عليها ومبالغتك فى هذا الحرص ؟

كل جانب من هذه الجوانب الكثيرة يحتاج إلى حديث طويل مفصل أى تفصيل ، وما أحسب الذين يصفون جوانبك هذه كلها أو بعضها يبلغون الغاية من وصفها .

وما أعرف جملة تختصر جوانبك هذه كلها فى إيجاز ودقة وصدق إلا هذه الجملة التى أرسلت عن المتنبى فقيل عنه : إنه ملأ الدنيا وشغل الناس !

أنت أيها الأخ الكريم ، والصديق الحميم ، والزميل العزيز ، ملأت الدنيا حقًا وشغلت الناس حقًا . وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم فى حياتك .

ما أشد ما كان بينك وبينى من خصام فى السياسة أحيانًا ، وفى الأدب أحيانًا أخرى ! وما أحلى ما كان بينك وبينى على ذلك من مودة وإخاء ووفاء !

لقد أغضبت الأحرار الدستوريين ذات يوم حين قرأت كتابًا من كتبك فراقنى وأعجبنى . ولم أملك أن كتبت عنه فى السياسة مقرظًا ومثنيًا . فغضب من غضب ، وسخط من سخط ، ولكن الحق كان فوق غضب أولئك وسخط هؤلاء .

ولقد ثار النواب الوفديون ذات يوم ، وألح متكلموهم أشد الإلحاح فى إبعادى عن الجامعة . وكنت أنت النائب الوفدى الوحيد الذى دفعه حب الحق وإيثار الوفاء إلى أن يقوم بين زملائه مدافعًا عنى .

فغضب من غضب يومئذ ، وسخط من سخط . ولكنك جعلت الحق فوق غضب أولئك وسخط هؤلاء . وما أكثر ما كنا نختصم فى « مجمع اللغة العربية » ، ويشتد بيننا الخصام ، ويحاول الزملاء أن يهدئوا من حدته فلا يبلغون شيئًا . ولكننا نلتقى بعد ذلك أخوين متحابين كأن لم تكن بيننا مشادة وكأن لم يكن بيننا خصام .

فى ذمة الله أيها الأخ الكريم ! لقد فارقتنا على غير وداع ، واختطفك

الموت من بيننا فجأة كأنه اختلسك منا اختلاسًا، ولكن أمثالك تموت أجسامهم . لأن الموت حق على الأحياء جميعًا، ولكن ذكرهم لا يموت لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضًا. وسيوارى شخصك الكريم فى أطباق الثرى، ولكن القبر الذى سيحتوى شخصك لن يستأثر بك . فلك فى قلوب الذين يحبونك والذين ينتفعون بأدبك وعلمك ذكر لن يموت إلا بموتهم، ولكنهم لن يستأثروا بذكرك وإنما ستشاركهم فيه الأجيال التى تبقى ما بقى الدهر . .

إنا إلى الله راجعـــون لقد أصبح حزنى عليـــك ألوانا
حـــزن اشتياق وحزن مرزأة إذا انقضى عاد كالذى كانا (١)

* * *

هذا الرثاء الصادر عن شعور صادق يدحض الإرهاصات التى يتنادر بها بعض الأدباء والمريدين فى مجالسهم الخاصة عن الخصومة بين العملاقين .

ولا علينا أن نثبت هنا بعض كلمات العقاد ، رحمه الله ، فى أدب طه حسين . وقد عرف العقاد طوال حياته بالصراحة والبعد عن المداجاة والنفاق ، كما عرف الدكتور طه بهذه الخصال النبيلة ، ولكليهما مواقف واضحة فى التعبير عن آرائهما بدون جمجمة أو التواء . .

فمن كلامه عن أسلوب طه حسين وثقافته الأدبية قوله :

إنه اطلع على الأدب العربى القديم اطلاعه الواسع الذى لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الإغريق واللاتين الأقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الأدباء الأوربيين ولا سيما الفرنسيين . كل أولئك

---

(١) فاضت روح الأستاذ العقاد فى الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة الثالث عشر من شهر مارس عام ١٩٦٤ .

خليق أن يحبب إليه الصحة والمتانة والقوة ويبغض إليه الزيف والسخف والركاكة ، فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين وينبذ ما يستطيعه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل ، أو أصحاب الذوق السقيم ، وله فى ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد إلا بما يرضاه .

فالدكتور صحيح الأصول فى النقد . وهو رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدى ، يستفيد مما يقتنع بصحته ، ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابى بعد دراسته للأساليب الأوربية ، فاتخذ له نمطًا يوافق علمه بالعربية الفصيحة ، وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل فى الكلام الأوربى ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة فى وقت واحد ، فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعًا ، وأولها من نوعه فى اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر فى اللغة الأوربية .

ولو كانت كتابته حديثًا محضًا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرار ، ولو كانت تقريراً محضًا أو درسًا محضًا لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذى لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أو درسًا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الأوربية ، ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الأزهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم فلا يوافقها إلا ذلك الأسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ، ولأجل هذا الابتداع يغتفر ما فى كتابة الدكتور من إسهاب وتكرار .

وقد أفاد بأسلوبه هذا عمل من لم يفدهم الرأى ولم تقنعهم المناقشة ، فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ

وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع . ورأوا كاتباً كبيراً يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة فى غير قيودها القديمة . وألفوا تعديد الأساليب وطرائق التعبير إلى غير انتهاء .

وذلك وحده فتح قدير .

* * *

وفى صدد أسلوب طه حسين يقول خليل ثابت صاحب « المقطم » ورئيس تحريرها :

المصرى محدث بارع . ينقل المخبر الصحافى المصرى الخبر فيرويه عليك فتستطيبه وتطرب . وإذ يحمله إليك مكتوباً تكون قد ضاعت روعته بين القلم والورق ! وشاء الله أن يزف إلى مصر أديبها الأكبر مكفوف النظر . فكانت الطريقة المحتومة عليه فى الكتابة أن يحدث هو . وأن يسجل الحديث . فطابقت براعة الكاتب فيه براعة المحدث . وكان أسلوب طه حسين الكتابى أسلوب الحديث . ومن خصائص هذا الأسلوب أن يمضى فيه صاحبه عفو الخاطر الدافق . سهلا لين المراس مسرعاً مستمهلاً . مستوقفاً مستفهماً جازماً ، ساخراً جاداً قافزاً مستطرداً مردداً معيداً ، همه الأول أن يظل ظافراً بانتباه القارئ فلا يدع أذنه تفرغ من نبرة الصوت وتسكاب الكلام ، ولو جر ذلك إلى تجمد المعنى فى اضطراد اللفظ . أو جر إلى تعمد خلق المفاجآت .

* * *

عرفت النهضة الفكرية المعاصرة علمين من أعلام التجديد هما الدكتور محمد حسين هيكل — رحمه الله — والدكتور طه — أمد الله فى عمره . . وبالرغم مما بينهما من مودة خالصة وإخاء أكيد منذ عهد الشباب ، أى منذ بداية عهدهما بالكتابة تحت إشراف أستاذ الجيل المرحوم أحمد لطفى السيد — بالرغم من هذه المودة الخالصة والإخاء

الأكيد كانا على خصام دائم — خصام محبب إلى نفوس القراء ، فما يكاد يكتب هيكل فى موضوع ما حتى ينبرى طه لنقده ، أو بالعكس . ويذكر الكثيرون من زملائهما موضوع « الحضارة والحرب » الذى أثاره طه على صفحات جريدة « السفور » سنة ١٩١٥ . أى فى بدء الحرب العالمية الأولى . وهل الحرب أداة للتطور الحضارى أو عامل لتدمير البشرية وإفنائها . وقد ابتدع هذا الحوار ليخلق فى الأدب العربى الحديث فن الجدل . فأخذ جانب الحرب وفضلها على الحضارة رغبة منه فى الجدل ، فى حين أخذ هيكل الجانب الثانى (١) .

وهكذا ، فقد كانا يتصاولان دائمًا فى رحاب الفكر . ويكتبان بحوثًا طيبة فى الأدب المعاصر ، والنزعات الجديدة ، وكان القراء هم الرابحين كما قلت .

وكان الدكتور طه يتهم الدكتور هيكل بعدم امتلاكه ناصية اللغة . وكان هيكل يتهم طه بلغته الأزهرية التى لاتستوعب المعانى الجديدة ، وسألت الدكتور هيكل يومًا عن أدب طه فقال : وأرجو ألا تخونى

---

(١) فمن أقوال طه : « مثل الحرب مثل الديمة الغزيرة ترسلها السماء من غير حساب فتتفرق هنا الجموع المحتشدة ويستتبع ذلك كثير من المضار ، ولكن السماء لا تكاد تقلع ، والماء لا يكاد يغيض ، حتى تكتسى الأرض حلة خضراء بهيجة فيها للحياة العقلية والجسمية مادة صالحة موفورة النفع . وذلك مثل الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر وتروى الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء . ولكن ما تكاد الدماء تجف حتى يهب الإنسان من وقفته الخائرة ، وإذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء . .

فليست الحرب كما يظن البعض نذيراً يؤذن بكساد المدنية وإفلاس الحضارة . وإنما هى آية تغير فى الحياة الإنسانية ودليل انتقال من حال إلى حال ، أظهر منها نفعاً وأقرب إلى الكمال .

وقد رد هيكل ناقضاً رأى طه مصوراً نتائج الحرب فى الخراب والتدمير .

ذاكرتى بنص تشبيهه : إن أدب طه كصنبور الماء لا تكاد تفتحه حتى ينهمر انهماراً بماء ثرّ عذب ، أو كزرّ الكهرباء لا تكاد تضغط عليه حتى يشع بباهر الأنوار من الأضواء . .

لقد عملا معاً فى « الجريدة » و « السفور » و « السياسة » اليومية والأسبوعية . ولكل واحد نهجه وأسلوبه ، ثم التقيا فى وزارة المعارف : هيكل وزيراً وطه مستشاراً ، ويدخل المرؤوس على رئيسه فإذا هيكل برم بالجو الوزارى . ضيق الصدر بالرغم مما عرف عنه من طول البال وسعة الصدر . . فالموظفون هم هم . مطواعون أمام رئيسهم . كبيرهم وصغيرهم . لا يكاد يبدى رأياً حتى يسمع من الجميع كلمة « نعم » ، وهو يريد أن يسمع من أحدهم كلمة « لا » ، أن يناقشه وينقض رأيه ، ويجيبه طه : هون عليك . . فهأنذا أقول « لا » . .

ولنترك للدكتور طه أن يشير إلى هذه المداعبة التى جرت عرضاً فى رثائه لصديقه . وكان رثاؤه قطعة سامية من أدب الرثاء . يتجلى فيه صدق العاطفة ونبل الوفاء :

« . . ولقد كان هيكل زميل الشباب وصديق الكهولة وأخا الشيخوخة . تعارفنا حين كنا ناشئين فى مكتب أستاذنا " أحمد لطفى السيد " عندما كان مديراً للجريدة . كنا نختلف إليه فى الضحى بين حين وحين . فنشهد عمله فى إدارة الجريدة وتحريرها . ونسمع أحاديثه العذبة فى السياسة والفلسفة والمنطق . وفى الأدب العربى أيضاً ، وكنا نتخذه نموذجاً لأنفسنا ، ونقيس المثل الأعلى به عندما كنا نطمح إلى المثل الأعلى فى الحياة . وعرفته حين كنا تلميذين فى الكتابة الأدبية والصحفية لأستاذنا أحمد لطفى السيد ، كان كلانا يكتب فى الجريدة . كان طالباً فى كلية الحقوق ، وكنت مجاوراً فى الأزهر ، ثم طالباً فى الجامعة المصرية . وافترقنا حين ذهب هو إلى فرنسا ، ليتم فيها درس الحقوق ، ثم التقينا وقتاً غير طويل ، ثم افترقنا بعد ذلك حين ذهبت أنا إلى فرنسا لأتم درسى للآداب ،

ثم عدنا فالتقينا مرة أخرى ، ثم اشتركنا معاً فى العمل فى جريدة " السياسة " . . كان لى رئيساً أو كان لى زميلا ، فلم يعرف قط للرياسة معنى ، وإنما كان هيكل صديقاً للذين يعملون معه سواء أكان رئيساً أم مرؤوساً . كنا نلتقى مساء كل يوم ، فنتحدث ويجادل بعضنا بعضاً فى تحرير صحيفة الغد ، ثم نقتسم ما يكتب فى هذه الصحيفة من الفصول ، ويخلو كل منا إلى فصله ، حتى إذا أتمه التقينا فقرئ ما كتبه كل واحد منا . وأقررناه جميعاً . وربما أصلحنا فى هذا الفصل أو ذاك ، ثم تصدر جريدة السياسة بعد غد ، يرأس تحريرها هيكل ويشترك فى تحريرها نفر من أصدقائه وزملائه .

وكانت هذه الفترة فترة خطيرة فى تاريخ الحياة المصرية ، كانت فترة الصراع بين المصريين والإنجليز ، وكانت فى الوقت نفسه فترة الاختلاف بين المصريين حول وسائل هذا الصراع وحول وسائل التخلص من الإنجليز ، وكنا نخاصم الإنجليز أحياناً . ولكنا كنا نخاصم المصريين فى تلك الأيام أكثر مما كنا نخاصم الإنجليز ، صرفتنا الاختلافات بين الأحزاب عن الاختلاف بيننا وبين العدو المحتل ، وكنا نستبق فى خصومة الحزب الذى كنا نناضله وننافسه . وكنا نستبق أشد استباق : أينا يكون أنفذ قلماً وأمضى لساناً وأشد نيلا من خصمه . .

وكنا نساق إلى المحاكم ، فكان يقضى علينا حيناً ، وكنا نبرأ أحياناً . ولكننا كنا نثبت دائماً فى الخصومة ، ولا يزيدنا الاضطهاد إلا قوة وشدة ومضاء . .

وعرفت " هيكلا " بعد ذلك وزيراً للمعارف ، وعملت معه زميلا وصديقاً . وأذكر أنى كنت معه ذات يوم فى مكتبه فى وزارة المعارف ، ورأيته متبرماً ضيق الصدر ، لأن أحداً من الموظفين فى وزارته لا يستطيع أن يقول له " لا " فقلت له : أرأيتنى قلت لك يوماً " نعم " ؟

فقال : أما أنت فلم أسمع منك قط إلا " لا " .

قلت : فعز نفسك بـ« لا » هذه . وثق بأنك لا تسمع منى دائمًا إلا " لا " .

وأشهد ما التقينا قط إلا اختصمنا ، ولكنه اختصام الإخوة والأصدقاء .

كنا نلتقى فلا تمضى ساعة أو بعض ساعة حتى نختصم ، وكانت الخصومة التى كنا نؤثرها هى الخصومة حول كتابته وكتابتى .

كنت أتهمه بأنه لا يحسن العربية . وكان يتهمنى بأنى أحسن العربية وأخطئ المعانى .

كان يقول : إنك تبلغ من تنميق اللفظ ما يشغل قراءك بألفاظك .

وكنت أقول له : ولكنك تبلغ من العناية بالمعنى ما يصد قراءك عن قراءتك ، لأن لفظك لا يروقهم . .

فكنا نختصم دائمًا فى هذا ، ولم نكن نمل هذه الخصومة . .

وكان آخر عهدى بهذه الخصومة حين التقينا ذات مساء . وقد أصدر قصته الأخيرة « هكذا خلقت » .

فقلت له : سأكتب عن هذه القصة .

قال : سأحتاط لما تكتب .

قلت : أفتريد أن أهاجم لغتك ؟

قال : أما هذه فدعها بينك وبينى ! »

وحين كتب عن هذه القصة كتب بحثًا مطولا لخصها أبرع تلخيص فمدح أسلوب هيكل الذى لا يتحدث إلى القلب والشعور وحدهما ، ولا يتحدث إلى العقل وحده ، ولكنه يتحدث إلى هذه الملكات كلها ، ويتحدث إلى السمع بلفظ سهل عذب نقى بريء من التبذل والابتذال ، وبريء من التعقيد والتكلف ، ومن النصح البغيض . وبعد أن ناقشه فى بعض النقاط التى جاءت فى صلب القصة أخذ عليه بعض الهنات من لغته فقال :

« . . وملاحظة أخيرة أذكرها ولا أقف عندها وهى أن صديقى هيكلا لم يرد أن يخلف ظنى به فيما يظهر . فقد كنت أغيظه أيام الشباب بأنه يهمل الاحتياط للغته العربية بين حين وحين . وكان يرد على بأنى لا أحسن العربية ولا أجيد كتابتها . وهو قد وفى بحقه على فإنه يهمل فى غير موضع حق اللغة ليتيح لى أن أذكره بأيام الشباب . ومن يدرى لعله يحمل هذا الإهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين . وما أكثر ما يحمل على المطابع والمصححين ! وهو على كل حال لا يستطيع أن يحمل على المطبعة ولا على المصححين إسرافه فى استعمال اسم الإشارة الذى طالما عبثت به من أجله لأنى أراه منافراً بعض الشىء للذوق المصرى الحديث ، وهو "هاتيك" وما أكثر "هاتيك" فى قصة هيكل . ولو قد وضع مكانها "هذه" أو "تلك" لكان له فى إحدى هاتين الكلمتين مقنع وغناء » .

* * *

ولنترك موضوع لغة هيكل إلى كلمة « لا » التى كانت تثيره وجواب طه عنها . . فمن سجوف هذه الدعابة اللاذعة أو هذا التحدى الصارم ترمز « لا » إلى ما تنطوى عليه نفسية هذين الأديبين العظيمين من شمم وإباء وحرصهما الشديد على أن يقولا ويسمعا كلمة الحق عالية مدوية فى جميع المناسبات وحتى فى أعصب الظروف . .

طه حسين فى شتيت من آرائه

عاش طه حسين تيارات عصره بكثير من الجرأة والإخلاص ، يهدم ويبنى ، ينقد بقسوة ، ويداوى برفق ويقول كلمته الواضحة بدون أن يتلجلج لسانه أو يضطرب جنانه مهما ادلهمت الأمور وعظمت الخطوب . .

لم يمنعه جوه الجامعى وبيئته الأدبية التى عاش سنواتها الطوال تلميذاً

وأستاذاً وعميد كلية ومدير جامعة ووزيراً ورئيس لجان وعضو مجامع علمية وممثل حكومته فى هيئات ثقافية عليا ، عربية وأجنبية — لم يمنعه كل ذلك أن يشارك فى أحداث عصره بمقالاته ومحاضراته وكتبه وندواته ، يرقب تياراتها وملتوياتها واصطراع أهوائها برهافة حس الأديب وزكانة المفكر الأريب وعظمة الإنسان الحر المتمرد على كل وضع شاذ .

فحين يتناول موضوعاً من الموضوعات العامة لا يهجم عليه مباشرة بل يمهد له بحوادث وقصص من التاريخ البعيد : تاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ الفرنسيين والعرب ، فيعكس صور تلك الأحداث على ما يواجه قومه ، وتكون الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية تارة مادة خصبة يرتكز عليها موضوعه ، فإذا مهد لقارئه بهذا التسلسل التاريخى والفكرى هجم على الموضوع وخرج منه بنتائج ذات أثر ملموس .

ومقالاته التى انتظمتها بعض كتبه — وهى مقالات كتبت فى زحمة الأحداث — مليئة بهذه الألوان التى أثارت القارئ العربى الذى تابعه خلال نصف قرن بلذة وشوق ، فيجد فى جمال أسلوبه وجمال عرضه لذة ما بعدها لذة ، ومتعة ما بعدها متعة .

وهو فى جميع كلماته يعطى العقل المكان الأفضل لمعالجة الأمور بروية ووضوح واتزان . .

ولا بأس أن نمر مروراً سريعاً بشتيت من آرائه فى بعض هذه الأحداث التى مر بها الإنسان العربى فنلمح نفساً سمحة وعقلا يقظاً وفكراً ملتمعاً وقلباً يخفق بحب الخير والحق والعدالة التى تصون حقوق الإنسان وكرامة الإنسان . .

وإذا كانت هذه الصفحات تضيق عما كتبه فى شتى الأحداث السياسية والاجتماعية ، أحداث البيئة العربية وأحداث العالم المترامى الأطراف ، فلنقصر هذه الكلمات على شئون الأدب والفكر ، وشئون الحياة العقلية التى أعطاها الكثير من أدبه وعلمه . .

فى صدد مقارنة أدبنا بالأدب اليونانى . وهو به ضليع . أشار إلى أن الأدب اليونانى القديم قائم بذاته ، حى بنفسه . فى حين أن أدبنا ظل متفاعلا مع الأمة العربية فى عصور كفاحها الطويل . . قال :

« وفى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة لعله أراد أن يشارك فيها غيره من الآداب الكبرى قديمها وحديثها . ولكنها تستبين على نحو أوضح وأجلى مما تستبين فى غيره من الآداب . فقد عمر الأدب اليونانى القديم قرونًا طوالا ، ثم ألقى بينه وبين الناس ستاراً . فلما استأنفت الأمة اليونانية الحديثة حياتها المعاصرة أنشأت لنفسها أدبًا مهما تكن الصلة بينه وبين الأدب القديم فهو ليس جزءاً منه ولا استمراراً له ، فالأدب اليونانى القديم إذن حى بنفسه ، أريد أنه لا يستمد حياته من أمة حية ، تنميه وتقويه وتضيف إليه . وإنما يستمد حياته من هذه الشخصية القوية التى وهبها له اليونان القدماء . . فنحن حين نقرأ آثار هوميروس أو بندار أو أفلاطون لا نفكر فى الأمة اليونانية المعاصرة ، ولا نصل هذه الآثار القديمة الخالدة بما تنتجه من الشعر والنثر . وإنما نقرأ هذه الآثار وغيرها ، ونفكر فى الأمة القديمة التى أنتجتها . .

« . . أما أدبنا العربى فقد عمر بضعة عشر قرنًا إلى الآن . واختلفت عليه فى أثناء هذه القرون خطوب كثيرة متباينه وجهته ألوانًا من التوجيه ، وأخضعته لضروب من التطور ، ولكنه ما زال حيًّا قويًّا يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ، ويستمد حياته وقوته من هذه الأجيال التى لا تزال حية محتفظة بفضل من قوة ، والتى لا تزال ترعاه وتكلؤه وتنفخ فيه من روحها كما تستمد منه قوة وأيداً ، فهى تمنحه وتأخذ منه ، وهى تعيش عليه وتعيش له وتعيش به ، شأنها معه كشأنها مع ما يقوم حياتها المادية من الأرض والجبال والأنهار . فالحياة الزمنية للأدب العربى لم تنقطع ، ويظهر أنها لن تنقطع ، والصلة بينه وبين الأجيال المعاصرة فى بلاد الشرق العربى من الخليج إلى المحيط وفى بيئات عربية متفرقة هنا وهناك

فى أقطار العالم القديم والعالم الجديد — هذه الصلة ما زالت قائمة متينة خصبة ، كالصلة التى كانت بين الأدب العربى والأمة العربية أيام المتنبى وأبى العلاء . . ونتيجة هذا كله أن فى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة قوية بينة شديدة الوضوح ، تمكننا من أن نلاحظه ملاحظة مباشرة ، ونستقصى أطواره استقصاء حسنًا . فنحن نستطيع أن نبدأ هذه الملاحظة منذ أواخر العصر الجاهلى ، وأن نساير الأدب فى هذه الطرق الطويلة العسيرة المتفرعة الملتوية التى قطعها مسرعًا مرة ، مستأنيًا مرة أخرى ، متثاقلا مرة ثالثة أثناء هذه القرون الطويلة ، حتى انتهى إلينا مثقلا بهذا التراث العظيم المختلف المتباين ، الذى يشتد بين أجزائه وعناصره التباين والاختلاف .

* * *

« فالظاهرة التى يمتاز بها أدبنا والتى تمكننا من درسه وتتبع أطواره ، هى أنه قديم جدًّا ، وحديث جدًّا قد اتصل قديمه بحديثه اتصالا مستقيمًا لا انقطاع فيه ولا التواء ، ففيه خصائص الآداب القديمة ، وفيه خصائص الآداب الحديثة ، وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه . وما يغنينا عن كثير من الفروض .

« أدبنا العربى كائن حى . أشبه شىء بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء ، والتى مضت عليها القرون والقرون . وما زال ماء الحياة فيها غزيراً يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض وفى فروعها الشاهقة فى السماء . . »

« فلغته المعربة الفصحى مقوم أساسى من مقوماته . أو هى المقوم الأساسى الأول بين مقوماته . وقد انحرف كثير من الناس فى العصور القديمة ، وفى هذا العصر الحديث عن هذه اللغة المعربة الفصحى ، فأنتجوا آثاراً فيها لذة وفيها متعة ولكننا لم نعدها أدبًا ، ولم نر فيها سبيلا إلى هذه المرتبة التى نضع فيها هذه الآثار الرائعة ، والتى نستمد منها غذاء القلوب والعقول والأرواح ، وربما كان مما يفسر ذلك ويؤيده أن أدبنا العربى لا يهمل

الأسماع إهمالا قليلا أو كثيراً . وإنما يعنى بها أشد العناية . فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدبًا مكتوبًا مقروءاً . وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به . ويلذ الأذن حين تسمع له ، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه» .

« وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته . ورقة الأسلوب ورصانته ، وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه ، ويزين فى الأذن وقعه — أساسًا لكل هذه الخصال » .

* * *

« . . وليس من شك فى أن توحيد الأمة العربية بظهور الإسلام قد أنشأ لها أدبًا واحداً . ووجه هذا الأدب توجيهًا جديداً . وليس من شك فى أن اصطدام العرب بغيرهم من الأمم قد أذكى فى نفوسهم وفى نفوس هذه الأمم خدمة الأدب والفن والعلم ، فامتلأت الأرض معرفة ونوراً بفضل هذا الاصطدام وما نشأ عنه من الاختلاط والامتزاج . ومن معرفة العرب لغيرهم من الأمم ومعرفتهم لأنفسهم ، ومن تعارف هذه الأمم فيما بينها وتعاونها راضية أو كارهة على ما كانت مضطرة أن تتعاون عليه من شؤون الحياة » .

« . . ليس من سبيل أن ننكر أن للأحداث الجسام والخطوب العظام أثرها البعيد فى حياة الناس ، ومتى تأثرت حياة الناس فقد تأثرت آدابهم ، لأن هذه الآداب آخر الأمر ليست إلا تعبيراً عن هذه الحياة وتصويراً لها ، فإذا تغير الأصل تغيرت الصورة ، وإذا تغير المعنى تغيرت العبارة التى تؤديه » .

* * *

« والظاهرة الخطيرة فى أدبنا الحديث هى هذه الكرامة التى كسبها الأدباء

لأنفسهم ولأدبهم والتى مكنتهم من أن يكونوا أحراراً فيما يأتون ويبدعون . هذه الحرية نفسها قد فتحت للأدباء أبوابًا لم تكن تفتح لهم حين كان الأدب خاضعًا للسادة والعظماء ، وقد أثرت ظروف التطور الإنسانى فى توجيه هذه الحرية فقد كان الأدباء القدماء يؤثرون السادة والعظماء بما ينتجون ، فأصبح الأدباء المحدثون يؤثرون أنفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون . وكذلك عكف الأدباء على أنفسهم فحللوها وعرضوها ، واستخرجوا من هذا التحليل علمًا كثيراً ومتاعًا عظيمًا ، وكذلك فرغ الأدباء لفنهم فجودوه كما يريدون وكما يستطيعون وكما يريد الفن ، لا كما يريد هذا السيد أو ذاك » .

« . . وكذلك عكف الأدباء على الشعب ، فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه ، ويعرضون نتائج هذا الدرس ، ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من آثار ، وهذا كله قد رفع الأدب إلى الصدق والدقة . وجعله إنسانيًا لا فرديًا ، ووضعه حيث وضعت الآداب الحية الكبرى نفسها بحكم التطور الذى دفعتها إليه ظروف الحياة الحديثة » .

* * *

« . . والكاتب المجيد عندى هو الذى لا أكاد أصحبه لحظات حتى ينسينى نفسى ، ويشغلنى عن التفكير ، ويصرفنى عن التعليل والتحليل والتأويل ، ويسيطر على سيطرة تامة تمكنه من أن يقول لى ما يشاء دون أن أجد من نفسى القوة على أن أعارضه أو أقاومه أو أنكر عليه شيئًا مما يقول . حتى إذا فرغت من قراءة أثره الأدبى واضطررت بحكم هذا الفراغ إلى أن أفارق الكاتب وأشغل عنه وعن أثره وقتًا ما ، استطعت بعد ذلك أن أعود إلى الأثر الذى بقى فى نفسى بعد القراءة ، فأفكر فيه وأخضعه للنقد أو التحليل والتعليل » .

* * *

« . . وليس فى التراث الإنسانى كله شىء يشبه القرآن الكريم فى

قويم الألسنة العربية حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة . والأجنبية حين تلتوى بلغاتها المتباينة . فالذين يحفظون القرآن فى الصبا . ويكثرون راءته ويجودونها أصح الناس نطقًا بالعربية . وأقلهم تخليطًا فيها . ومن جل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون كتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه، وتجويد قراءته . يرون فى ذلك حافظة على الدين وتقويماً لألسنة الصبية والشباب ، وكان الذين يحفظون قرآن أو شيئًا منه أجود نطقًا بالعربية حين يتكلمون وأجدر أن تمهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها . وقد أهمل حفظ القرآن وتمرين صبية على قراءته وتجويده فى المدارس الحديثة حينًا . فالتوت ألسنة شباب وفسد نطقهم وضاقوا بدروس اللغة فى مدارسهم ، ثم أعرضوا نها بعد الخروج من المدارس ، ثم مال كثير منهم إلى العامية فآثروها على فصحى وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم ، ولأمر ما عاد القائمون لى شؤون التعليم فراجعوا مناهج المدارس وبرامجها وجعلوا لقراءة القرآن حفظه فيها مكانًا مرموقًا .

« والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات لأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصور كثيرة ، ظروف مختلفة . فقد تفرقت كلمة المسلمين فى السياسة . وانحلت الخلافة عربية القديمة ، وخضع العرب لاستعمار الأعاجم ، حكمهم الفرس فى ار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قرونًا متصلة ، وجاء عصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبى الأوربى يقهرهم مرة لاستعمار والحكم المباشر لهم ، ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق فى الحضارة ادية والمعنوية جميعًا ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوربية إرضاء حكامهم من الأوربيين والتماسًا لما فى هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة ن ، وكان هذا جديراً أن يمحق اللغة العربية محقًا ، ويذهب شخصية لعوب العربية ، ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع ، وحال بين

الخطوب الجسام وبين التأثير فيها .

« حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ، ولأنه قوام حياتهم ، فقرأه عامتهم وخاصتهم ، وحفظوا منه القليل والكثير ، ودرسه علماؤهم فى المساجد والمدارس ، واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة ، واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه فى تعمق أن يدرسوا اللغة التى أنزل بها » .

« . . والقرآن كله من عند الله ، وهو وحدة فى روحه وإعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها .

« واختلاف مذاهب القول فى القرآن دليل قوى من دلائل الإعجاز . فللقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائمًا إلى أصول معينة : إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك على اختلاف صوره ، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن . والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن أجابوا دعوة الله . ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله . ثم هى يأمر الناس أن يقيموا حياتهم على هذه الأسس . حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرءون من الرذائل كلها كبارها وصغارها . فلا يضمرون فى أنفسهم منها شيئًا ، وحياتهم الظاهرة فيما يكون بينهم وبين غيرهم من الناس . فلا يظلمون ولا يستعلون ولا يؤثرون الشر وإنما ينبذونه ما استطاعوا إلى نبذه سبيلا ، ويؤثرون عليه الخير وحده فيحسنون إلى الوالدين و يتجنبون الإساءة إليهما حتى ولو كانا مشركين . ففى هذه الحال يخالفونهما إلى الإيمان ويعاشرونهما فى الدنيا معروفًا . ويبرون أولى القربى . ويرحمون اليتامى والمساكين . ويعطفون على الفقراء وأولى الحاجة . ويعدلون فى بينهم وبين نظرائهم من صلة . والناس جميعًا نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية .

« فالفقير نظير الغنى ، والضعيف نظير القوى ، والرقيق نظير الحر ، لكل حقوق يجب أن تؤدى إليه ، وعلى كل واجبات يجب أن يؤديها . والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوى العالم بكل شىء القادر على كل شىء ، وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين ، أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه ، وما يأتى من الأعمال وما يدع منها ، ومن أجل هذا يشرع الله للناس فى القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة . ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكاملة بينهم وبين الله ماعاشوا فى هذه الدنيا » .

* * *

« والنفس المطمئنة التى ذكرها الله فى سورة " الفجر " ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية ، وإلى أن تدخل فى عباده وتدخل جنته إنما هى هذه النفس التى صدقت فى إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت فى سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حربًا ظاهرة أو باطنة .

« وأما النفوس الأخرى التى لم تطمئن إلى إيمان ، ولم تستقم على ما أمرت به ، وإنما جارت عن القصد والتوت بها السبل ، فهى تظهر السلم وتضمر الحرب ، فتعلن الإسلام وتضمر الكفر ، أو تضمر الإيمان . ولكنها لا تثبت له ولا تقوى عليه ، وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات وتستجيب لشهواتها فتجور وقد أمرت بالعدل ، وتفجر وقد أمرت بالبر ، وتعصى وقد أمرت بالطاعة . .

« كل هذه النفوس محاربة لله حربًا خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

« وفى بيان ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى الشيخان :

"لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" ، يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب ، فلو قد استحضر الإنسان هذا الإيمان لصده عن الفواحش . ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلها فتجور بها عن الطريق ، ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحياناً فيندم ويأسى ، ويتوب إلى الله ويسأله العفو والمغفرة .

« إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله ، دعا الله فى القرآن فى تفصيل أى تفصيل وفى ترغيب للراغبين وترهيب للراهبين ، وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان فى أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها . فلا غرابة فى أن تختلف مذاهب القوم فى القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضاً ، وإنما الغرابة فى التزام مذهب واحد من مذاهب القول فى التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف . وهذا التنوع فى مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية وفى غيرها أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

« فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب وما يكون فيه من الشدة يقتضى أن يكون القول من القوة والأيد بحيث يملأ القلوب رعباً ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحدين فى الإنكار والعناد والمكابرة . وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع فى القرآن شيئاً كثيراً واقرأ إن شئت من السور القصار فى آخر المصحف فسترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفس رهباً ورعباً . .

« وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن ، فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفاً .

« ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز فى القرآن وملاءمة كل مذهب من

مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث » .

* * *

« .. الأزهر مشرق النور الدينى للبلاد الإسلامية كلها . وأخص ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها لا كما يفهمها جيل بعينه ، وكما تحققها العصور على اختلافها لا كما حققها عصر بعينه .

فالإسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعاً ، ويجب أن يكون رجاله الناشرون له ، الذائدون عنه ، الداعون إليه ملائمين كل الملاءمة بطبيعته السمحة التى تشجع التطور ولا تمانعه ، وتؤيد الطموح ولا تأباه . وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث (١) » .

* * *

---

(١) حديث لا يزال عالقاً بذهنى أذكره بمناسبة هذه الكلمة : فقد كنت مدعواً عند الدكتور هيكل فى مصيفه فى الإسكندرية سنة ١٩٣٩ ، ودعا غير واحد من خلص أصدقائه فى طليعتهم أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، وجرى حديث عن إصلاح الأزهر ، فأبدى كل واحد رأيه فى طرق الإصلاح ، ودام الحديث قرابة ساعة دون أن يتفقوا على رأى واحد ، وكان أستاذ الجيل يسمع ويناقش وينقض الرأى تلو الرأى بنزعة الفيلسوف الذى يلتمس الإصلاح الحاسم من أقرب الطرق ، وكان رأيه أن إصلاح الأزهر لا يكون إلا على يد أحد أبنائه الأقحاح الذى عاش فى جو جامعى من أجواء جامعات الغرب ، وسرعان ما قال : لو أن الأمر بيدى لعينت طه حسين شيخاً للأزهر وأعطيته كافة الصلاحيات ليهدم ويبنى ويتيح للأزهر أن يقوم بأداء رسالته السامية فى خدمة الإسلام .

وقد أثار هذا الاقتراح دهشة الحاضرين فانطلقت أشداقهم بضحكات عالية أخذوا يعلقون عليه بروح مرحة ونكات قاسية لا سيما أنهم تصوروا طه حسين قد لبس الجبة والعمامة وأخذ يعيد النظر بالبرامج العتيقة ويخطط لإصلاح جذرى مهما كان لونه فسينظر إليه نظرة سخط وازدراء من الحشويين الجامدين ! . .

« . . فالدين الإسلامى كان وسيكون دائمًا أساس الحياة الخلقية للأمة الإسلامية ، وقد كان فى عصر طويل أساس الحياة السياسية والعملية لهذه الأمة أيضًا . وهو الآن وسيكون دائمًا أساسًا لهذه الحياة السياسية والعملية إلى حد بعيد . فلموقفه من الحرب والسلم أثر ظاهر فى تقويم موقف الأمم الإسلامية من الحرب والسلم . وموقف الإسلام من الحرب والسلم رائع حقًا . فبين اسمه وبين السلم صلة لا تخلو من مغزى . والإسلام دين رحمة وبر . ودين أمر بالمعروف وترغيب فيه ودعوة متصلة إليه . وهو كذلك دين عطف وإحسان . وهو كذلك دين يأخذ بالعفو ويأمر بالعرف وبالإعراض عن الجاهلية . وهو من كل هذه النواحى دين السلام الخالص .

« ولكن الإسلام فى الوقت نفسه دين كرامة وعزة ، فيه الاعتراف بالشخصية الإنسانية — بشخصية الفرد وشخصية الجماعة . وفيه الاعتراف بأهم ما يقوّم هذه الشخصية من الحرية فى الرأى والقول والعمل جميعًا » .

* * *

« . . كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسراً . وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطًا ولا عبوسًا . وإنما تثير رضًا وابتهاجًا وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان . وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة . وإنما كان جدًا خالصًا لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان . فلم يكن حب الغزليين فى شمال الحجاز وفى نجد لهواً ولا مجونًا . ولا مصدراً للدعابة والفكاهة . وإنما كان جزءاً من جد الحياة اقتضته الظروف من السياسة والدين . فدفع إليه الغزلون فى شىء من التصوف . لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى القديم . ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعًا به ، لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما صغائر الحياة ، ويعزيها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع ، على أن هذا الهياء الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز ، لم يتردد فى أن يغزو

البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة . فقد كان شعر جميل وكُثَيِّر والقيسين ينشد فى المسجد الحرام ، وينشد فى المسجد النبوى ويستمتع به فى هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رواية العلم والدين . لا يجدون فى ذلك حرجًا ولا جناحاً ، وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه . فشقى بالحب إن كان الحب شقاء ، ونعم بالحب إن كان الحب نعيمًا . وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة . إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة » .

* * *

« . . فالشعوب لا تعيش فى هذه الأيام بالتهريج ولا ترقى باللعب ولا تنهض بأعباء الحياة وهى نائمة كاليقظة ويقظة كالنائمة . والحضارة التى تلائم الحياة الحديثة شىء كامل لا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر ، وإنما يؤخذ كله أو يترك كله . . فالذين يأخذونه كله هم الذين يحيون ويرقون ويفرضون أنفسهم على الزمان وعلى غيرهم من الناس ، والذين يتركونه كله أو يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتون أو يخملون أو يتعرضون للاستذلال والاستغلال ويطمعون الناس فى أنفسهم ووطنهم ومرافقهم كلها . .

« وفى الحضارة الحديثة كثير من النقائص ، وكثير من الآثام ، ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد فى إصلاح هذه النقائص وهذه الآثام تنقية الحياة الإنسانية من كل شائبة تنقص من قدرها ، فإذا دعونا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة فنحن لا ندعو إلى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام ، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نقص أو إثم وإنما سمعنا دائمًا وعرفنا دائمًا أن الفن الجميل كمال ونقاء ، فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الأذواق » .

* * *

« . . ولا بد من أن نلاحظ أن الذين طوروا الذوق الأدبى فى النصف الأول لهذا القرن لم يكونوا — كما يظن كثير من الناس فى هذه الأيام — يعيشون فى البروج العاجية ، ولا يعتزلون الحياة الشعبية ، ولا ينأون بحال من الأحوال عن آلام الناس وآمالهم ، ولا يهملون قدرتهم وطاقاتهم ، وإنما كانوا يعيشون مع الشعب بل يعيشون بالشعب وللشعب ، يعيشون له لأنهم كانوا يعربون عن ذات نفسه ، يصورون له آماله ليحرص عليها ويجد فى تحقيقها ، ويفتحون له آفاقًا جديدة من الأمل ليسرع إليها ويمعن فيها ، ويصورون له آلامه ليبرأ منها ويضع عن نفسه أثقالها .

« وأيسر القراءة فيما كانوا يكتبون تبين ذلك فى غير لبس ولا غموض . .

« فهم الذين صوروا له الاستقلال وزينوه فى قلبه . .

« وهم الذين بغضوا إليه الاحتلال وأثاروه على الإنجليز . .

« وهم الذين كرهوا إليه الاستبداد وأطمعوه فى الحرية وأغروه بالإلحاح فى طلبها . .

« وهم الذين أعدوه للثورة وأسخطوه على حياة سيئة كان يحياها . وهيأوا ضميره ليسرع إلى الخير حين يدعى إليه ، وينصرف عن الشر حين يرد عنه ، ويتقبل الإصلاح حين يعرض عليه . .

« وهم قاوموا الاستبداد ولقوا فى مقاومته ضروبًا من الأذى وفنونًا من الذكر . .

« وهم قوموا المعوجين من الحكام ، وجدوا فى صرف الشعب عنهم وتزهيده منهم . .

« فعلوا كل هذا ، وتقبل الشعب منهم ما فعلوا ، واستجاب الشعب لهم حين دعوه ، واستمع لهم حين تحدثوا إليه ، وآية ذلك أنه كان يقرأ لهم حين يكتبون ، ويسمع لهم حين يخطبون أو يتحدثون .

« وهم على كثرة ما فعلوا وحسن ما أبلوا قد احتفظوا للأدب العربى بروعته ونضرته » .

وأقف عند هذه الخواطر ، فكتبه متداولة مقروءة . وقد أردت أن أختتم هذه الرسالة بلمحات من آرائه المنتشرة فى الصحف والمجلات التى تصور بعض نزعاته التجديدية وآرائه الجريئة التى واجه بها قراءه بصدق وإيمان .

٢٧

لا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يصلصل تليفون بيته من مختلف الزائرين يطلبون موعداً لمقابلته ، ومع ترحيبه بكل زائر ، كان يضيق أحياناً بلجج الصحفيين وأسئلتهم . ، ومع ذلك . فما رد أحداً قط . بل كان الفيض الثر الذى يجيب عن أسئلتهم مهما كانت محرجة .

فحين بلغ الخامسة والسبعين من عمره سأله أحد الصحفيين عن أمنياته ومشروعاته فأجاب :

كلما مر عام من حياتى واستقبلت عاماً جديداً ، كان الشعور الذى أجد واحداً ، ولا سيما منذ بلغت الستين ، وهو أن الحياة تمضى دون أن أشعر فى يوم من الأيام بالرضا عن نفسى والاطمئنان إلى أنى أديت ما كان ينبغى أن أؤدى من الواجبات لنفسى ولأسرتى ولوطنى ، بل للإنسانية آخر الأمر . .

وقد بلغت الستين وجاوزتها إلى السبعين ، ثم دخلت فى العقد الثامن من عمرى ، ولم أشعر قط أنى أديت إلى الله حقه على ، فأنا غارق فى التقصير والقصور إلى أذنى ، وأسأل الله الغفور العافية . .

وتطرق حديث الصحفى إلى مشاكل الأدب فسأله عن موقف النقد من أدبنا اليوم ، وهل يؤدى رسالة صادقة خالصة للتوجيه والتقويم والبناء . .

فقال بكثير من التواضع :

لا أدرى ذلك ، ولعل ضعف النقد هذه الأيام يرجع مصدره إلى

ضعف الحياة الأدبية كلها ، فإذا سألت عن مصدر هذا الضعف فى الحياة الأدبية فهو عندى ناشئ من أن أدباءنا لا يقرءون كما ينبغى أن يقرأ من قديم الآداب الإنسانية وحديثها ، والله المسئول أن يلهم أدباءنا الرشد ، ويهديهم إلى أن الأدب ما هو إلا نتيجة الثقافة الواسعة إلى أقصى حدود السعة العميقة .

ثم سأله عن سجل حياته الخالدة . وهل من لحظات تقف عندها بالشباب وقفة تلقى من تجارب بها توجيهاً سديداً فقال :

أنا لا أعرف أن لى سجلا خالداً . ولو عرفت ذلك لكنت به سعيداً ، وكل الذى أعرفه عن نفسى أنى مقصر دائماً . وقاصر دائماً عما يرضى الله والناس . فإذا كان للشباب أن يعتبروا فليجتهدوا فى أن يكونوا خيراً منى . .

وفى صدد أحاديثه عن الصحافة اليومية سئل عن رأيه فى مستواها الأدبى. وكان قد أجاب عن هذا السؤال غير مرة فقال :

آسف أشد الأسف أن صحفنا اليومية لا تعنى بما يثقف العقول . ويذكى القلوب ويصفى الأذواق كما كانت تعنى من قبل . وإنما هى كلفة بالأخبار من جهة ، وبالأدب السهل الرخيص من جهة أخرى .

* * *

ويهتبل الصحيفون المناسبات لاستطلاع رأيه فى قضايا الأدب والفن . فقد كان معتزماً أن يحضر المؤتمر الاستثنائى لمجمع الخالدين الذى عقد فى بغداد بصفته رئيس المجمع اللغوى إلا أن توعك صحته من جهة وركوب الطائرة التى يخشاها من جهة أخرى [1] حالا دون ذلك . ولا سيما أنه قد بلغ

---

(١) لم يركب الدكتور طه الطائرة إلا ثلاث مرات فى حياته : الأولى بعد انعقاد مؤتمر الأونسكو فى بيروت ، والثانية عند ما طار من جدة إلى مكة على رأس اللجنة الثقافية للجامعة العربية ، والثالثة عندما انتقل من روما إلى تونس ليرأس أول امتحان لمدرسة المعلمين فيها .

فى هذه الفترة — الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٦٥ — عامه السابع والسبعين .

وقد طرح عليه محرر مجلة آخر ساعة الأسئلة الآتية :

— كثير من الناس يفتقدون رأيك فى عدد من القضايا المطروحة ، فلماذا لا تتكلم ؟

— أية قضايا ؟

— مثلا : فى مؤتمر بغداد القادم — سيلقى الدكتور مراد كامل بحثاً فى اللغة العربية كلغة عالمية . فما رأيك فى هذه القضية ؟

فأجاب بسرعة : هذا موضوع خطير جداً ، وسبق أن ألقيت فيه محاضرة فيما مضى . .

ورأيى أن اللغة العربية كانت بالفعل لغة عالمية ، فاللغات العالمية قديماً كانت ثلاث لغات فقط : اليونانية واللاتينية . ثم العربية بعد فتوح الإسلام .

وفى العصر الحديث كانت اللغة الفرنسية عالمية قبل الحرب . ثم غلبت بعدها الإنجليزية . . وما تزال . . وفى الأمم المتحدة الآن أربع لغات عالمية الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . . ونحن نجاهد لكى نضيف العربية إليها[1] . ومما يساعد على ذلك أن يلتقى العرب أولا حول قضايا الفصحى ووسائل نشرها وتغلبها على العامية .

وسئل عن السينما والمسرح فأجاب : أنا لا أحب السينما . كنت فى الماضى أذهب إليها فى الصيف ، فى الهواء الطلق . . وأشاهد الأفلام الفرنسية التى كان ممثلوها يمتازون بحسن الإلقاء !

أما المسرح ، ففى اعتقادى أنه تقدم ، ولكن اللغة العامية بكل أسف تسوده ، وأنا لا أقبل الاستماع إلى الروايات التى تمثل بالعامية . فالمعركة بينها وبين الفصحى على المسرح معركة قديمة . ولى منها موقف معروف . وهذا التخلف فى رأيى يعود إلى بعض الشبان الذين يكثرون من

(١) أقرت أخيراً هيئة الأمم المتحدة اللغة العربية لغة عالمية .

العامية بالقدر الذى يهدد اللغة الأم . كما أن الذين يؤلفون للمسرح الآن لا يتعمقون القراءة ، ولهذا لا يجيدون تقديم الأعمال الفنية ، سواء فى المسرح أو فى السينما . يخيل لى أن مستوى التعليم فى الجامعات ليس كما ينبغى !

— وقضايا التفرغ ؟

فأجاب : أنا لا أومن بالتفرغ . وكنت أول من اعترض على مشروع تفرغ الأدباء ، فالأدباء تعودوا من قديم شظف الحياة . ويندر أن تجد أديباً ثرياً . وقد رفضت قبول رئاسة لجنة التفرغ أيام أن عرضها على الدكتور ثروت عكاشة ، وما كان هذا الرفض إلا لإيمانى بعدم جدوى التفرغ للأديب !

وسأله المحرر : هل يوافق على ضم المرأة إلى عضوية مجمع اللغة العربية ؟ فقال : لم لا ؟ إننى أوافق على قبولها ، وإن كان المجمع الفرنسى ما زال — حتى الآن — خلواً من الستات !

وقد كنت أنا أول من عرض على لطفى السيد قبول الطالبة فى الجامعة . وكانت أول كلية قبلتها هى كلية الآداب . وقبلت مجاناً لتشجيع زميلاتها . وأذكر أن لطفى السيد سألنى أيامها : هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات ؟ فأجبته : القانون يقول إن الجامعة للمصريين ، ولم يحدد النوع !

ويعود الدكتور إلى ذكريات أبعد . فيتحدث عن لقاء المرأة بالرجل فى الصالونات الأدبية بفرنسا .

وقد عرف هو شخصياً آخر هذه الصالونات . وكان يتردد عليها أناتول فرانس ، واضعاً فى قبعته طاقة من البنفسج يقدمها لسيدة البيت مع قصة لا تتغير أبداً ، وهى أنه كان مارًّا بالمصادفة بمحل للزهور . فأعجبته الطاقة واشتراها لها .

وفى صدد انتقال مركز الإشعاع الثقافى من القاهرة إلى بيروت قال أنا لا أظن أن هناك بلداً آخر يتفوق على القاهرة الآن . وأرجو ألا يكو

فى المستقبل . وحكاية القاهرة وبيروت هذه حكاية قديمة . فقد سألونى مرة وأنا هناك : « أنت تفخر بما يصدر عن بيروت من إنتاج أدبى » . . فأجبتهم بأنى أقول ذلك حتى أنبه المصريين . فأنا أريد للبلاد العربية جميعها أن تتنافس فى تعمق الثقافة (١) .

---

(١) وقد أثار حديث الدكتور دهشة الأدباء ، فى مصر وسورية ولبنان والعراق وربما فى بعض العواصم الغربية ، وأذكر أن الأستاذ رشدى معلوف المحرر الأدبى لجريدة « الجريدة » اللبنانية ، وهو أديب وشاعر ، لم يهضم هذا الرأى الذى صدر من عميد الأدب والذى طغت فيه مجاملته وكياسته على صراحته المعهودة فعلق عليه بكلمات أوضح فيها حقيقة الأدب اللبنانى فقال :

لست أدرى ، والله ، أيسخر عميد الأدب العربى منا أم يتلهى بإحداث ضجة كالتى أحدثها يوم أصدر كتابه عن الشعر الجاهلى ؟ !

فلقد بدأ الكثيرون فى لبنان يعتقدون ، مع الأسف ، أنهم زعماء الأدب العربى ، وأخذ عدد وافر من المحاضرين فى مختلف الأندية ، والمتحدثين فى كثير من الأوساط يستشهدون بمقالة طه حسين فى إقرار الزعامة لبيروت .

ويعذرنى الدكتور إذا قدمت له صورة صحيحة عن الأدب فى بيروت ، وتعذرنى بيروت إذا قلت إنها « شنغهاى » قبل أن تكون عكاظاً !

ونتلمس شطر الإنتاج والتأليف اللذين جعل الدكتور لبيروت القسط الأوفر منهما ، فنسأله ، وهو منا ، أن يقول ولا محاباة ، أى مؤلف أصدره لبنان فى الخمس والعشرين سنة الماضية ، يستحق أن ينسب للأدب الحى ، أو ينتمى إلى روحة الفن الخالد ؟

فالكتاب اللبنانيون عموماً يجهلون الكتابة باللغة العربية الخالصة من شوائب اللحن ، ومظاهر العجمة ، وينحرفون بها عن أساليبها المعروفة ، فنرى بعضهم يؤخر مثلا فعل القول عن المقول اقتداء بالفرنجة لا من قبيل تطويع العبارة لمقتضيات المعنى بل زيادة فى الشعوبية وإغراقاً فى التشيع للغرب .

والكتاب اللبنانيون قد أفلسوا إفلاساً شنيعاً فى ميدان القصة القصيرة ، وفى مجالات الرواية ، فضحل إنتاجهم وسقطت بضاعتهم عن مجاراة أى بضاعة من هذا النوع ، لا فى العالم العربى وحسب بل فى مختلف أنحاء الدنيا .

وقد أفلسوا كذلك فى النقد فلم يصدر مؤلف واحد يستحق الذكر بعد كتاب =

وختم المحرر حديثه عن حيوية الدكتور طه بقوله :

= « الغربال » الذى أصدره ميخائيل نعيمه منذ حوالى عشرين سنة . ولا يعنى هذا أن النقد فى لبنان قليل ضئيل ، فهو يملأ الصحف والمجلات ولكنه يضرب على سندان واحد ، ويطلق رنة واحدة مبطنة بالرغبة فى الظهور والطمح إلى الشهرة العريضة من باب الجهد الضيق والجهاد القصير !

ثم قال : والكتاب اللبنانيون عموماً قصار النفس ، كسالى ، يتأكلهم جوع رهيب لما فيه الدعاية لأنفسهم ، والإفادة مما لا حق لهم فيه من تقدير واحترام وإعجاب ، حين لا يستطيع إلا نفر ضئيل منهم أن يهز المشاعر ، ويغذى القارئ بما تفيد منه ثقافته ، وتستقيم منه ذائقته !

أما الشعراء اللبنانيون فقد سكت شيبهم وتخلع شبانهم ، حتى لترى الجيل الجديد من هؤلاء يطلع بشعر مائع تعبق منه روائح المرض النفسى العضال ، والميوعة الخلقية المنحطة التى لا تعرف من الشعر إلا التغنى بالمتعة واللذة « والبسيدو — رومانطيقة » القائمة على نعت الطبيعة اللبنانية بما قيل فيها من قبل ألوف المرات ، وتتشدق فى إبراز بعض اللوحات اللبنانية فتقصر فى ذلك التقصير كله عن شعراء العامية الذين يقولون الزجل على مسارح الطرب ارتجالا .

هذا بصرف النظر عن ضعف التركيب ، وفقدان الذوق فى اختيار الألفاظ المتناسقة المنسجمة مع المعانى ، والخروج خروجاً ضعيفاً على الأوزان العربية للشعر ، والتلهى فى قائم الشعر المنثور بخرز أزرق يحسب افتراء واعتباطاً فى حساب الجواهر !

أما اليوم فما الذى ننتج ؟

إننا ننتج قصصاً عقيمة . .

وأين شعراؤنا من شعراء الشام والعراق ؟

وأين ما ينتجه كتابنا مما تنتجون فى مصر ، كالصادر كل يوم على طروس العقاد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل وغير هؤلاء ممن عرفتهم فى دوحة إنتاجكم ومجال حياتكم الحافلة بالرفيع من تحف البلاغة والثقافة ؟

وأما أن تتحدثوا عن المجلات التى تصدر عندنا ، فهذا لايشيع بوارق الأمل على صحراء الأدب فى لبنان ، ما دامت هذه المجلات تستنجد بالكثير من النتاج المصرى ، العراقى ، السورى ، الأردنى ، لتوفير المواد اللازمة . =

إنه يقضى يومه كله فى القراءة : إنه يقرأ ست ساعات مع سكرتيره فريد شحاتة ، ومن الثالثة إلى الخامسة مع قارئة بالفرنسية ، ومن العشاء إلى الحادية عشرة مع السيدة زوجته .

على أنه قد يسهر إلى ما بعد هذه الساعة ، وربما ليؤكد أن حكاية معركته مع الشيخوخة خرافة .

ولماذا يشيخ هو وحده ؟

لقد عاش لطفى السيد إلى ما بعد التسعين ، وإلى ما بعد التسعين أيضاً كان برنارد شو يكتب ، وفرانسوا مورياك ظل يسخر من الشيخوخة حتى الثمانين . والشيخ حسن مأمون ما زال يركب الطائرة وهو أكبر من طه حسين بست سنوات . وأحمد حسن الزيات يقف على أبواب الثمانين . ولكنه يصعد سلالم المجمع بخفة شاب فى الثلاثين .

ثم إن الفكر لا يشيخ .

وعقل طه حسين ما زال ينبض كما تنبض قلوب الشباب !

= هذه أحوال الأدب فى لبنان .

وقد ختم مقاله الذى أثار عليه نقمة أدباء لبنان بقوله :

هذا ما أردنا أن نطلع الدكتور طه وغيره من أئمة الفكر فى العالم العربى عليه ، كى لا يقال إنه لم يبق فى لبنان رجل واحد يعترف بالحقيقة ويقولها . . وليعذرنا عميد الأدب إن تجرأنا للتصدى لبعض ما أملته عليه مطالعاته الأخيرة من استنتاجات تفرض زعامة الأدب على بيروت فرضاً . . وبيروت تنعب فى خرائب أدب لم تزل منذ ربع قرن تأتم بنوافل هديه . .

* * *

هذا رأى أبداه الأستاذ معلوف قبل عشر سنوات ، ولا أعلم رأيه اليوم .

ولكن الشىء الملموس أن بيروت تخطو خطوات مذهلة فى حركة النشر ، وإن كانت دون مصر التى تعطى التحقيق العلمى والمنهجى حقهما من العناية . وقد أراد الدكتور من إثارة الموضوع أن تتنافس الأقطار العربية فى نشر الثقافة على أوسع حدودها ومداها ، وستظل مصر ، فى رأيى ، هى الرائدة والزعيمة .

٢٨

ويخلو مكان فيلسوف الجيل المرحوم أحمد لطفى السيد فى مجمع الخالدين فيتساءل الأدباء فى الأقطار العربية ، ويهجس أعضاء المجمع ، وكلهم صفوة رجال الفكر وأعلام اللغة وأساطين العلم والأدب — يهجسون فيمن يملأ هذا الفراغ الذى تركه الراحل العظيم .

ويدور الحديث سرًّا وجهراً .

وتعقد جلسة الانتخاب .

ويبحث عن الجهبذ الذى يستطيع بأدبه وعمق ثقافته وقوة شخصيته أن يتبوأ هذا المركز ، وأن يتحمل تبعاته الجسام .

وما يكاد الأعضاء ينتهون من أحاديثهم ومداولاتهم . يستعرضون جهود الأفذاذ فى ميدان الفكر والأدب حتى ترتفع الأيدى لتعطى الأديب العظيم الذى عرفه الشرق والغرب ثقتها : الدكتور طه حسين الذى ما كاد يسند إليه هذا المركز ، ويجلس مكان أستاذه حتى يشكر زملاءه البررة على ثقتهم الغالية ، ويقرر أن ينهج نهجه ، وأن يسير بالمجمع السير الهادئ المتزن الذى يجدد العربية ، ويجعلها متجاوبة كل التجاوب مع ثقافة هذا العصر الذى يفاجئنا كل يوم ، بل كل ساعة ، بظاهرة من هذه الظواهر العلمية العجيبة التى تحتاج إلى مسميات ومصطلحات جديدة لن تضيق العربية بها ما دام حماتها صفوة من الأعلام الذين استطاعوا فى نصف قرن من الزمن أن يعيدوا إليها رونقها ، وأن يجعلوا منها لا أداة للتعبير عن الهواجس والعواطف والميول فحسب ، بل عن كل ما يصدر عن الفكر والعقل فى ميادين العلوم وشتى أنماط المعرفة ، ومهما قيل فى هذا المجمع وما ألصق به من تهم باطلة وحكايات مزيفة ، فهو يقوم برسالته أحسن قيام ، ويؤدى للعربية أجل الخدمات .

٢٩

احتفلت مصر ، فى الفترة التى أدون فيها هذه الخواطر ، بعيد العلم الثالث عشر ، وقد وزعت فى اليوم العشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥ الجوائز التقديرية والتشجيعية على الموهوبين من العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين . وكان الدكتور طه حسين قد منح الجائزة التقديرية منذ بضع سنوات . واغتنمت الدولة ، وهو فى قمة مجده الأدبى والفكرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره المديد ، فمنحته فى هذا العيد وسام قلادة النيل وهو أرفع أوسمتها .

وإذ حال مرضه الطارئ دون حضور هذا الاحتفال العلمى ، فقد بعث الرئيس جمال عبد الناصر كبير أمنائه إلى بيته ليقلده هذا الوسام الرفيع باسمه تقديراً لأدبه ونضاله الكبير فى سبيل حرية الفكر . .

وحين تماثل للشفاء هرع إلى القصر الجمهورى لقيد اسمه فى سجل التشريفات . ولشكر الرئيس على تكريمه وقال : « لقد دهشت عندما علمت صباح أمس بأننى سأمنح فى المساء فى احتفال عيدالعلم قلادة النيل لأنه سبق أن حصلت فى أول عيد العلم على جائزة الدولة التقديرية للأدب ، فلما سمعت الخبر دهشت للتكريم الجديد . . ويمضى الوقت ، وبمقابلة بعض الأصدقاء فهمت أن السيد الرئيس يريد أن يزيد فى تكريمى فى هذا العيد » .

وسألته الأهرام عن مدى هذا التكريم فى نفسه فقال : « هو الشعور بأصدق الشـــكر وأجمله لهذا الفضل العظيم الذى أهداه إلى السيد رئيس الجمهورية ، وأرجو من الله عز وجل أن يجعلنى له أهلا » .

وقال : « إن العلم والأدب اللذين كرمتهما الدولة أمس هما قوام لعقل الإنسان المثقف وضميره » .

وقال : « إذا كنت لم أحاول قط أن أصور لنفسي فلسفة للحياة فإنني أعيش مستعيناً بالله ، واثقاً به ، مملياً حين أجد الحاجة إلى الإملاء والقدرة عليه .

« إن أمامي الآن شيئين أسأل الله المعونة على إتمامهما : أحدهما إملاء الجزء الثالث من " الفتنة الكبرى " . والثاني : هو إملاء الجزء الثالث من كتاب " الأيام "[1] » .

ومن البداهة بمكان أن ينطلق قلبه ولسانه بالشكر العميق لهذا التكريم فقد مر في عهد فاروق بأزمات خانقة حتى كاد يعضه الجوع مما اضطره أن يطبع كتبه في بيروت ليتغلب على مصاعب الحياة . في حين أنه اليوم في العهد الجمهوري يلقى كل تكرمة يستحقها أدبه ونضاله .

* * *

وبعد : فإن مجال الحديث عن طه حسين مجال واسع ، فهو سفر ضخم يرى الباحث في كل صفحة من صفحاته ظاهرة جديدة في حياتنا العقلية ، ومنذ أول كتاب أصدره عن « أبي العلاء » عام ١٩١٤ إلى كتابه الأخير « مرآة الإسلام » الذي صدر سنة ١٩٥٩ — وقد أصدر أربعين كتاباً — منذ تلك الفترة لم يهدأ نشاطه ولا خفت صوته . فكان بحق الرائد الأول الذي أرسى قواعد الدراسة الأدبية على أسس منهجية . فعبد الطريق للكثيرين من الأساتذة والباحثين ، وفتح لهم نوافذ كانت مغلقة فولجوها مطمئنين .

نعم . لا مجال ، في هذه العجالة ، للحديث المطول عن أدبه وكتبه ومدرسته الأدبية وأثره في جيله وتلاميذه وكفاحه المرير في سبيل حرية الفكر ، وما لاقاه من عنت وهجوم واتهامات ، وصموده لها بروح سمحة نقية ، وإيمان صلب قوي . . فموضوع ذلك غير هذه السطور التي اشتملت على جمع ما تناثر من كلمات لها صلة وثقى بمراحل حياته . .

---

(١) انظر صفحة ٥٨ .

وقد ينكر علينا العميد لملمتنا هذه الخواطر والهواجس . ولا سيما ما كان منها فى عهد التلمذة وطور الشباب . وقد يضحك أو يهزأ منها . . ولكن فترات مرت من تاريخ حياته لا يمكن — وقد أهملها من «أيامه» — أن يهملها تاريخ الأدب . والفضل فى ذلك لزملائه الذين نثروا بعض هذه الذكريات المحبوءة فأحسنوا أى إحسان لمؤرخى الأدب الذين قد يرون فى اللحظة العابرة صورة تكشف عن الكثير من الفجوات . .

والرسالة بمجموعها ظلال من تاريخ حياة مليئة بظواهر العبقرية المبكرة والنبوغ الأصيل . وكل ما أرجوه ألا يجد السيد العميد فى مكر صديقه — إذا اعتبر هذه التحية العبقة مكراً — ما يثيره و يغضبه ! !

طه حسين ودار المعارف

كان الدكتور طه حسين يحبّ « دار المعارف » ويثق بها ، ويكثر من زيارتها فى مختلف المناسبات ، ويعرض عليها اقتراحاته وآراءه فى نشر الثقافة. وإن كثيراً من المجموعات التى لا تزال الدار تقوم بنشرها إلى اليوم هى من ثمار آرائه السديدة . .

وهو فى هذه الصورة فى إحدى زياراته ، ووزير معارف سوريا يضع ذراعه فى ذراعه. ويتحدث إليه حديثًا يثير انتباه عميد الأدب . وقد ظهر إلى يسار الوزير السورى الأستاذان شفيق نجيب مرّى وعادل الغضبان .

بعد عامين من إصدار سلسلة « اقرأ » نظمت « دار المعارف » مسابقة عن أحسن كتاب صدر فى السلسلة ، فى خلال العامين . فنال كتاب « شهر زاد » للدكتور طه حسين الجائزة الأولى ، لكن الفقيد العظيم طلب استبعاد كتابه من المسابقة ؛ ففاز كتاب «سيدة القصور» للأستاذ على الجارم ، وكتاب « جحا فى جانبولاد » للأستاذ محمد فريد أبو حديد . .

وفى الصورة لجنة التحكيم . ويرى من اليسار الأساتذة عباس محمود العقاد وأنطون الجميّل والدكتور طه حسين ويوسف مشاقة وشفيق نجيب مترى . أما الواقفان فهما الأستاذان عادل الغضبان وفؤاد صروف .

فى مناسبة إحياء « دار المعارف » التراث العربى ، وتكوين لجنة « ذخائر العرب » ، أقامت الدار حفلا كبيراً حضره كثيرون من المفكرين والعلماء والأدباء . .

ويرى فى صدر الصورة الأستاذان إسعاف النشاشيبى وخليل مطران وعلى يسار شاعر القطرين الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب عضو المجمع اللغوى عن تونس .

ويرى من اليمين الدكتور زكى مبارك والأساتذة كامل كيلانى وأحمد لطفى السيد وعلى الجارم . ويظهر فى اليسار الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق والسيدة أمينة السعيد والأستاذ على أدهم .

كانت « دار المعارف » منتدى يلتقى فيه كثير من الأدباء والمفكرين والعلماء . وهذه صورة المائدة الرئيسية فى إحدى الحفلات الأدبية ، ويُرى فيها الدكتور طه حسين يتحدث إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والسيدة أمينة السعيد ، والأساتذة على أدهم ، وعبد الرحمن صدقى ، وعباس محمود العقاد . وفى صدر الصورة الأستاذ شفيق نجيب متى ، والشيخ عبد القادر المغربى .

خطاب

حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

ألقاه فى اليوبيل الذهبى لدار المعارف فى سنة ١٩٤١

سيداتى وسادتى :

أما أنا فلم يتح لى الاشتراك فى العيد الفضى لمطبعة المعارف ومكتبتها، ولست أدرى أكنت فى ذلك الوقت أدنى إلى الشباب من السادة الذين أحيوا هذا العيد ، ولكن المحقق أنى كنت فى أوربا أتم دراستى فى باريس . كما أنى لم أدع إلى الكلام فى إحياء هذا العيد الذهبى ، ولكنى طلبت أن يؤذن لى بالكلام لأنى أحسست حاجة قوية إلى أن أشارك فى تكريم مطبعة المعارف ومكتبتها، وإلى أن أعترف بفضلها فى تشجيع الإنتاج الأدبى ودفع الأدباء إليه .

ولقد رجعت من أوربا وفى نفسى صورة ممتازة لما انتهت إليه الصلة بين الأدباء والناشرين فى هذا العصر الحديث . فهى صلة تقوم على التعاون ولا تقوم على الاستغلال . فالناشر ينظر إلى الأديب المنتج على أنه شريكه فى خدمة المعرفة والثقافة وتمكين العقل من أن يوصل ثمراته إلى أبعد مدى وإلى أكثر عدد ممكن من القراء . والأديب ينظر إلى الناشر على هذا النحو نفسه، وقد انتهى ذلك العصر الذى كان نشر الثقافة فيه تجارة يسعد بها الناشر والطابع ويشقى بها العالم والأديب .

رجعت من أوربا وفى نفسى هذه الصورة الرائعة . ولست أخفى عليكم أنى أنفقت وقتاً غير قصير ألتمس هذه الصورة فى مصر، فلم يتح لى الاهتداء إليها إلا حين اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها . هنالك لم أحس الارتياح إلى العلاقة بينى وبين الذين أخذوا ينشرون كتبى ، وإنما أحسست شيئاً أكثر من ذلك وأقوى . أحسست تعاوناً يقوم على المودة والوفاء . وما لى لا أصارحكم ببعض الحق، وما طلبت الكلام إلا لأصارحكم ببعض الحق ؟

فقد كان عهدى بالكتب التى ننشرها فى مصر أنها تكلفنا ما تكلفنا من العناء فى تأليفها وإذاعتها ، ثم لا نجنى منها شيئاً ، أو لا نكاد نجنى منها شيئاً . وربما كلفتنا إلى العناء العقلى أثقالا مالية لم نكن نقدر على احتمالها فى كثير من الأحيان . فلما اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها تغير هذا كله تغيراً تاماً . ومن المحقق أن المرتب الذى كنت أتقاضاه من الجامعة لم يكن من شأنه أن يمكننى من الرحلة إلى أوربا فى كل عام هناك حيث كنت أفرغ للراحة أولاً ، ثم للدرس والإنتاج بعد ذلك . فأنا مدين بالرحلة المنظمة إلى أوربا ، وبما أتاحت لى هذه الرحلة من راحة وإنتاج ، لمطبعة المعارف ومكتبتها .

ولست أدرى أيجد الناس فيما أنتج متاعاً ولذة أم يجدون فيه ضيقاً وألماً . ولكن المحقق أنهم مدينون بكثير مما يجدون إذا قرءوا كتبى لمطبعة المعارف ومكتبتها . فترون أنى حين استأذنت فى الكلام لم أزد على أن أرسلت نفسى على سجيتها ، وهى أن أقول الحق فى صراحة ، وأن أعترف بالجميل فى صراحة ، وأن أسجل أمامكم شكرى لمطبعة المعارف ومكتبتها . وتهنئتى لها بهذا العيد الذى أرجو أن يعيد الله عليها أمثاله على خير ما تحب وعلى خير ما نتمنى لها .

أيام .. مع طه حسين
للأستاذ شفيق نجيب مترى

منذ أكثر من أربعين عامًا ، وفى يوم كنت أحسبه كسائر الأيام ، يُقبل إقبالَها ، ويُدبر إدبارَها ، ثم يطويه الدهرُ فيحيلُه ماضيًا انقضى دون أن يُحدث فى الحياة من الأثر إلاّ قليلاً .

كان ذلك عام ١٩٣٠ أو قبلَه بقليل ، يومَ طرق علىّ باب « مكتبة المعارف ومطبعتها بالفجالة » أستاذ علم الآثار والتاريخ المصرىّ القديم ، المرحوم الدكتور سليم حسن ؛ وكان يصطحب — لأوّل مرّة — فقيدَ الأدب العربى الدكتور طه حسين .

ما أشدّ ما وقع فى قلبى من الحزن حين خطّها القلم على الورق — لأول مرّة — الفقيد لا العميد ! وإن يكن القلم قد تعثّر فخطّ هذه مرّة ، فالتاريخ سيظلّ يردّد « عميد الأدب العربى » فتعرفه الأجيال ما شاء الله من دهور .

* * *

لم تُبْقِ الأيام الطوال على كثير مما قيل فى ذلك اليوم العزيز علىّ من أيام حياتى ؛ ولكنها محاولة أضع بها بين يدى هذا الجيل لمحات مما خلّفه هذا اللقاء فى نفسى من أثر .

قال الدكتور سليم حسن ما معناه :

إنّ الكاتب يكتب فيحسن ويجيد . ثم يدفع بكتابه إلى دار النشر أو الطباعة ، فيصدر عنها فى ثوب قد يكون قشيبًا يدفع القارئ إلى الحفاوة بما يقرأ ، وقد يكون هذا الثوب زريًّا فيجعله يعرض عن هذا الكتاب إعراضاً .

فعقّب عميد الأدب العربى بما معناه :

وقد جئتك اليوم بكتابى « قادة الفكر » ليصدر عن دارك فى هذ

ب القشيب . فماذا أنت فاعل به ؟ إذا احتفى القرّاء به و بمن كتبه فأنت يك فى الفضل ؛ و إن أعرضوا . . ولن أزيد .

ومهما أكن قد أنسيت من الألفاظ والعبارات فإننى لن أنسى وقع هذا ى من نفسى .

إن كلّ ما كان يوجّهه إلىّ أبى — رحمه الله — من مأثور النّصح شاد لم يتجسّد أمامى تجسُّدَه تلك اللحظة . لقد صيّرت عبارات د ذلك النُّصحَ شيئًا ماديًّا له أبعاد وله وزن، حتى لأكاد أراه بعينىّ ، ه بيدىّ ، وأشعر بوطأته فوق كتفىّ .

الناشر والطابع يشتركان فى شرف أداء رسالة العلماء والكتّاب والمفكرين ها جماعات القارئين : المقيمين منهم ببلدة الكاتب أو البعيدين عنها ب الفراسخ والأميال ، والمعاصرين منهم أو الذين سيفدون على الدنيا ً بعد أجيال .

ا لها من رسالة ! ويا لها من تبعة !

* * *

ظهر كتاب « قادة الفكر » فى ثوب عدّه الدكتور العميد قشيبًا . . حوّل المؤلف الكبير صديقًا كبيراً ، يفسح من قلبه الكبير مكانًا لشخصى ولدار المعارف ، ويفسح لى من وقته الغالى ما أفضى له تردّد فى نفسى من خواطر وأفكار .

* * *

أيام « دار المعارف » المشهودة مع الدكتور العميد ، يوم بعيدها الذهبى عام ١٩٤١ . وكان قد صدر عن الدار طبعة خرة من كتاب « كليلة ودمنة » ، وثّق مصادرها وحقق نصها عبد الوهاب عزّام ، وقدّمها إلى القراء الدكتور طه حسين تقديمًا ة قيّمة تقرأ لذاتها .

وألقى ، رحمه الله ، فى ذاك اليوم كلمة أرسى فيها قواعد رسالة النشر والناشرين . .

ومن أيّامه معى يومٌ طرحت فيه أمامه فكرة سلسلة من الكتيبات تصدر كلَّ شهر ، زهيدة الثمن رفيعة المستوى ، مؤلّفة غير مترجمة ، بأقلام كتاب من كل طرف من أطراف الوطن العربى ، يقرؤها العرب فى كل رجاً من أرجاء الوطن العربىّ .

كان ذلك فى يوم من أيام عام ١٩٤٢ . حين كانت الحرب العالمية الثانية فى عنفوانها . والعرب — دون ذنب جَنَوْهُ — يعانون من ويلاتها ما تنوء به الجبال ، ويعانون من انقسامهم وتشتت كلمتهم ما هو أشد من ويلات الحرب هولاً .

فانطلق — رحمه الله — بما معناه :

إن العرب الذين نراهم اليوم منقسمين ونرى أهواءهم شتّى ، لن يجمع كلمتهم — يوم تجتمع — إلا نسيج فكرىّ متجانس ، تنسج خيوطَه أقلامُ كتابهم جميعاً ، فيشترك فى قراءة آثار أقلامهم قراء العربية قاطبة . . بمثل هذا ستجتمع كلمتهم يوماً بفضل من الله .

أصدر سلسلتك يا شفيق ، وسمّها « اقرأ » . .

وقد أتحفها بكتابه الأول « أحلام شهر زاد » . فكان فاتحة الخير العميم والبركة الشاملة .

ومن أيام الدكتور العميد معى يومٌ سعيتُ إليه فيه لأفضى بين يديه بخاطر كثيراً ما جال فى فكرى واختلج فى صدرى . وأنا لا أزال أضطرب فيه بين إقدام وإحجام .

« ذخائر العرب » التى خلّفها الآباء والأجداد . ووقع بعضها فريسة فى بعض الأيدى ، فأخرجوها للناس رخيصة مهلهلة ، فلا هى موثّقة محققة ولا هى فى ثوب قشيب . وكل ما كان يُعنى به أحدهم أن يَصدُرَ الكتاب

منها وعليه عنوانه ذو الرّنين واسم مؤلفه المجيد . فينفد الكتاب فى أيام . .

أفاوحقّقت « دار المعارف » بعضَ هذه الذخائر النفيسة . وأصدرتها فى الثوب الذى يتناسب مع نفاستها . فأنفقت فى سبيل ذلك ما أنفقت — ثُرى لو أنها فعلت ذلك . فهل تجد مِن القرّاء مَن يقتنيها بعد أن تعوّدوا الحصولَ عليها مقابل دريهمات معدودات ؟

أنصت إلىّ إنصاتًا جميلاً . وكان رحمه الله يحسن الإنصات ؛ ثم تدفق بما كان يسعدنى أن أنقله اليوم بنَصّ عباراته :

أهى رسالة أم تجارة ؟

اسمع يا أستاذ شفيق !

استقبل الرسالة استقبالَ الشمسَ . واسْعَ فى بلوغها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . حينئذ سيتبعك رزقُك كما يتبعك ظلك لا يستطيع منك فكاكًا .

أمّا مَن استدبر الرسالةَ وسعى وراء الرزق . فسيبقى حياتَه يلهث وراء ظله ليبلغه وما هو يومًا ببالغه . .

أصدر يا شفيق « ذخائر العرب » محقّقةً موثّقةً على بركة الله .

* * *

أفاض الله على روح الفقيد الكريم من الرحمات بقدر ما أفدنا من فضله وعلمه وأدبه .

من مؤلفات طه حسين
التى أصدرتها « دار المعارف »

فى المباحث الإسلامية

مرآة الإسلام

يصور هذا الكتاب مصدر عظمة الإسلام ، وسر ما يكمن فيه من قوة ، وكيف أخرج الإنسانية من ظلمات الجهالة ، وعاد بها إلى النور الصافى الذى أنار عقولها ، ورد إليها إنسانيتها ، وكيف استطاع أن يوحد العرب ويؤلف بين تلك القلوب المتنافرة ، ويثير فيها طاقة من الحماسة والقوة ، ويحبب إليها الفداء ، فينتشر بذلك الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . والكتاب فوق هذا يثبت أن الإسلام منبع حضارة ومشرق مدنية للبشرية كلها .

فى التراجم والسير

على هامش السيرة

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لون من ألوان التاريخ السياسى ولكن طه حسين جعل من تلك السيرة العطرة فنًّا من الأدب الرفيع وصوراً حية من حياة الرسول الكريم منذ كان يتيمًا إلى أن صدع بالأمر يدعو الناس ، وما لقيه من أعدائه وحاسديه .

ولا يصور هذا الكتاب سيرة النبى فحسب . ولكنه يصور أيضاً المجتمع العربى قبل الدعوة وفى أثنائها ، وصراع الخير والشر ، والصلاح والفساد إلى أن دخل الناس فى دين الله أفواجًا .

ثلاثة أجزاء .

الشيخان

يحدثنا عميد الأدب فى هذا الكتاب عن شخصيتين جديرتين بالإعجاب والإكبار ، هما : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، ولم يتخذ من هذا الكتاب سرداً للأحداث التى ملأت عصرهما أو تفصيلا لفتوحهما أو أداة لمدحهما . وإنما قدم جديداً لم يسبق إليه ، بل كشف عن الميزات التى تصورها سيرتهما ، والأحداث التى عاشاها ، ويجلو النهج الذى انتهجه كل منهما فى سياسة الحكم ، وفى تدبير شئون المسلمين ، ومن هذا النهج يستخلص معالم شخصية كل منهما .

الفتنة الكبرى

هذا الكتاب بحث تاريخى عميق فى أسباب الفتنة وعناصرها التى ألمت بالمسلمين فى عهد الخليفتين : عثمان وعلى ، وهو فوق ذلك دراسة لنظام الحكم الإسلامى وعناصره وما انتهى إليه هذا النظام ، ثم العوامل والتيارات التى أدّت إلى مصرع الشهيدين ، وانتقال الخلافة الرشيدة إلى الملك الذى أقامه الأمويون .

جزءان : الجزء الأول : عثمان .

الجزء الثانى : على وبنوه .

الوعد الحق

يصور هذا الكتاب الرائع تلك النفوس الكريمة ، التى جاء الإسلام فنفخ فيها من روحه ، وأشعر أصحابها بكيانهم الإنسانى الذى لا يفرق بين لون ولون ، ولا جنس وجنس ، وعرفهم أن الإسلام لا يقيم سدوداً بين الناس ، فلا جور فيه ولا عصبية . والدكتور طه فى هذا المضمار لا يبارى . وحق على كل قارئ أن يهدى هذا الكتاب إلى أبنائه ومحبيه .

الأيام

هذا الكتاب الذى شرّق وغرّب . وتسابقت إلى ترجمته الأقلام فى عديد من اللغات . ذلك لأنه ترجمة ذاتية للدكتور المؤلف . رسم فى أجزائه الثلاثة صوراً حية لمرحلة من مراحل حياته فى بيئته الطبيعية حيث ولد . ثم فى القاهرة وباريس حيث تعلم . ويقصّ أحداث هذه الحياة الخصبة وجهادها فى مختلف مراحلها . (ثلاثة أجزاء)

أديب

ذكريات طريفة للدكتور طه حسين ، صور فيها نفسه على لسان صديق أديب مولع بالتثقيف الذاتى . فاز ببعثة إلى فرنسا . ثم هو فوق ذلك صور حية لدنيا الناس فى القاهرة وفى الريف المصرى ، وفى مرسيليا . وباريس . وغيرهما من مدن فرنسا .

قادة الفكر

ينتقل بنا الدكتور طه حسين فى هذا الكتاب من عالم الحاضر إلى عالم موغل فى القدم ، ليحدثنا عن « هوميروس » ثم « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » ، وغيرهم . ثم يهتم بدراسة المجتمع الذى يعدّ المؤثر الأول فى ظهور هؤلا الرجال وآرائهم .

فى الأدب والنقد

فى الأدب الجاهلى

هذا الكتاب يضع الأدب الجاهلى وعصره تحت المجهر ، فيقوّمه بمقاييس الأدب الوصفى . وقد أحدث هذا الكتاب ثورة عارمة . لأنه عالج الشعر الجاهلى بأسس ومناهج علمية حديثة . نال الدكتور بسببها العنت .

فصول فى الأدب والنقد

مجموعة من المرايا الصادقة . تعكس أعمالا لنخبة من أعلام الفكر والأدب من الشرق والغرب ، وانطباعات الدكتور طه حسين حيالها .

حديث الأربعاء

دراسة للحياة الأدبية ولشعراء الدعابة والمجون واللهو فى الدولتين الأموية والعباسية . ثم تصوير لمعركة القديم والحديث فى الأدب المعاصر . (ثلاثة أجزاء)

تجديد ذكرى أبى العلاء

هذا الكتاب أول دراسة أدبية تقوم على خطة مرسومة ومنهج مبين ، وهو أول ثمرة للجامعة المصرية . ولم يدرس المعرى وحده فى هذا الكتاب ، ولكن درس عصر المعرى درساً وافياً حتى تتجلى شخصيته على حقيقتها .

مع أبى العلاء فى سجنه

اخترق طه حسين ببصيرته جدران السجن الرهيب الذى عاش فيه أبو العلاء الذى كان فاقد البصر . كما حكم على نفسه بالعزلة . وذلك كله يعطينا صورة صادقة واضحة لنفسية الشاعر الكبير وتفاصيل حياته .

مع المتنبى

فى هذا الكتاب صاحب الدكتور طه حسين المتنبى منذ صباه حتى مصرعه محللا العناصر التى كونت تلك الشخصية الفذة ، وقام بدراسة تحليلية لشعر المتنبى فى مختلف المناسبات مدحاً وهجاء ورضى وسخطاً .

صوت أبى العلاء

ترجمة وتقريب لطائفة من القصائد من ديوان « لزوم ما لا يلزم » لأبى العلاء ، وقد صيغت هذه الترجمة بلغة نثرية سائغة لا تعز على طالب ، فما أعجب أن تقرأ ترجمة من العربية إلى العربية ، تسهل لك فهم اللزوميات !

من حديث الشعر والنثر

يعرض طه حسين فى هذا الكتاب تاريخ نشأة الشعر والنثر ، وأيهما أسبق فى الوجود ، وأثر الفرس واليونان فى الشعر العربى ، وخصائص نثر ابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، والجاحظ ، وحلل إنتاج أبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز فأوفى بذلك على الغاية .

ألوان

هذه دراسات توفر لها التعمق والاستقصاء ، وهى فى ألوان شتى من الأدب العربى والأجنبى فى مختلف عصورهما .

جنة الشوك

يعرض عميد الأدب العربى فى هذا الكتاب نماذج من الناس وطبائعهم فى متباين أهوائهم ونزعاتهم . إنه صورة للإنسان كما هو بشره وخيره .

فى القصة والرواية

الحب الضائع

ينساب فى هذا الكتاب الفن القصصى فيضفى على أشخاصه لونًا هادئًا وادعًا . إنها قصة الحب الذى يضيع بين أهواء النفس البشرية . وفى الكتاب مجموعة من القصص تستمد وحيها من نبع الحياة المتشعبة المسالك

دعاء الكروان

قصة الريفية التى يخدعها فتى المدينة ، فكتب عليها المجتمع البدوى بالموت لتكفر عما جلبت لأسرتها من عار .

شجرة البؤس :

قصة تصور الحياة فى إقليم من أقاليم مصر فى القرن الماضى ، وشخصيات هذه القصة طيبة مستسلمة لقضائها ، يردها إيمانها العميق إلى الرضا الكامل .

المعذبون فى الأرض

صور من العدالة التى يجب أن تسود ، وقصص من الطغيان الذى لن يعود . وقد أسهم هذا الكتاب فى تقويض دعائم الطغاة ، وفى دكّ حصون الظلمة المفسدين ، وكان لأسلوبه أثر نفاذ فى نفوس المظلومين الذين تنفسوا الصعداء حين زال عنهم كابوس الطغيان إلى غير رجعة .

رحلة الربيع

فى هذه الرحلة يعرض عميد الأدب ألوانًا من الصور فى عالم الفن والأدب والتاريخ ، وفيما يقله البحر إلى الشاطئ الآخر ، فتقرأ فيه ألوانًا من الحياة معروضة بأسلوب عميد الأدب وموسيقاه الساحرة .

فى التربية

مستقبل الثقافة فى مصر :

هذا الكتاب يرسم خطوط النهضة التعليمية فى مصر ويعالجها ، ويدعو الدولة إلى حماية الصبى ، ويعدها مسئولة عن عقله وقلبه ، ويرى أن التعليم من حق كل مواطن فى الدولة كما أن من حقه أن يتنفس الهواء ويشرب الماء . كما عالج فيه الدكتور طه حسين ديمقراطية التعليم والامتحانات وغير ذلك مما له صلة بالتعليم والتعاون بين الدول العربية (جزءان)

وقد قامت « دار المعارف » بطبع هذه الكتب جميعها . كما طبعت بعض الكتب التى ترجمها ، أو أشرف على ترجمتها ، أو اشترك فى تحقيقها ، ومنها :

شرح « لزوم ما لا يلزم » للمعرى

إن كتاب المعرى « لزوم ما لا يلزم » يعدّ من كتب الفلسفة برغم التجديد الذى أدخله أبو العلاء فى شعره ، وقد عكف طه حسين على تفسير هذه الفلسفة وما قصده الشاعر من غوص فى أعماق النفس البشرية وأهوائها وعواطفها .

سير أعلام النبلاء للذهبي

أشرف الدكتور طه حسين على تحقيق هذه الموسوعة الإسلامية لأعلام الإسلام حتى القرن الثامن الهجرى ، وتعدّ الموسوعة من المراجع الوثيقة التى يحتاج إليها المؤرخون والأدباء والشعراء والمشتغلون بالتراجم والسير .

أنساب الأشراف للبلاذرى

أشرف الدكتور طه حسين على تحقيق ومراجعة هذا الكتاب النفيس الذى يعد من أهم المصادر لكتابة التاريخ العربى فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة .

مسرحيات راسين

قام الدكتور طه حسين بتوجيه مترجمى هذه المجموعة التى تضم مجلداتها ١٢ مسرحية .

مسرحيات شكسبير

أشرف الدكتور طه حسين على لجنة ترجمة مجموعة أعمال شكسبير المسرحية . فجاءت أقرب ما تكون للأصل الذى نقلت عنه ، وقد طبعت دار المعارف أكثر من عشرين مسرحية منها .

من الأدب التمثيلى اليونانى لسوفوكليس

الأساطير اليونانية ، وسوفوكليس ، والمسرح اليونانى يشرحها الدكتور طه حسين فى مقدمة طويلة . ثم يقدم لنا ترجمة أمينة لعدد من مسرحيات سوفوكليس

نظام الأثينيين

هذا الكتاب قدمه الدكتور طه حسين إلى العربية فاشتهر به وإن يكن صاحبه . وبفضل هذا التقديم استطاع القارئ العربى أن يعرف الكثير عن النظم السياسية والإدارية والقضائية لأمة اليونان التى قادت حركة الفكر والفلسفة زمنًا طويلا .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ١٧٨ ه /١٩٧٣
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣

١٥

كان سابعَ ثلاثةَ عَشَرَ من أبناء أبيه ، وخامسَ أحَدَ عَشَرَ من أشِقّته . وكان يشعرُ بأنَّ له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصًّا يمتاز من مكان إخْوته وأخَواتِهِ . أكان هذا المكان يُرْضِيه ؟ أكان يُؤْذيه ؟ الحقّ أنه لا يتبيَّن ذلك إلا فى غموض وإبهام . والحقُّ أنه لا يستطيع الآن أن يحكم فى ذلك حُكماً صادقاً . كان يُحِسُّ من أُمِّه رحمةً ورأفةً ، وكان يجد من أبيه لِيناً ورِفْقاً ، وكان يشعرُ من إخْوته بشىءٍ مِنَ الاحْتياط فى تحدُّثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنّه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أُمِّه شيئاً من الإهمال أحياناً ، ومن الغِلْظة أحياناً أُخرى . وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً ، والازْورار من وقتٍ إلى وقت . وكان احتياط إخوته وأخواته يُؤْذيه ؛ لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشىءٍ مِنَ الازْدراء .